وقفات تدبرية في النصوص القرآنية

(الجزء الثلاثون)

الدكتور

سامي رفعت الأشقر

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية الآداب – جامعة السويس

٢٠١٩م



الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى

المقدمة

الحمدُ لله ذي العَرْشِ العَلِيّ، والبَطْشِ القَوِيّ، والعِزِّ الأَبَدِيّ، والوَعْدِ الوَفِيّ، لا مُعْطَ لما مَنَعَ، ولا رَافِعَ لما وَضَع، ولا فاتِحَ لما أَغْلَقَ، ولا رَاتِقَ لما فَتَقَ، ولا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عن سَمْع، ولا يَذْهَلُهُ عَطاءٌ عن مَنْع، يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُن وما تُخْفِي الصدور، ولَهُ مقَاليدُ الأَشْيَاْءِ وإليه تصير الأمور........

وأشهد ألاَّ إله إلاّ الله وحدَه لا شريكَ له، مُنْعِمٌ عجّتْ بثَنَائِه الألسُنُ والأصوات، ومُكْرِمٌ رَجَتْه الأحياءُ والأموات، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه الكريم ورسولُه الرحيم ونبيُّه الذي لا يَضِيم، ما خَفَقَ سَرابٌ، وصُفِّق شرابٌ ولَمَعَ ضِياءٌ، وهَمَعَ عَماءٌ، وشَرَّفَ وكَرَّم وبَجّل وعَظَّم .

ثم أما بعد .....

فإن خير ما تصرف فيه الأوقات وتفنى فيه الأعمار هوالحياة مع كتاب الله تعالى: قراءة وحفظاً وفهماً وتدبراً وعملاً وتخلقاً ، فهو حبل الله المتين وحجته على خلقه، من اهتدى به هُدى، ومن تمسك به نجا، ومن عمل به ربح، ومن تدبره انتفى الشك والشرك من قلبه، وكان شفاء لما فى صدره من الشهوات والشبهات .

بيد أن كثيراً من المسلمين اليوم قد جعلوا جُلَّ غايتهم قراءة القرآن الكريم والإكثار من ختمه المرة بعد الأخرى دون توقف عند حدوده وتدبر آياته والنظر فى أوامره ومنهياته، مع أن تدبر القرآن والنظر فى معانيه معانيه كان من بين أسباب نزوله للناس، قال الله ﷻ: **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ(٢٩)﴾**.

بل إن الله ﷻ قد وصف لنا أثر كلامه لو أُنزل على جبل شامخ لصار متصدعاً منكسراً من خشية الله، وهو الصخر الأصم فما بالك بالقلب الحى، قال الله ﷻ: **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**

(٢١)﴾ ، كما بيَّن الله ﷻ صفات المؤمنين وجعل من بينها تأثر قلوبهم بسماع القرآن وإخباتهم له، قال الله ﷻ: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤)﴾**.

وقد حث القرآن الكريم الناس على تدبر آياته ، فقال الله ﷻ: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾**، وقال: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢)﴾**، وقد فهم أسلافنا الصالحون– رحمهم الله تعالى – ذلك فكان تدبر القرآن الكريم وفهم معانيه والعمل بما فيه هو منهج تعاملهم مع كلام الله ﷻ ، قال عبدالله بن عروة ببن الزبير: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن ؟ قالت: (تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله).

وكان الواحد منهم يقوم الليل كله بآية واحدة يقرأها ويرددها ويتدبرها فيعيش معها طوال الليل دون سآمة أو ملل ، بل ربما سمع أحدهم آية فيها وعيد شديد أو ذكر لعذاب النار فيسقط مغشياً عليه فهذا أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع رجلاً يتهجد في الليل ويقرأ سورة الطور فلما بلغ قوله تعالى: **﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨)﴾**، قال عمر: "قسمٌ – ورب الكعبة –حقٌ "، ثم رجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه ، وقال ابن أبي مليكة: "صحبت ابن عباس رضي الله عنه – يعني في السفر – فإذا نزل قام شطر الليل يرتل القرآن حرفاً حرفاً ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب".

هكذا كان حال أسلافنا مع كلام الله تعالى ، فما حالنا اليوم معه ؟

إن كثيراً منا يحفظ من القرآن الكريم سوراً من سنين طويلة، ولم يكلف نفسه عناء أن يتوقف – ولو للحظة – ليسأل نفسه عن معنى ما

يحفظه ويردده، فليس من المسلمين أحد إلا وهو يحفظ – حتى قصار السور – كالفلق والعاديات ونحوهما، وهو لا يعرف ما معنى الفلق ولا الغاسق ولا وقب ولا العاديات ولا ضبحاً ولا الموريات ولا قدحاً ولا كنود وكثير غيرها من كلمات وآيات القرآن الكريم التى نرددها فى الصلاة كل يوم وليلة.

ونقرأها بألسنتنا دون أن نفهم دلالتها أو نتدبر معانيها فكيف يتأتى لنا الخشوع فى الصلاة وتذوق حلاوة القرآن والاستمتاع بمعانيه والاستفادة بما فيه ونحن لا نفهم دلالة ما تردده ألسنتنا ؟

ومن ثمَّ ... كان لا بد من إحياء منهج التدبر والفهم فى تعامل المسلم مع كتاب ربه ، ليكون خطوة فى طريق التطبيق والالتزام بالأوامر واجتناب النواهى، فإننا لن نستطيع تطبيق القرآن الكريم والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه إلا بتدبر معانيه وفهم ما فيه .

وجاء هذا الكتاب يطبق هذا المفهوم – مفهوم التدبر – كخطوة متواضعة فى طريق خدمة القرآن الشامخ، مقتصراً على (جزء عم) لكثرة حفاظه من أبناء المسلمين فى خطوة – ربما تتبعها خطوات فى باقى أجزاء القرآن الكريم – وقد انتهجت فيه طريقة السؤال والجواب عملاً بهدى النبى ﷺ فى تعليم الناس من خلال هذا المنهج القائم على طرح السؤال لاستثارة الأذهان وتحفيز السامع للجواب؛ كقوله: (أتدرون من المفلس ؟).

وكان البدء فيه (يوم الإثنين) السادس من صفر لعام ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين من الهجرة المباركة، الموافق الثالث عشر من ديسمبر ٢٠١٣ م بأرض الحجاز ، ويسر الله تعالى الانتهاء منه (ليلة الثلاثاء) الثالث عشر من شهر رمضان المبارك لعام ألف وثلاثمائة وستة وثلاثين من الهجرة المباركة ، بمدينة السويس بجمهورية مصر العربية ..

والله تعالى أسأل أن يرزقنا في عملنا الإخلاص ، وأن يكتب لهذا العمل عنده القبول ، وأن يجعله نفعاً لى ولوالدى ولأهلى يوم اللقاء ، إنه أكرم مسئول ... وهو حسبى عليه اعتمادى ونعم الوكيل.

المؤلف

دكتور سامي رفعت الأشقر

﴿سورة الناس﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: دلالة تكرار كلمة ﴿النَّاسِ﴾ فى السورة خمس مرات:

لعل بعض الذين يطعنون فى القرآن الكريم من غير فهم ولا وعى يتساءلون عن الحكمة من تكرار كلمة **﴿ٱلنَّاسِ﴾** فى سورة الناس فى خمسة مواضع من ست آيات هى أصل هذه السورة المباركة ، مع أن الثابت فى كتب البلاغة أن تكرار الكلمة فى أكثر من موضع قريب ينافى البلاغة وحسن البيان.

وهذا كلام معتبر عند البلاغيين لكنه ينتفى إذا كان هناك سبب لهذا التكرار، فما العلة من وراء ورود كلمة **﴿ٱلنَّاسِ﴾** فى مواضع السورة الكريمة ؟

أولاً : لفظ الناس هم الإنس خاصة وهم جماعة لا واحد لها من لفظها، (قيل الناس لغة مفردة فاشتقاقه من النوس وهو الحركة ناس ينوس نوساً إذا تحرك، والأناس لغة أخرى.. ، فاشتقاقأناس من الأُنس خلاف الوحشة وذلك أن بعضهم يأنس ببعض)[١].

ثانياً : هذا التكرار فيه إطناب وتكرار بذكر اسم **﴿ٱلنَّاسِ﴾** وفيه من الشرف لهم وبيان محبة الله ﷻ وعنايته بهم ما لا يخفى على أحد، فهو ربهم وملكهم وإلههم والقائم على حفظهم ورعاية الصالحين منهم وكل هذه المعانى إنما اتضحت بالإطناب و(بتكرار الاسم**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)﴾** زيادة فى التعظيم لهم والاعتناء بشأنهم ، ولو قال " ملكهم ، إلههم " لما كان لهم هذا الشأن العظيم)[٢]. ويكفى فى شرف الناس أن الله ﷻ كرمهم وقال فى ذلك: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ**

---

(١) غريب الحديث، لابن قتيبة، ٣/ ٦٥٧، مطبعة العانى، بغداد – العراق، ط١ ، سنة ١٣٩٧ هـ.

(٢) صفوة التفاسير، محمد على الصابونى، ٥٤٠/٣، دار الصابونى للطباعة، ط٩.

مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)﴾[1]، ولعل أبرز صور التكريم لهم أن الله ﷻ جعل كلمة **﴿وَٱلنَّاسِ﴾** آخر كلمة يختم بها الرب ﷻ كلامه: **﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(٦)﴾**، وهنا ملمح عجيب وفقنى الله ﷻ إليه حيث إن مفتتح القرآن: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾**، وخاتمته: **﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(٦)﴾**، والعالمين جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله ﷻ، فيشمل عالم الجن، وعالم الطير، وعالم الوحش، وعالم النبات، وعالم الجماد، ويدخل فيه عالم الإنس إجمالاً، ثم يأتى ذكر الإنس منفرداً كآخر كلمة فى القرآن الكريم لتتناسب البداية مع النهاية.

ويكون التفصيل بعد الإجمال وذكر الخاص بعد العام، وبذلك يتحقق هذا الترابط والانسجام بين البدء والختام .

ثالثاً: وفى التكرار كذلك ملمح بلاغى أشار إليه د. السامرائى حيث قال: (وكلمة الناس المتكررة كل منها تدل على معنى مختلف لتتناسب مع كلمة رب وملك وإله.

فالناس الأولى أقل من الناس التي بعدها والأخيرة فقد تدرج معنى كلمة الناس من القلة إلى الكثرة على عكس كلمة الرب والملك والإله فقد تدرج من الكثرة إلى القلة، فالرب هو المرشد الموجه وقد يكون هناك العديد من المرشدين في المجتمع لكن لكل دولة ملك خاص بها والدنيا فيها ملوك كثر ولكن الإله واحد لا شريك له لكل الخلق من الإنس والجن، فالإله إله الخلق جميعاً وناسه كثر، أما الملك فناسه أقل من الإله، وكذلك الربّ ناسه أقل لأن الرب هو رب المؤمنين الطائعين فقط وليس كل الناس مؤمنين)[2] وصدق الله ﷻ حين وصف كتابه: **﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)﴾**[3].

---

(١) سورة الإسراء/ من الآية ٧٠ .

(٢) لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل، فاضل السمرائى، ص١٢٤ دار عمار، الأردن، ط٣، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م .

(٣) سورة الشعراء / الآية ١٩٥.

المسألة الثانية : ما معنى قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)﴾؟

الجواب: الوسواس في لغة العرب من الوسوسة وهو (الصوت الخفي من ريح، والوَسْوَاس صوت الحُلْي والوَسْوَسة الكلام الخفي في اختلاط)[١]، والوسواس الخناس هو الشيطان .

ومعنى أن الشيطان وسواس أى يلقى الكلام الخفي من الذنوب والأوهام والشبهات التى تصل إلى القلب من غير سماع ، أما كونه خناساً أى من عادته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه ، قال ابن عباس رضي الله عنه: (في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خَنَس.وكذا قال مجاهد، وقتادة) [٢] .

ويؤخذ من هذا أثر ذكر الله تعالى على سلامة قلب العبد وقوة إيمانه، وأن كيد الشيطان ووسوسته سرعان ما تذهب هباءً بمجرد أن يركن العبد بقلبه ووجدانه إلى ربه، مجرياً ذكر الله على قلبه قبل لسانه، فإن الشيطان عندئذ يخنس ويذهب كيده، ولذا جاء وصف الشيطان بالخناس على وزن فعَّال وهى صيغة مبالغة تفيد كثرة اتصاف الشيطان بهذا الفعل أى (الخنس والنكوص) وفيه بيان لأثر ذكر الله عز وجل على الشيطان وسرعة ارتداده على عقبيه عند ذكر العبد لربه وقد صدق فيه قول الله عز وجل: **﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً (٧٦)﴾**[٣]

المسألة الثالثة: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)﴾ لم خصت الصدور بالذكر دون القلوب ؟

لعل فى ذلك إشارة إلى أن الصدر هو ساحة القلب ومدخله فلا بد لمن

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، ٢٥٤/٦، دار صادر، بيروت- لبنان .

(٢) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ٥٤٠/٨، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م .

(٣) سورة النساء / من الآية ٧٦ .

أراد الوصول إلى القلب أن يمر إليه من خلال الصدر أولاً، حيث تجتمع الشبهات والشهوات فى الصدر أولاً قبل أن تلج إلى القلب، وهذا من رحمة الله ﷻ وفضله بأن جعل الصدر خطاً للدفاع عن القلب حتى لا يسهل استيلاء الشيطان على قلب العبد وتحكمه فيه، لأن أثر القلب على الجسد عظيم فبصلاحه صلاح سائر الجسد وبفساده فساد الجسد، فالله ﷻ ينبه المسلم إلى أن يحتاط لقلبه فلا يترك مجالاً لوصول الشيطان إلى قلبه بل يواجهه ويحاربه إذا حاول اقتحام صدره وهو بوابة القلب ومدخله، وهو مايوجب على المرء المسلم تفقد أحواله مع ربه وعدم ترك نفسه من غير محاسبة ولا مراقبة حتى لا يسرع الفساد إلى قلبه، ويمكننا فى هذا الموضع الاستئناس بقول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾** (1).

حيث نهانا ربنا أن نتتبع خطوات الشيطان لا الشيطان نفسه ، فإنه من أخذ حذره من خطوات الشيطان كان من الشيطان نفسه أبعد،وفيه دلالة على المبالغة فى البعد عن وسوسة الشيطان وتجنب مزالقه ومهالكه .

---

(1) سورة النور / من الآية ٢١ .

﴿سورة الفلق﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)﴾ هل يخلق الله تعالى الشر ؟

هذه مسألة فى غاية الخطورة، حارت فيها كثير من الأفهام وزلَّت فيها كثير من الأقدام، إذ لا يُعقل أن يوصف الله ﷻ ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا بنسبة الشر إليه، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ فى موقف الشفاعة العظمى يُنادى عليه فيقوم على رؤوس الخلائق ملبياً نداء ربه مثنياً عليه بقوله: (لبيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك، المهدي من هديت، وعبدك بين يديك، ولك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحان رب البيت)[(١)] كما أن أسماء الله ﷻ الحسنى تشهد بذلك فهى تدل على امتناع نسبة النقص إليه، والشر نقص، والنقص لا يُنسب لمن كانت أسماؤه كلها حسنى وصفاته كلها علا، فمن أسمائه ﷻ (القدوس)، ومعناه: المنزه عن كل نقص وشر وعيب، ولذا سمى بيت المقدس بذلك لأنه مكان يُتطهر فيه من الذنوب ومن قصده لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه،وسمى جبريل – عليه السلام– بروح القدس لأنه طاهر من كل عيب.

ومن أجود من كتب فى هذا الباب الإمام ابن القيم– رحمه الله– حيث قال: (إن الله تعالى لو فعل الشر لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى وهذا باطل، فالشر ليس إليه فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته فلا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه لايضاف إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته[(٢)]، ومعنى ذلك: (أن الشر في مفعولات الله لا في أفعاله) فالشر لا يُنسب إلى الله ﷻ بل يُنسب لمخلوقات الله ﷻ، قال ابن

---

(١) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى، ٢/٤٣٠، ورقمه ٣٤٤٢، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م .

(٢) فائدة جليلة فى قواعد الأسماء الحسنى، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، ص٢٩، الناشر غراس، الكويت، ط١، سنة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م .

القيم: (سبحانه الخالق لكل شيء فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء، والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب فجعله فاعلاً خير والمفعول شر قبيح فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها فهو خير وحكمة ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشراً وهذا أمر معقول في المشاهد؛ فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه كان ذلك منه عدلاً وصواباً يُمدح به وإن كان في المحل عوج ونقص وعيب يُذَم به المحل، ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك حكمة وعدلاً وصواباً، وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها فمن وضع العمامة على الرأس، والنعل في الرِجل، والكحل في العين، والزبالة في الكناسة، فقد وضع الشيء موضعه ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلهما)[١] .

وثمة نقطة أخرى متعلقة بهذا الباب ألا وهى أن الشر نسبى بمعنى أن ما يراه غيرك شراً قد يكون عندك خيراً فقطع يد السارق له شر، وعند جموع الناس خير، لما فيه من أمنهم وحفظ أموالهم، وكذا الصائل والقاتل ونحوهما (فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير وإن كان شراً بالنسبة إلى المسلوب الذليل فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثنى عليه به كما يحمد ويثني عليه بتنزيهه عن الشر وأنه ليس إليه)[٢] .

المسألة الثانية: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَد(٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(٥)﴾ ما سر الجمع بينهما ؟

الجواب: اقترن الساحر والحاسد في السورة لأن مقصدهما إيذاء الناس

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكربن قيم الجوزية، ص١٨٠ دار الفكر بيروت، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٩ .

وإلحاق الضرر بهم، والشيطان رفيق الساحروصاحب الحاسد يحادثهما ويزين لهما سوء أعمالهما ولكن الحاسد تعينه الشياطين دون استدعاء منه لهم، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعين به، فلهذا والله أعلم قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر، لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من شياطين الإنس والجن، وكذلك السحر منهما أيضاً، وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن وهو الوسوسة في القلب فذكره في سورة الناس .

المسألة الثالثة: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(٥)﴾ ما فائدة قوله ﴿إِذَا حَسَدَ(٥)﴾ فى الآية ؟

الجواب: تأمل تقييده ﷻ شر الحاسد بقوله: **﴿إِذَا حَسَدَ(٥)﴾** لأن أى إنسان عرضة لأن يتسلل الحسد إلى قلبه فهذا الأمر قلما يخلو منه قلب العبد، لكن المؤمن ينظر إلى نعم الله ﷻ على إخوانه من المؤمنين ويتمنى لهم البركة والزيادة وأن يرزقه الله ﷻ مثلهم لينال ما نالوه من رفعة الدنيا وعز الآخرة، وهذا المعنى هو ما عبر عنه قول نبينا ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)[١] فسماه حسداً وهو بمعنى الغبطة، قال ابن رجب – رحمه الله –: (هذا هو الغبطة وسماه حسداً من باب الاستعارة) [٢]، وقال ابن عبد البر – رحمه الله – : (ويقال إن الحسد لا يكاد يسلم منه أحد فمن لم يحمله حسده على البغي لم يضره حسده، وروينا عن الحسن البصري أنه قال ليس أحد من ولد آدم إلا وقد خلق معه الحسد، فمن لم يجاوزه إلى الظلم والبغي لم يتبعه منه شيء) [٣]. فمثل هذه الغبطة لا يترتب عليها أذى لأحد بل هى من باب الإعجاب المحمود غير

(١) الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخارى، ٣٩/١، باب الاغتباط فى العلم والحكمة، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هأ ، ١٩٨٧ م .

(٢) جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ٣٧/٦، دار المعرفة – بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ .

(٣) الاستذكار، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، ٢٩٠/٨، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

المذموم الذى يدفع صاحبه إلى العمل لينال من الخير مثلما نال صاحبه، أما الحسد المذموم فهو حسد الحاسد إذا حسد وتحقق ذلك الحسد، وترتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارحفهذا هو الحسد المذموم وهو تمنى زوال النعمة من المحسود .

لطيفتان فى سورتى المعوذتين:

اللطيفة الأولى:

وهي أن فيهما مستعاذ به وهو الله ﷻ ومستعاذ منه وهو ما يُخاف منه الضرر، وقد ورد المستعاذ به في السورة الأولى (الفلق) موصوف بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي الغاسق والنفاثات والحاسد، وأما في سورة (الناس) فقد جاء العكس حيث جاء المستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة. ونستفيد من ذلك خطورة الوسوسة حيث احتاج الإنسان إلى الاستعاذة منها برب وإله وملك الناس، فى حين جاءت الاستعاذة من الغاسق والنفاثات والحاسد برب الفلق فقط، والاستعاذة يجب أن تُقدَّر بحجم خطورتها، فكلما كان الخطر عظيماً كان اللجوء والاستعانة أعظم.

والفلق استعاذة من المخاطر التى تهدد البدن، بينما فى سورة الناس الاستعاذة من خطر وسوسة الشيطان التى تهدد سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين– وإن قلَّت – أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت .

اللطيفة الثانية :

لمّا أمر الله ﷻ قارىء القرآن أن يفتتح قراءته بالتعوُّذ من الشيطان الرجيم، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله ﷻ عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، فيكون القارىء محفوظاً بحفظ الله ﷻ الذي استعاذ به مِن أول أمره إلى آخره.

——————————————————

﴿سورة الصمد﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ما الفرق بين الأحد والواحد؟

كثيراً ما استوقفنى وأنا أقرأ سورة الصمد قول الله ﷻ: **﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ(١)﴾** وسألت نفسى عن سر التعبير بأحد بدلاً من واحد ، خاصة وأن التعبير الثانى قد ورد فى قوله ﷻ: **﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾** [(١)]. فما الفرق بين أحد وواحد؟ وهل هما اسمان أم صفتان؟ ولم ذكرت كل كلمة فى موضعها فى القرآن الكريم؟

والجواب:

أولاً: (أحد بمعنى واحد وأصل أحد "وحد" فأبدلت الهمزة من الواو المفتوحة كما أبدلت المضمومة في قولهم وجوه وأجوه ومن المكسورة في قولهم وشاح وإشاح ولم تبدل من المفتوحة إلا في حرفين أحد وأناة من قولهم امرأة أناة وأصلها وناة من الونى وهو الفتور) [(٢)].

ثانياً: أنكلا الاسمين من أسماء الله ﷻ الحسنى كما ورد فى القرآن الكريم وفى سنة النبى الأمين ﷺ فأما الاسم الأول (أحد) فقد ذكر فى القرآن الكريم فى هذا الموضع الذى نحن بصدده الآن من سورة الصمد، كما ذكر فى السنة النبوية فيما أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ سمع رجلاً يقول (اللَّهمَّ إِني أسألُكَ بأني أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ، لا إلهَ إلا أنتَ، الأحَدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُوا أَحَدٌ، فقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده لقد سأل اللهَ باسمه الأَعظَمِ، الذي إِذا دُعِيَ به أجابَ، وإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى) [(٣)] .

---

(١) سورة النساء / من الآية ١٧١.

(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، ص٤٨٢، دار الصحابة للتراث بطنطا – القاهرة، ط١، ١٩٩٢م .

(٣) صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد، ٣ / ١٧٤، ورقمه ٨٩٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ ١٤١٤هـ.

وأما الاسم الثانى (واحد) فقد ورد فى عدة مواضع فى القرآن الكريم منها: فى قول الله تعالى: **﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾**(١)، وقوله تعالى: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨)﴾**(٢)وقوله تعالى:**﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢)﴾**(٣)

وقوله: **﴿ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾**(٤)،وكذا فى قوله تعالى فى سورة ص: **﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥)﴾**(٥) .

ثالثاً: أن (واحد) في اللغة قد تأتى اسماً وقد تأتى صفة، فتقول: واحد، اثنان، ثلاثة.... قاصداً أسماء الأعداد، فتكون (واحد) عندئذ اسماً، أما إذا قلت: (جاء رجل واحد) فتكون عندئذ صفة للرجل، بيد أن لفظ (أحد) لا يوصف به أحد إلا الله ﷻ دون غيره، لارتباطه الوحدانية فلا يشرك معه فيه غيره، ولا يُنعت به غير الله تعالى، فتقول: (هو الله أحد)، ولا يقال: رجل أحد ولا درهم أحد .

رابعاً: فى الفرق بين أحد وواحد وجوه ذكرها العلماء، منها :

- لا يوصف غير الله ﷻ بالأحدية فلا يقال رجل أحد ولا درهم أحد، بل يقال رجل واحد، فأحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيه شئ .
- الواحد يستعمل في الإثبات، والأحد في النفي تقول في الإثبات (رأيت رجلاً واحداً) وتقول في النفي:(ما رأيت أحداً) فيفيد العموم.
- يتميز اسم (الأحد) بدلالة لا تتوافر فى (الواحد) حيث إن (أحد) تدل على الكيفية والماهية ، بينما تدل (واحد) على العدد .

---

(١) سورة النساء / من الآية ١٧١ .

(٢) سورة إبراهيم / الآية ٤٨ .

(٣) سورة النحل / الآية ٢٢ .

(٤) سورة الرعد / من الآية ١٦ .

(٥) سورة ص / من الآية ٦٥ .

خامساً: لم خصت (أحد) بالذكر هنا فى سورة الإخلاص دون (واحد)؟

لا بد أولاً أن نعلم أن كثيراً من المفسرين على أن اسم واحد هو بمعنى أحد، قال ابن عاشور – رحمه الله –: (أما "أَحَدٌ" فاسم بمعنى واحد. وأصل همزته الواو، فيقال: وحد كما يقال أحد، قلبت الواو همزة على غير قياس لأنها مفتوحة) [1] .

لكن قد يكون اسم (أحد) قد جاء فى هذه السورة المباركة بدلاً من (واحد) لأن (الأحد) لنفى التقسيم، و(الواحد) لنفى التعدد، فإذا قلت (أحد) فمعناه انفراد الله ﷻ بالألوهية، بخلاف واحد فمعناه نفى التعداد ووجود آلهة أخرى معه، ولعلنا إن أشرنا إلى سبب نزول هذه السورة فقد نعرفلم اختار القرآن الكريم اسم (الأحد) فى هذا الموضع دون الواحد ، فقد أورد أهل التفسير سبب نزولها، قالوا: (نزلت الآية جواباً لأهلالشرك لما قالوا لرسول الله ﷺ: صف لنا ربك، أمن ذهب هو أم من نحاس أم من صفر ؟ فقال الله عز وجل رداً عليهم: **﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾**)[2] .

ومعنى ذلك أن هذه السورة نزلت بياناً ورداً على سؤالهم عن صفة الله ﷻ لا عن عدد الأرباب فكان من المناسب أن يأتى الجواب بأنه ﷻ أحد لأنها تدل على نفى التقسيم، بدلاً من واحد التى تدل على نفى التعدد، والله تعالى أعلم .

سادساً: لا يفوتنى فى هذا الباب أن أسوق لطيفة ذكرها الصابونى فى تفسيره حيث قال: (هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت فى غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية ونفت التعدد **﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ(١)﴾**، وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ٣٠/٥٣٧، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م .

(٢) المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية، خالد بن سليمان المزيني، ٢/١١٠٦، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ م .

النقص والعجز ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ(٢)﴾،وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه، ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ(٣)﴾ وأثبتت الرابعة عظمته وجلال قدره، ونفت الأندادوالأضداد ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ (٤)﴾ فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال لله، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص والقبائح) [١] .

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢)﴾ ما معنى الصمد ؟

الجواب: قال ابن القاسم الأنبارى: (اسم من أسماء الله عز وجل وفي تفسيره ثلاثة أقوال: قال قوم: الصمد الذي لا يطعم كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾ [٢]، وقال السُّديّ: الصمد الذي لا جوفَ له، وقال أهل اللغة أجمعون لا اختلاف بينهم في ذلك الصمد عند العرب: السيِّد الذي ليسَ فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم) [٣]، ومن أجمل ما قرأت فى هذا الباب قول الشنقيطى – رحمه الله – : (قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢)﴾ قال بعض المفسرين يفسره ما بعده أي: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ(٣)﴾، قال ابن كثير: (وهذا معنى حسن) [٤]، وهذا الكلام يتفق مع قول المفسرين عن معنى الصمد أنه الذى يلجأ إليه الناس، وهذا يستلزم استغناؤه عن خلقه، ومن كان والداً فقد يحتاج إلى ولده عند كبره ومن كان مولوداً فهو لا يستغنى عن والده فى صغره، أما ربنا جل وعلا فهو الصمد المستغنى عن سائر خلقه، وخلقه إليه محتاجون فهم يلدون ويولدون، أما ربنا الصمد فهولم يلد ولم يولد ولم يكن له من الناس شبيه ولا نظير .

---

(١) صفوة التفاسير، ٣ / ٥٣٧ .
(٢) سورة الأنعام / من الآية ١٤ .
(٣) الزاهر فى معانى كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنبارى ٧٩/١، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢ م .
(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ١٥٠/٩، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م .

المسألة الثالثة: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)﴾ لم تقدم نفى شبهة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ على ﴿لَمْ يُولَد﴾؟

الجواب: لعل الأمر فى ذلك راجع إلى أن أكثر من يشركون بالله ﷻ ينسبون له – جل وعلا – الولد كقول اليهود والنصارى عنه أن له ولداً، قال الله ﷻ عنهم: **﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾** [١]، وكقول المشركين عن الملائكة إنهم بنات الله، ولم يقل إن الله ﷻ مولود وله والد قد ولده إلا قلة قليلة لم يُسمع بهم فناسب أن تأتى **﴿لَمْ يَلِدْ﴾** نافية لشبهة نسبة الولد إليه مقدمة على **﴿لَمْ يُولَدْ﴾** وهى شبهة قليلة إذا ما قورنت بالأولى، من باب تقديم الأهم فالمهم .

---

(١) سورة التوبة / من الآية ٣٠ .

﴿سورة المسد﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ ما الفرق بين تبت وتب؟

تبت بمعنى هلكت وخسرت، ومنه قول الله ﷻعن آلهة المشركين: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾[١]،أى هلاكاً وخسراناً، قال الله ﷻ: ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد وقع هذا الهلاك وتحقق، فكأن الأولى ﴿تَبَّت﴾ دعاء عليه بالهلاك والثانية ﴿وَتَبَّ﴾ تأكيد لحصول الدعاء عليه وتحققه (ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وقد تب")[٢] كما يقول الرجل: (أهلكه الله وقد هلك) .

المسألة الثانية: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ﴾لم خصت اليد بالذكر دون سائر الأعضاء؟

فى استعمال القرآن الكريم لليد قيل هى بمعنى النفس وكثيراً ما يستخدم العرب كلمة اليد للتعبير بها عن نفس الإنسان، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾[٣] أي نفسك، وقيل خصت اليد بالذكر لأن أغلب عمله إنما يكون بيده فنسب العمل إلى اليد من أجل ذلك .

المسألة الثالثة: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ لم ذكره القرآن بكنيته ولم يذكره باسمه؟

أكثر ما كان يحرص عليه العرب الكنية، حتى كان الواحد منهم يكنى ولده وهو طفل صغير لم يبلغ بعد،والكنية معناها ألا يُذكر اسم الرجل أو المرأة بل يُذكر بدلاً منه كلمة أب أو كلمة أم مضافة إلى اسم، فيقال عن عمر أبو حفص، وعن عائشة أم عبد الله، ونحو ذلك، وقد أعرض القرآن الكريم عن ذكر أبى لهب باسمه الحقيقى وكان اسمه عبد العزى بن عبد المطلب وذكره بكنيته أبى لهب والسبب فى ذلك يعود – كما قال المفسرون – إلى معانٍ أربعة :

---

(١) سورة هود / من الآية ١٠١ .
(٢) البحر المديد، أحمد بن محمد بن عجيبة، ٥٥٠/٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م .
(٣) سورة الحج / من الآية ١٠ .

الأول: أن اسمه قبيح وفيه دلالة الشرك فاسمه عبد العزى، والعزى كان صنماً يعبده العرب من دون الله قال الله تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠)﴾**[١]، فأعرض القرآن عن ذكر اسم فيه عبودية لغير الله تعالى تنزيهاً لكتابه عن أن يُذكر فيه اسم يحمل معنى الشرك ودلالته فى كتاب التوحيد.

الثاني: أنه قد اشتهر بين الناس بكنيته لا باسمه فأغلب الناس اليوم لا يعرف هذا الأثيم إلا بأبى لهب.

الثالث: أن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله عزوجل عن الأشرف إلى الأنقص، إذ لم يكن بد من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يذكرهم بكنيتهم

الرابع: للتوافق والمناسبة بين كنيته **﴿أَبِي لَهَبٍ﴾** ومصيره **﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣)﴾**، قال القرطبى – رحمه الله –: (وكأن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أباً لها، تحقيقاً للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه) [٢]، ولذا كان من السنة أن يُحسن الرجل اختيار اسم ولده وكان النبى ﷺ يعجبه الاسم الحسن ويغير الاسم القبيح، وفى "الأدب المفرد" أن سعيد بن المسيب حدث: (أن جده "حزنا "قدم على النبي ﷺ فقال: ما اسمك؟ قال: اسمي حزن، قال: بل أنت سهل، قال: ما أنا بمغير اسماً سمانيه أبي، قال بن المسيب: فما زالت فينا الحزونة) [٣].

المسألة الرابعة: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢)﴾ ما الفرق بين ماله وكسبه؟

قال العلماء فى الفرق بين المال والكسب وجوهاً، منها :

---

(١) سورة النجم / الآيتان ١٩ – ٢٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٣٧/٢٠ .

(٣) الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخارى، ص٢٩٣، دار البشائر، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٠٩هـ.

- المال هو أصل ماله، وما كسب هى أرباح هذا المال المكتسبة من التجارة، ويؤيد هذا (قراءة الأعمش "وما اكتسب" ورواه عن ابن مسعود) [١] .
- المال هو الماشية وما كسب من نسلها ونتاجها فإنه كان صاحب النعم والنتاج، قال أبو العالية: (إنه أراد أغنامه لأنه كان صاحب سائمة) [٢].
- المال هو مَالهُ الذي ورثه عن أبيه، والذي كسبه أى تحصل عليه بنفسه.
- المال هى الأموال المعروفة، وما كسب هم أولاده فهم من كسبه ومن سعيه، والدليل عليه قوله ﷺ: (إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه) [٣].

المسألة الخامسة: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤)﴾ما دلالة حمل الحطب؟

هذه المرأة زوج أبى لهب هى أم جميل أروى بنت حرب أخت أبى سفيان رضي الله عنه وعمة معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه ومعنى حمالة الحطب تُحمَل على معنيين؛ مجازى وحقيقى: فأما المجازى فهى إشارة إلى سعيها بالنميمة بين الناس للوقيعة بينهم فصور القرآن هذا الخُلُق فيها وكأنها تحمل الحطب لإشعال النار، (فالابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: كانت تمشي بالنميمة، يقول العرب: فلان يحطب على فلان إذا وشى وأغزى، قال شاعرهم :

من البيض لم يصطد على ظهر لامة

ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٢٣٨/٢٠ .

(٢) النكت والعيون، علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، ٣٦٥/٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) حديث صحيح روي من طرق بألفاظ متقاربة. فأخرجه أبو داود في الإجارات (من البيوع) باب في الرجل يأكل من مال ولده: ٥/ ١٨٢، والترمذي في الأحكام، باب ما جاء في أن الوالد يأخذ من مال ولده: ٥٩٢/٤.

يعني لم يمش بالنمائم)[1]، فالنميمة تشعل الحقد والبغضاء بين الناس كما يشعل الحطب النار، (قال أكثم بن صيفي لبنيه: "إياكم والنميمة فإنَّها نار محرقة، وإن النمام ليعمل في ساعة مالا يعمل الساحر في شهر")[2].

أما المعنى الحقيقي: فكما أورد أصحاب السير أن أم جميل كانت تحمل الشوك والأذى فتطرحه فى طريق رسول الله ﷺ حتى يطأ عليه بقدميه فتؤذيه، قال المباركفوري: (كانت امرأة أبي لهب أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك، وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلًا، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حربًا شعواء على النبيﷺ؛ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب) [3] .

المسألة السادسة: فى السورة إعجاز دال على أن هذا القرآن من عند الله تعالى:

فى هذه السورة دليل على أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وليس من نسج خيال محمد ﷺ إذ فيه إخبار عن الغيب وتقرير بأن مصير أبى لهب وامرأته النار فى إشارة إلى أنهما سيموتان على الكفر ولن يدخلا فى الإسلام وهذا ما حدث منهما إذ ظلا فى عداوتهما حتى ماتا على الكفر، فكان مصيرهما النار وبئس القرار والسؤال: لو كان هذا القرآن من تأليف محمد فمن أين علم أن عمه وامرأته سيموتان على الكفر ولن يدخلا فى الإسلام ؟ قد يقول البعض إن موت أبى لهب على الشرك أمر متوقع بسبب عداوته وعناده، لكن هذا ليس سبباً يجعل أى عقل بشرى يقرر

---

(١) الكشف والبيان١٠/٣٢٦، أحمد بن محمد الثعلبى النيسابورى، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م .

(٢) المرجع السابق ١٠/٣٢٧ .

(٣) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، ص٩٥، دار الوفاء، مصر، ط١٧، ١٤٢٦ه.

مصير أى إنسان مهما كانت عداوته، فكم من رجل كان من ألد الأعداء لله ورسوله ثم تغير به الحال وتحول من الكفر لجند الإيمان، ولعل أبرز مثال على ذلك فاروق الأمة أبو حفص عمر بن الخطاب فقد تواترت الوقائع على عداوته وشدة حربه لله ورسوله وأذاه للمؤمنين حتى منَّ الله عليه بالإيمان الذى رفعه إلى مقام الصحبة الشريفة والخلافة الراشدة والجنة الخالدة. أضف إلى ذلك أن الله تعالى صرف عقل أبى لهب عن أن يزعم أنه قد أسلم – حتى ولو ظاهراً – من أجل إحراج الرسول ﷺ وبيان أن القرآن قد أخطأ أو كذب ، لكن حتى هذه لم يوفَق إليها عدو الله وصرف الله عقله عنها ، ليتأكد للقاصى والدانى صدق الله وكذب عدوه ... ولله الحمد والمنة.

﴿سورة النصر﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ لم استعملت الآية إذا ولم تستعمل إن ؟

والجواب: إن هذا أسلوب شرط فيه أداة الشرط وهى (إذا)، وفعل الشرط وهو جاء نصر الله والفتح، أما جواب الشرط فهو فسبح بحمد ربك واستغفره، والسؤال هنا لم اختار القرآن استعمال (إذا) ولم يستعمل أداة الشرط (إن)، والجواب: أن بين "إذا" و"إن" فارق فى اللغة حيث تدل "إذا" على تحقق وقوع فعل الشرط بينما "إن" لا تدل على التحقق بل تدل على التشكك في وقوعه، وهذا هو الفرق بين "إن" الشرطية و"إذا" الشرطية .

فعلى سبيل المثال إذا قال إنسان لآخر: إذا طلعت الشمس جئتك... هذا يعني أن المجيء مؤكد الوقوع، لأن طلوع الشمس لا يتخلف، أما فعل الشرط بعد "إن" فغير مؤكد الوقوع فتقول: (إن جاء زيد أكرمته) لأن مجيئه غير مؤكد فقد يحدث له ما يمنعه، فالفرق بين "إذا" و "إنْ" أنَّ "إذا" تستخدم للشرط وتعني أن فعل الشرط الذي يأتي بعدها مؤكد الوقوع، بينما يكون فعل الشرط بعد "إن" غير مؤكد الوقوع، كقول الله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾** (١)، لأن الفاسق قد يأتي وقد لا يأتي، وكذا فى قوله ﷻ: **﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾** (٢) إشارة إلى أن الأصل فى الزواج هو الديمومة وعدم الاستبدال لكن قد يحدث – وهذا قليل – فاستعملت الآية أسلوب الشرط (إن)، بينما قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾**(٣) لأنه من المؤكد عدم استغناء الصحابة رضي الله عنهم عن التناجى

---

(١) سورة الحجرات / من الآية ٦ .
(٢) سورة النساء / من الآية ٢٠ .
(٣) سورة المجادلة / من الآية ٩.

والتخاطب مع الرسول ﷺ فعبرت الآية بأسلوب الشرط (إذا) وفى هذا الموضع قال الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)**﴾ لأن النصر من الله مؤكد الوقوع، وقد جاء النصر فعلاً وتحقق ورآه الرسول ﷺ فى حياته وأقرَّ الله به عينه قبل مماته، (ولتحققه عبَّر عنه بـــ "إذا" إعلاماً بأنه لا يخلف الوعد ولا ينقص ما قدره وإن توهمت العقول أنه فات وقته) [(١)] .

المسألة الثانية: ما الفرق بين النصر والفتح ؟

ما عن الفرق بين النصر والفتح ودلالتهما، فإن النصر والفتح ليسا مصطلحين مترادفين، بل هما مختلفان.

فالنصر: هو الظفر وهزيمة العدو فى المعركة، والفتح هو فتح البلاد ودخولها، ومن المنطقي أن يكون فتح البلاد بعد النصر على أهلها ولذا قَّدم النصر على الفتح، قال الزمخشرى : (النصر الإغاثة والإظهار على العدوّ، ومنه: نصر الله الأرض أى غاثها، والفتح: فتح البلاد والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة)[(٢)] وقيل: (النصر كمال الدين، والفتح الإقبال الدنيوي له ولأمته، وقيل: النصر هو الظفر بالمنى في الدنيا، والفتح في الآخرة) [(٣)]، والأرجح وفق السياق هو الرأى الأول، قال الشوكانى – رحمه الله – (الأمر أوضح من هذا وأظهر فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم) [(٤)]، ولا يخفى على أحد فائدة إضافة النصر إلى الله ﷻ: ﴿**نَصْرُ اللَّهِ**﴾ وما تحمله من دلالة تعظيم هذا النصر ورفعته على ما عداه من انتصارات فهو نصر إلهى

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، ٨٢٩/٨، إبراهيم بن عمر البقاعى، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هــ، ٢٠٠٢م.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، ٨١٥/٤، محمود بن عمر الزمخشرى دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان .

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٨٥/٦، الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٦هــ، ١٩٩٦م.

(٤) فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، ٧٢٤/٥، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤٠٣هــ، ١٩٨٣م .

ربانى يخرج عن حدود البشر وإمكاناتهم ، وثمة دلالة أخرى فى نسبة النصر إلى الله ﷻ، ألا وهى أنه نصر الله ﷻ (يجيء به الله: في الوقت الذي يقدره، في الصورة التي يريدها، للغاية التي يرسمها، وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد، وليس لأشخاصهم فيه كسب، وليس لذواتهم منه نصيب، وليس لنفوسهم منه حظ إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم وأن يقيمهم عليه حراساً ، ويجعلهم عليه أمناء. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجاً .

وبناء على هذا الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول ﷺ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم، إن شأنه ومن معه هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة الانتصار)[1].

المسألة الثالثة :﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾ لم أُمِر النبىُ ﷺ بالاستغفار وهل يتنافى ذلك الأمر مع عصمته ﷺ ؟

لا خلاف فى عصمة الرسول ﷺ وحفظ الله ﷻ له من الوقوع فى المعاصى والآثام، وهذا ما يُحدث – عند البعض – إشكالاً مع أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ بالاستغفار، ولذا قالأهل العلم فى هذه المسألة أقوالاً لبيان المراد من أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ بالاستغفار، منها:

- أن هذا الأمر من الله ﷻ هو فى الحقيقة لأمة النبى ﷺ وإن كان موجهاً لشخص النبى ﷺ فهو من باب تعليم الأمة، قال ابن كثير فى قوله تعالى: **﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾**[2]: (هذا تهييج للأمة على الاستغفار)[3]، فإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ بالاستغفار وقد

(١) فى ظلال القرآن ، ١٢١/٨ ، سيد قطب ، مطبعة الحلبى ، القاهرة ، الطبعة الثانية .
(٢) سورة غافر / من الآية ٥٥ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٧ / ١٥١ .

عصمه، فما بال المذنبين المقصرين أمثالنا، فنحن أولى بملازمة الاستغفار وتجديد التوبة .

- وقيل إن النبى ﷺ كان يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله ﷻ به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوباً تحتاج إلى استغفار، قال الجزائرى: (أي اطلب منه المغفرة لما فرط منكما هو ذنب في حقك لقربك وكمال علمك، وأما غيرك فليس هو بالذنب الذي يُستغفر منه ويُتاب إلى الله تعالى منه) [١] وهذا من عظيم مكانته وشدة خشيته ﷺ ولعلى أستأنس هنا فى هذا المقام بقول ابن عاشور: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) [٢].
- كما أن النبى ﷺ إذا ترك الأولى فى قضية من القضايا، كمسألة أسرى بدر، فقد يُعد هذا فى حقه ذنباً يُؤمر بالاستغفار من أجله وذلك لعظيم مكانته وعلو شأنه.
- وقيل إن الأمر بالاستغفار علته رفع درجاته ﷺ.
- وقيل إن الاستغفار عبادة محضة لا يُشترط لفعلها وقوع الذنب، فهو تعبد يجب إتيناه، لا للمغفرة، بل من باب التعبد المحض.
- وقيل الأمر بالاستغفار بمعنى المداومة عليه .
- وقيل فى معنى ﴿**وَاسْتَغْفِرْهُ**﴾، أى: (استغفر لأمتك) [٣].

وأياً ما كان المعنى المراد فإن الدرس المستفاد هو مداومة العبد على التسبيح والاستغفار، والتوبة والندم، وله فى المعصوم ﷺ الأسوة والقدوة .

وفى السورة لطيفة يحسن التوقف عندها :

لِمَ فهم بعض الصحابة من هذه السورة المباركة أنها نعى للنبى ﷺ وإيذان باقتراب أجله ؟ ذلك أن السورة الكريمة قد حوت إشارة إلى اقتراب

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ٦٢٥/٥، جابر بن موسى الجزائرى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٥، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

(٢) التحرير والتنوير / ٢٦ / ١٤٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠ / ٢٣٣ .

أجله ﷺ وتهيؤه للقاء ربه ﷻ وهذا ما فهمه بعض ذوى الأفهام النافذة من الصحابة الكرام – رضى الله عنهم – كأبى بكر وعمر والعباس وابنه وابن مسعود – رضى الله عنهم –، قال القمى: (وقد اتفق أكثر الصحابة على أنها دلت على نعي الرسول ﷺ وفهمه بعض الصحابة منها، وخطب رسول الله ﷺ بعد نزولها فقال: إن عبداً خيرّه الله بين الدنيا وبين لقائه في الآخرة فاختار لقاء الله) [1].

كما توافرت الآحاديث على ذلك ومن ذلك ما أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس ؓ قال: (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: ومارأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾** حتى ختم السورة، فقال بعضهم: "أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا"، وقال بعضهم: "لا ندري"، أو لميقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس، أكذلك قولك ؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾** فتح مكة، فذاك علامة أجلك: **﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾**، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم) [2].

وقد دلت هذه السورة على علامة اقتراب أجله ﷺ وهى نصر الله ﷻ لنبيه وفتح مكة ودخول العباد فى الدين أفواجاً، فإذا تحقق ذلك فقد أكمل الرسول ﷺ مهمته وأدى ما عليه فأمره الله ﷻ بمداومة التسبيح والاستغفار استعداداً للقاء الرب ﷻ، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: (المراد من هذه السورة أنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد ودخل الناس في دينك الذي

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/ ٥٨٥ .

(٢) الجامع الصحيح، ٤ / ١٩٠١، محمد بن إسماعيل البخارى، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م .

دعوتهم إليه أفواجاً فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار، فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا)[١] ولذا تسمى هذه السورة – كما فى كتب المفسرين – بسورة التوديع .

كما أن فى السورة ملمحاً آخر ألا وهو أن الأمر للنبى ﷺ بملازمة التسبيح والاستغفار فيه انشغال له ﷺ عن أعباء إبلاغ الرسالة وتعليم الناس (ولا يخفى أن الاشتغال بهذه الأعمال يمنع من الاشتغال بأعباء التبليغ وبأداء ما كان يواظب عليه من رعاية مصالحالأمة ، فكان هذا كالتنبيه على أن أمر الرسالة قد تم وكمل بسبب الموت)[٢].

أما الأمر الأخير فهو أن إشارة السورة إلى النصر المبين والفتح الكبير هى دلالة على تمام الدين وكمال الرسالة وتحقيق الغاية التى من أجلها أُرسل الرسول ﷺ، وقد جرت سنة الله ﷻ فى كونه أنه ليس بعد التمام إلا النقصان، قال أبو البقاء الراندى فى قصيدته الرائعة :

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصـــانُ * فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنســانُ**

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ * مَن سَرّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمان**

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ * وَلايدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ**

وفى ذلك درس للمرء ألا يغتر بما آتاه الله ﷻ وليعلم أن الدنيا دار زوال والآخرة دار بقاء .

---

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ص ١٩٨، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/ ٥٨٧.

﴿سورة الكافرون﴾

وفيها مسألتان :

المسألة الأولى: لم بدأت السورة بـــ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ ولم تقل: "الذين كفروا" ؟

اختارت السورة النداء عليهم بيا أيها الكافرون بدلا من الذين كفروا لأن هناك فرق بين الصيغتين، لأن هذه السورة قد نزلت فيهم كاملة فكان لا بد أن يكون وصف "الكفر" لهم ملازماً وملاصقاً، فكان استعمال صفة الكافرون أولى فى هذا المقام حيث يدل على أن الكفر صفة ملازمة لهم، ثابتة فيهم، وأنهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق؛ لأنهم ليسوا على دين، خلافًا لما كانوا يدَّعون من أنهم على دين إبراهيم عليه السلام؛ وإنما هم أصحاب ظواهر يهمهم أن يستروها لأنهم كافرون، ولا التقاء بين الكفر والإيمان في طريق .

بيد أن النداء عليهم بـــ "يا أيها الذين كفروا " لا يحمل نفس هذه الملازمة فى الصفة حيث يحتمل أن يكونوا قد آمنوا ثم كفروا ، أو كفروا فى الماضى وسوف يؤمنون فى المستقبل ، أى أن معنى ملازمة الكفر ودلالته أقوى فى الوصف الذى استعملته السورة عنه فى "يا أيها الذين كفروا " .

المسألة الثانية: ما الفرق بين ﴿لا أَعْبُدُ ﴾ و ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ﴾ ؟

والجواب: أنالجملة الأولى صياغتها فعلية **﴿أعبد﴾** فعل مضارع، والجملة الثانية صياغتها اسمية **﴿عابد﴾** اسم فاعل، ومعلوم أن بينهما فرق فى الدلالة وبيانه كما يلى :

﴿لا أَعْبُدُ﴾ هذا فِعْلٌ مُضارع، **﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ﴾** هذه اسمُ فاعل، وشَتَانَ بين الكلمتين، فإذا قلتَ: لا أعبد، فأنا أنْفي عن نفْسي فِعْل العِبادة، ولكن إذا قلت: **﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ﴾** ، فأنا أنْفي عن نفْسي إمْكانِيَّة العِبادة، كأن تقول: فُلانٌ

لم يسْرِق، فأنت هنا نَفَيْتَ عنه فِعْلَ السرقة، أما إذا قلتَ: ما هو بِسارِق فقد نَفَيْتَ عنهُ إمْكانِيَّة السَّرِقة، فلا يُعْقَلُ أنْ يسرِق، فاسمُ الفاعل أشَدُّ في النَّفْي من الفِعْل المُضارع، فله معنى الاستِمْرار، مثلاً أنا أكتب، يُمْكن أنْ أكْتُبَ مَرَّةً في حِياتي، فيُقال: أنا أكتُب، فعل مُضارع، أما أنا كاتب، فَهِيَ تعْني أنَّ مِهْنتي الكِتابة، فربنا عز وجل قال: ﴿لا أَعْبُدُ﴾ وفى الثانية: ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ﴾ فيصير المعنى: فلا أعبد آلِهَتَكم، وليس عندي إمْكانٌ إطْلاقاً أنْ أعبُدها، لا أعبُدها ولن أعبُدها! فالإمْكانِيَّة مُنْعَدِمة، فالأوَّل نَفَيْنا به الفِعْل، وفي الثاني نَفَيْنا الإمْكانِيَّة هذا معْنى آخر من معاني التَّكْرار.

وفى السورة لطيفة تحسن الإشارة إليها :

حيث يتوقف المسلم المهتم بسنة حبيبه ﷺ ليتساءل عن سر جمع الرسول ﷺ كثيراً بين سورتى "الكافرون" و"الصمد" فى كثير من صلوات السنن، ومنها: سنة الفجر، وسنة المغرب، وركعتى الطواف .

والسبب فى ذلك راجع إلى دلالة السورتين على التوحيد لله ﷻ وإخلاص المعتقد والعبادة والتوجه له ﷻ، وهذا ما عبَّر عنه ابن قيم الجوزية حين أشار إلى أن هاتين السورتين قد اشتملتا على نوعى التوحيد الذى لا نجاة للعبد بدونهما، وهما :

(**النوع الأول**: توحيد العلم والاعتقاد، المتضمِّن تنزيه الله تعالى عمًّا لا يليق به، من الشرك والكفر، والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد، فيكون له مِثْل. ومع هذا فقد اجتمعت له جل جلاله صفات الكمال كلها؛ فتضمنَّت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ونفي ما لا يليق بجلاله من الشريك أصلاً وفرعًا، وشبهًا ومثلاً.. فهذا هو توحيد العلم والاعتقاد.

والنوع الثاني: توحيد القصد والإرادة؛ وهو أن لا يُعبدَ إلا إياه، فلا يُشركَ به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود. وسورة (الكافرون)

مشتملة على هذا النوع من نوعي التوحيد، فتضمنت بذلك السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له) [1] .

وعلى هذا فإن سورة الكافرون قد حوت التوحيد العملى بينما حوت سورة الإخلاص التوحيد العلمى العقدى، فاستحقتا أن تجمعا معاً فى الصلاة، أخرج ابن حبان في صحيحه: باب "ذكر إثبات الإيمان لمن قرأ سورة الإخلاص في ركعتي الفجر"، وساق بسنده إلى جابر بن عبد الله ﵁ أن رجلاً قام فركع ركعتي الفجر، فقرأ في الركعة الأولى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١)﴾**، فقال النبي ﷺ: "هَذَا عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ"، وقرأ في الأخرى: **﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾** حتى انقضت السورة، فقال النبي ﷺ :"هَذَا عَبْدٌ آمن بِرَبِّهِ")[2].

ـــ

(١) بدائع الفوائد، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، ١/ ١٣٨، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

(٢) صحيح ابن حبان، ٢١٣/٦، باب النوافل ورقمه ٢٤١٤.

﴿سورة الكوثر﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: ما المراد بالكوثر فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١)﴾ ؟

الجواب: الكوثر على وزن فوعل من الكثرة، وقد تعددت أقوال المفسرين فى معناه، فالمشهور أن الكوثر نهر فى الجنة وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: (لما عُرج بالنبى ﷺ إلى السماء قال: "أتيتُ على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفاً فقلت: ما هذا يا جبريل، قال: هذا الكوثر) [١] وبسنده أيضا عن عائشة رضي الله عنها سُئِلت عن قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١)﴾** قالت: "هو نهرأعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليهما در مجوف آنيته كعدد النجوم، أَشَدُّ بياضاً من اللبَن وأَحْلَى من العسلِ على حافتيْهِ قِبابُ الدُّرِّ المجوَّفِ"[٢] وعليه قول أكثر المفسرين وقال عكرمة عن الكوثر: (هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة)[٣]، و (قال الفراء قال ابن عباس رضي الله عنه: الكوثر هو الخير الكثير)[٤]، وقول ابن عباس رضي الله عنه الأخير أعم وأشمل فيدخل تحت معناه كل ما سبق من خيرى الدنيا والآخرة من الإسلام والنبوة والذكر الخالد ونهر الجنة وغير ذلك، ولذا روى (عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "الكوثر"الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر :قلت لسعيد بن جبير: إن أناسا يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه اللهإياه) [٥].

المسألة الثانية: ما المقصود بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢)﴾ ؟

فى الآية الكريمة وقفات تحسن الإشارة إليها :

---

(١) صحيح البخارى، ٦/ ١٧٨، ورقمه ٤٩٦٤ .

(٢) صحيح البخارى، ٦ / ١٧٨، ورقمه ٤٩٦٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥٠١/٨

(٤) تهذيب اللغة ١٠٢/١٠، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١ م .

(٥) صحيح البخارى، ٦ / ١٧٨، ورقمه ٤٩٦٦ .

الأولى: لابد أولاً من الإشارة إلى جمع هذه الآية بين لونين من ألوان العبادة: البدنية وأعنى بها الصلاة، والمالية وأعنى بها نحر الذبائح، وقد حاز نبينا ﷺ فيهما قصب السبق فكانت قرة عينه فى الصلاة كما أخبر هو عن نفسه، وكان يكثر من النحر تقرباً إلى الله ﷻ وإطعاماً للناس، فقد روى أنه أهدى مائة بدنة ونحر بيديه منها ثلاثاً وستين بدنة مساوية لعدد سني عمره ، إذ مات ﷺ وله من العمر ثلاثة وستون عاماً .

الثانية: تأمل دلالة قوله تعالى: **﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ (٢)﴾** وما فيها من دلالة إخلاص العمل لله وحده وقصده بالعبادة وإفرادها له ﷻ، ولم يقل (وانحر لربك) حتى تتوافق أواخر الآيات وتتوحد خاتمتها بحرف الراء (الكوثر، وانحر، الأبتر)، وهو ما يدخل فى باب مراعاة الفواصل وتوحد الخواتيم وهو لون من ألوان علم البديع فى البلاغة .

الثالثة: قوله ﷻ: **﴿وَانْحَرْ﴾** فالنحر هو طعن الإبل في اللبة عند المنحر ملتقى الرقبة بالصدر، واتفق الفقهاء على أن النحر للإبل، والذبح للغنم، أما البقر فمتردد فيهبين النحر والذبح، وأجمعوا على أن ذلك هو الأفضل ولو عمم النحر في الجميع أو عمم الذبح في الجميع لكان جائزاً ولكنه خلاف السنة.

وقالوا إن الحكمة في تخصيص الإبل بالنحر هو طول العنق؛ إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبح بعيدا فلا يساعد على إخراج جميع الدم بيسر، بخلاف النحر في المنحر فإنه يقرب المسافة ويساعدالقلب على دفع الدم كله، أما الغنم فالذبح مناسب لها والعلم عند الله. وقد خص النحر بالذكر هنا دون الذبح حثاً على التقرب إلى الله ﷻ بكرائم الأموال ونفائس النفقات، فالإبل هى أغلى أموال العرب وأنفسها، من باب قوله ﷻ: **﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾** [(١)] .

الرابعة: قال كثير من المفسرين فى اقتران الصلاة فى الآية المباركة بالنحر: إن المقصود هنا صلاة عيد الأضحى لأنها تجمع بين صلاة العيد

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٦٧ .

ثم نحر الأضاحى بالترتيب المذكور فى الآية الكريمة، وأجمع أهل العلم علي عدم جواز مخالفة الترتيب المذكور فى الآية الكريمة فصلاة العيد أولاً، ثم النحر ثانياً، وأن من تعجل فنحر قبل الصلاة فلا تجزئه أضحيته وإنما هى شاة لحم قدمها لأهله. وقيل إن المراد فى الآية الكريمة: كل الصلوات وسائر النحر دون تخصيص لصلاة عيد الأضحى، قال الشيخ الجزائرى: (فاشكر هذا الإنعام بأن تصلي لربك وحده ولا تشرك به غيره، وكذا النحر فلا تذبح لغيره تعالى وفي هذا تعليم لأمته، وهل المراد من الصلاة صلاة العيد والنحر الأضحية؟ لا مانع من دخول هذا في سائر الصلوات والنسك) [١] .

المسألة الثالثة: ما معنى قوله : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ(٣)﴾ ؟

الجواب: كلمة **﴿شَانِئَكَ﴾** مأخوذة من (الشنآن) وهو البغض وشدة الكراهية، ومنه قوله تعالى: **﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾**[٢]، قال الزمخشرى فى تفسيرها: (لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم)[٣].

أما معنى **﴿الأَبْتَرُ﴾** فالأبتر مأخوذ من البتر وهو القطع، وبترت الشئ أى قطعته، وكل أمر انقطع عن الخير فهو أبتر، قال القرطبى: (قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الدواب الذي لا ذَنَب له) [٤] والذَنَب هو الذيل، ولبيان معنى الآية الكريمة يجب الوقوف على سبب نزولها فإن بيان السبب بيان للآية، قال المفسرون: إن قريشاً كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده: "قد بتر فلان"، فلما مات لرسول الله ﷺ ابنه القاسم بمكة وإبراهيم بالمدينة، قالوا: بتر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده، فنزلت هذه الآية لترد عن النبى ﷺ وتدفع عنه، وتبين أن كل كارهى الرسول ﷺ هم المبتورون من الخير المقطوعون عن رحمة الله، قال

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير، ٦٢٢/٥ .
(٢) سورة المائدة / من الآية ٨ .
(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ١ / ٦١٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٣/٢٠ .

الداودي (كل شانئى رسول الله ﷺ فهو أبتر ليس له يوم القيامة شفيع ولا حميم يطاع) [1].

وفى السورة ثلاث لطائف يحسن الوقوف عندها :

اللطيفة الأولى: إن المتدبر فى علاقة سورة الكوثر بالسورة السابقة عليها وهى سورة الماعون يجد ترابطاً عجيباً بين موضوع السورتين، بما يدلل على إعجاز ترتيب سور القرآن الكريم، فقد خُتمت سورة الماعون بقوله ﷻ: ﴿**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)**﴾ وبدأت سورة الكوثر بقوله ﷻ: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ فذكر أنه أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ومنه النهر في الجنة، أي لئن كان المنافقون يمنعون الماعون فإنا أعطيناك الكوثر، وقد جاءت سورة الكوثر فى مقابل سورة الماعون، فقد ذكر الفخر الرازى أن سورة (الماعون) قد وصفت المنافقين بأربع صفات، ثم ذكر ما يقابلها من أوامر وصفات لسيد الخلق وإمام المرسلين وقدوة العالمين فى سورة (الكوثر)، فأما صفات المنافقين المذكورة فى سورة (الماعون) فأولها: البخل وهو المراد من قوله: ﴿**يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)**﴾ وذكر ما يقابلها فى سورة الكوثر: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ أي إنا أَعطيناك الكثير ،فأعط أنت الكثير ولا تبخلالصفة الثانيةللمنافقين هى ترك الصلاة وهو المراد من قوله: ﴿**ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ(٥)**﴾)، وقابلها فى سورة الكوثر بقوله: ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**﴾ أي داوم عليها، والصفة الثالثة: المراءاة في الصلاة هو المراد من قوله: ﴿**ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ(٦)**﴾ وقابلها فى سورة الكوثر بقوله: ﴿**لِرَبِّكَ**﴾ أى ائت بالصلاة لرضا ربك، لا لمراءاة الناس، أما الصفة الرابعة: المنع من الزكاة وهو المراد من قوله: ﴿**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)**﴾ فذكر في (سورةالكوثر) فى مقابلها: ﴿**وَٱنۡحَرۡ**﴾ وأراد به التصدق بلحم الأضاحي وإطعام الفقراء والمحتاجين. ثم خُتمت سورة (الكوثر) بقوله: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (٣)**﴾ أي المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة المذكورة في تلك السورة

---

(١) الجواهر الحسان فى تفسير القرآن ٤/٤٤٦ .

سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل وفى الآخرة الثواب الجزيل.

فتأمل – يارعاك الله – هذا التناسب العجيب بين هاتين السورتين الكريمتين .

اللطيفة الثانية: يمكن للقارئ المتدبر في هذه السورة الكريمة أن يجد فيها ملازمة معنى الوصل والقطع، فقد خُتمت السورة السابقة عليها وهى سورة (الماعون) ببيان صفة المنافقين فى قطع الماعون والمساعدة عن المحتاجين وبدأت سورة (الكوثر) ببيان وصل الله ﷻ لنبيه ﷺ بالخير الكثير والشرف العظيم، كما أن الله ﷻ قد وصل نبيه ﷺ بالكوثر والخير الجزيل، وقطع عدوه فجعله أبتر الخير والذكر فى الدنيا والآخرة، فكأن الله ﷻ يقول لنبيه ﷺ إنا نعطيك ونقطع من يعاديك .

وتأمل أيضاً المناسبة بين النحر الذي فيه قطع حياة – أى حياة الحيوان المنحور – لوصل وإحياء حياة أهم وهى حياة المسكين الجائع ، كما تتوافر دلالة القطع والوصل في السورة فى قطع أعداء الحق، ليكون في ذلك وصل لحياة الحق في قوله: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (٣)**﴾ .

أما اللطيفة الثالثة: فتكمن فى أن هذه السورة مع قصرها – فهى أقصر سورة فى القرآن الكريم كله – قد حوت جملة من جمال المعاني، وتناسق الكلمات والحروف، واشتمال اللفظ القليل على معانٍ جليلة عظيمة، فلتنظر أولاً إلى حروف السورة على صغرها وكيف أنها متناسقة تكرر فيها لفظ الراء الذي فيه التفخيم، بحيث إذا قرأه القاريء يفخم الصوت من فمه لاسيما في كلمة الكوثر ، فيشعر بالعظمة والانبهار، وكيف فيه أيضاً القطع الذي يملأ النفس الإنسانية بالشعور بالقوة عند الوقوف على قوله تعالى: ﴿**الأَبْتَرُ**﴾.

كما استوعبت سورة الكوثر على صغرها عدداً من الضمائر المتعددة، ففيها مثال على الضمير البارز﴿**أَعْطَيْنَاكَ**﴾، وعلى الضمير المستتر

﴿فَصَلِّ﴾ و**﴿ٱنحَرْ﴾**، والضمير المتصل **﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾**، والضمير المنفصل **﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾** ، وضمير المتكلم **﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾** وضمير المخاطب **﴿شَانِئَكَ﴾**، وضمير الغائب **﴿هو﴾**، وضمير المفرد وضمير الجماعة مجتمعين فى **﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾** ، كما تعدد المحل الإعرابى للضمائر فى السورة فجاء الضمير فى محل رفع فاعل وهو (نا) الدالة على الفاعلين أو عظمة وتفخيم الفاعل المفرد فى كلمة **﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾**، وجاء الضمير فى محل نصب مفعول به وهو الكاف فى **﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾**، وجاء الضمير فى محل جر مضاف إليه فى الكاف فى كلمة **﴿ربك﴾** .

ومن العجب فى هذه السورة المباركة أن الكلمات الدالة على الرب ﷻ جاءت ثلاثة، والكلمات الدالة على حبيبه ﷺ جاءت ثلاثة، والأعجب أن هذه الكلمات الدالة على الله ﷻ ورسوله ﷺ قد جاءت متناسبة مرتبة الحالات الإعرابية: النصب ثم الرفع ثم الجر، فالأولى الدالة على الله ﷻ (نا) فى كلمة **﴿إِنَّا﴾** وهى فى الأصل مكونة من كلمتين (إن الناسخة، ونا الدالة على الله ﷻ) وهى اسم إن فى محل نصب ثم **﴿نا﴾** الدالة على عظمة الله ﷻ فى كلمة **﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾** وهى فى محل رفع فاعل، ثم (رب) فى كلمة **﴿رَبِّكَ﴾** وهى مجرورة بحرف الجر ، أما الكلمات الدالة على نبينا محمد ﷺ فهى الكاف فى قوله **﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾** وهو ضمير فى محل نصب مفعول به، ثم الضمير المستتر فى قوله: **﴿فَصَلِّ﴾** وهو ضمير مستتر فى محل رفع فاعل، وأخيرا الكاف فى كلمة **﴿لِرَبِّكَ﴾** وهى ضمير فى محل جر مضاف إليه، فاتفقت الكمات الدالة على الله ﷻ ونبيه ﷺ فى الحالات الإعرابية: النصب فالرفع فالجر على التوالى. فسبحان من أحكم آى القرآن العظيم.

﴿سورة الماعون﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: فى قوله تعالى: ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)﴾ لم خص اليتيم بالدع وخص المسكين بالحض؟ ولم قدمت الآية ذكر اليتيم على المسكين ؟

الجواب: يجب أولاً معرفة معنى (الدع) فى قوله تعالى: **﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ(٢)﴾**، (فالدع من الفعل دعَّ يدع دعاً أى دفعه) [١]، ومنه قوله تعالى: **﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾**[٢] أى (يُدفعون فيها دفعاً) [٣]، وعلى هذا فإن الدع لا يكون إلا دفعاً بغلظة وعنف، وقد تعددت أقوال المفسرين في تحديد من نزلت فيه هذه السورة فقيل نزلت فى أبى جهل أو أبى سفيان أو الوليد بن المغيرة (فأبو جهل كان وصياً ليتيم فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه، أو أبو سفيان نحر جزوراً فسأله يتيم لحماً فقرعه بعصاه، أو الوليد بن المغيرة) [٤]، ولا يخفى أن الآية تنطبق على كل منافق ومكذب بيوم الدين كان هذا حاله فكما هو معروف أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

أما (الحض) فى قوله تعالى: **﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)﴾** فهو بمعنى الحث والنصيحة، فهذا الخبيث لا يحث غيره على إطعام المساكين فكيف تظن أنه سيطعمهم بنفسه ؟ وقد صورت الآية شدة بخله وخبث نفسه فى هذه الصورة المعبرة فهو يبخل بالنصيحة على غيره لإطعام المسكين فكيف يُتصور ممن كان هذا حاله أن يطعم المسكين من حر ماله وقد بخل أن يطعمهم من مال غيره ؟ .

---

(١) مختار الصحاح ٢١٨/١، محمد بن أبى بكر الرازى ، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ.

(٢) سورة الطور/ آية ١٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٣١/٧

(٤) تفسير البيضاوى ٥٣٤/٥

وقد ذكر ربنا ﷻ الدع والدفع بعنف مع اليتيم الذى فقد العطف والحنان والرعاية والاهتمام بموت والده ومن يقوم على مصالحه لتبشيع صورة هذا المكذب بالدين، فهو يدع اليتيم الصغير ويدفعه بقسوة وغلظة، ولا يترفق به أو يعطيه من الحنان والرأفة ما هو فى أمس الحاجة إليه،إذ لا والد يحميه ولا قرابة تنتصر له، فهو فى ذل بين الناس لا يملك من يرد عنه أذاهم، وقد جاء بالفعل المضارع (يدع) الذى يفيد التجدد والاستمرار لبيان أن هذا العنف والدع صفة متكررة فى هذا المنافق وسمة ملازمة له فى كل مرة يطلب منه اليتيم العون والغوث، أما من فعل هذا مرة ثم ندم عليه وتاب فإنه لا يدخل تحت هذا الوعيد .

ثم عبَّر ربنا ﷻ عن موقف هذا المنافق مع المسكين بامتناعه عن الحض على إطعامه وقد كثر اقتران المسكين بالإطعام فقال ربنا: ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ(٣٣)وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)**﴾[١]، وقال:﴿**وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤)**﴾[٢] ، وقال:﴿**وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨)**﴾[٣]،وفيه دلالة على شدة احتياج المسكين للطعام لعوزه وفقره وحاجته، فالمسكين من المسكنة والعوز والحاجة وأشد ما يحتاجه المرء هو الطعام ففيه قوام حياته، ومن ثمَّ أكثر القرآن من الربط بين المسكين وبين الإطعام .

وأرى أن تقدم ذكر اليتيم على المسكين فى السورة للدلالة على شدة حاجة اليتيم – الذى فقد حنان الأبوة وعطف الوالدين– إلى تعاون المجتمع المسلم معه وتعويضه عما فقده من حب ورعاية تؤثر على سلامة نفسيته وبناء شخصيته، وهذه الخطوة إذا فقدها اليتيم فسيتحول إلى مسكين لا يجد طعام يومه، فكانت أولى خطوات محاربة حاجة المسكين إلى الإطعام هى الاهتمام باليتيم وحسن رعايته ... والعلم عند الله ﷻ .

---

(١) سورة الحاقة / الآيتان ٣٣ – ٣٤ .

(٢) سورة المدثر/ ٤٤ .

(٣) سورة الفجر/ ١٨ .

المسألة الثانية: ما سر الربط بين دع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين من جهة، والسهو عن الصلاة من جهة أخرى ... فى قوله تعالى: ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾؟

والجواب: إن الارتباط بين الخصلتين فى هؤلاء المكذبين واضحة، فقد دلت الصفة الأولى على إضاعة حق المخلوق، بينما دلت الصفة الثانية على إضاعة حق الخالق، فكما قصروا في شأن المخلوق حيث زجروا اليتيم ولم يحضوا على إطعام المسكين فقد قصروا في طاعة الخالق فما صلوا وما زكوا، وياخسارة من أضاع حق العباد ورب العباد .

المسألة الثالثة : لمَ قال ربنا :﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ﴾ولم يقل (فى صلاتهم)؟

والجواب: بأن استعمال حرف الجر (عن) فى الآية نعمة من الله ﷻ ورحمة بعباده ورفع للمشقة والحرج عنهم فالدلالة كبيرة بين التعبيرين (عن صلاتهم) و(فى صلاتهم) فالأولى تدل على أن السهو ليس فى أثناء تأدية الصلاة، بل هم يسهون عنها بمعنى يسهون عن فعل الصلاة ، وهذا السهو قد يكون له عدة معانٍ منها (ألا يُبالون بها، لأنهم لا يعتقدون وجوبها) [١]، أويكون السهو عنها يعنى (تركها رأساً أو فعلها مع قلة مبالاة بها) [٢] ومن بين معانى السهو عن الصلاة ما ذكره ابن عاشور من أنه (يجوز أن يكون معناه الذين لا يؤدون الصلاة إلا رياء، فإذا خلوا تركوا الصلاة) [٣]، وقيل فى معنى السهو عنها أى (يؤخرونها عن أوقاتها، وقيل: لا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها) [٤]، قلت :ويؤكد هذا المعنى قراءة عبد الله (الذين هم عن صلاتهم لاهون) [٥] .

---

(١) البحر المديد ٥٤١/٨ .
(٢) غرائب القرآن ٥٧٣/٦ .
(٣) التحرير والتنوير ٤٩٨/٣٠ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢١١/٢٠ .
(٥) المرجع السابق ٢١١/٢٠ .

وهذا كله بخلاف معنى (فى صلاتهم) التى تدل على السهو فى أثناء تأدية الصلاة مما يحدث لكل الناس من وسوسة الشيطان وأحاديث النفس، ولذا قال عطاء: (الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم﴾، ولم يقلفي صلاتهم)[1]، ولو قال (فى صلاتهم) لدخل كل المسلمين تحت هذاالتهديد والوعيد ولصار حديث النفس للمسلم المصلى فى صلاته مدعاة الهلاك والثبور وهذا لا يكاد ينجو منه أحد، قال الزمخشري: (فإن قلتَ: أي فرق بين قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ(٥)﴾، وبين قولك: (في صلاتهم) ؟ قلت: معنى "عن" أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطارمن المسلمين، ومعنى" في " أن السهو يعتريهم فيهابوسوسة شيطان، أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم)[2]، ومما يؤكد أن السهو فى الصلاة لا ينجو منه أحد ما ورد فى الصحيحين وغيرهما من حديث عبد الله بن بحينة رضي الله عنه أنه قال: (إن رسول الله ﷺ قام من اثنتين من الظهرلم يجلس بينهمافلما قضى صلاته سجد سجدتين ثم سلم بعد ذلك)[3]، فدلَّ هذا على وقوع السهو منه ﷺ فى الصلاة فوقوعه من غيره أكثر احتمالاً، ومن ثمَّ شُرِع سجود السهو فى الصلاة على النحو الموضح فى كتب الفقه .

المسألة الرابعة: ما المراد بالماعون، فى قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ ؟

والجواب: الماعون عند أكثر المفسرين (اسم جامع لما لا يُمنَع في العادة ويسأله الفقير والغني في أغلب الأحوال، ولا يُنسَب سائله إلى لؤم بل يُنسَب مانعه إلى اللؤم والبخل، كالفأس والقدر والدلو والمقدحة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢١٢/٢٠ .

(٢) الكشاف ، ٤ / ٨٠٥ .

(٣) أحكام القرآن محمد بن عبد الله بن العربى ، ١٤٩/٨، دار الكتب العلمية لبنان .

والغربال والقدوم ويدخل فيه الماء والملح والنار) [1]، فدل هذا على شدة بخلهم وخبث طباعهم حتى أنهم يمنعون عن الناس أدنى خير لا يضيرهم بذله ولا يكلفهم فعله عظيم جهد ولا كثير مال، (قال الفراء:سمعت بعض العرب يقول:الماعون هو الماء وأنشدني فيه: "يمج بعيره الماعون مجاً"، ولعله خصه بذلك لأنه أعز مفقود وأرخص موجود، وأول شي يسأله أهل النار الماء كما قال ربنا: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنْ الْمَاءِ**﴾ [2]، وأول لذة يجدها أهل الجنة هو الماء كما قال: ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (٢١)**﴾[3]) [4]، ومن بين أقوال المفسرين فى الماعون أنها هى الزكاة لأن من دلالة الماعون الشئ القليل، وسميت الزكاة ماعوناً لأنها رُبع العشر من المال إذا بلغ نصاباً وحال عليه الحول فهى قليل يؤخذ من المال الكثير، وكأن الله ﷻ قد ذكر فى هذه السورة حقه ﷻ على عباده فى الصلاة، وحق عباده بعضهم على بعض فى الزكاة ... والله أعلى وأعلم .

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٧٤/٦
(٢) سورة الأعراف / من الآية ٥٠ .
(٣) سورة الإنسان / من الآية ٢١
(٤) مفاتيح الغيب ١٠٨/٣٢

﴿سورة قريش﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: ما معنى الإيلاف فى قوله تعالى: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ(١) إِيلافِهِمْ ﴾؟

والجواب: الإيلاف إما أن يكون مأخوذ من (إلاف) بمعنى العهد والأمان وهو مصدر من آلفه بمعنى ألفه لأن في العهد أُلفة واجتماع كلمة، ويقال له أيضاً إلف وإلاف، ويكون معنى ﴿**لِإِيلافِ قُرَيْشٍ** (١)﴾ أى العهود التي كانوا يأخذونها إذا خرجوا في التجارات فيأمنون بها، وكانت قريش قد عظمت فى قلوب العرب ووقعت هيبتها فى نفوسهم بعدما أهلك الله أبرهة وجيشه ودافع عن بيته وحرمه، فكانت العرب تقول عن قريش أنهم أهل الله وساكنو حَرمه، وكانت قوافل قريش تسير فى بلاد العرب لا يعترضها معترض ولا يغير عليها مغير، ولذا وقعت السورة فى المصحف بعد سورة الفيل التى أوردت قصة هلاك أبرهة ليكون إنعام الله ﷻ على قريش متصل فى السورتين، فبهلاك أبرهة ارتفعت مكانة قريش وهابها الناس فكان إيلافهم وأمنهم على تجارتهم، وكان أول من أخذ العهود والأمان لتجارات قريش هو هاشم بن عبد مناف أبو عبد المطلب جد النبى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ﷺ (فالإيلاف: الحبل؛ أي العهد الذي أخذه هاشم بن عبد مناف من قيصر – ملك الروم – وأشراف أحياء العرب لقومه بألاّ يتُعَرض لهم في مجُتازاتهم ومسالكهم في رحلتهم) [١]، وهذه منة عظيمة امتن الله ﷻ بها على قريش أن مكنَّ لهم وآمنهم فى بلادهم وتجاراتهم لمجاورتهم بيته وسكناهم لحرمه ولذا قال ربنا: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** (٣)﴾ فلولا البيت لتخطف الناس تجارتهم وانتهكوا حرماتهم وسلبوا أموالهم، قال ﷻ: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً**

---

(١) الفائق فى غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشرى، ٥٣/١، دار المعرفة – لبنان، ط٢ .

آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [1] .

وقد يكون الإيلاف مأخوذ من أَلِف الشئ يألفه أى اعتاد عليه وصار له عادة، وهى منة امتن الله ﷻ بها على قريش إذ كانوا أصحاب تجارة يطوفون بها فى أرجاء جزيرة العرب فلا يعترضهم أحد حتى اعتادوا السفر بأمان وصارت التجارة فى الصيف والشتاء لهم إلف وعادة لا ينقطعون عنها ولا يحملون لها هماً، فاتسعت تجارتهم وكثرت أموالهم وارتفعت مكانتهم بإنعام الله ﷻ عليهم لمجاورتهم بيته وسكناهم حرمه .

المسألة الثانية: ما أصل كلمة قريش ؟

والجواب: قال أهل اللغة فى أصل كلمة قريش وسبب تسمية القبيلة بهذا الاسم أقوالاً، منها :

- أنها من (تَقَرَّش القوم أى اجتمعوا، وقد سميت قريش بذلك لتقرشها أى تجمعها إلى مكةمن حواليها بعد تفرقها فى البلاد حين غلب عليها قصى بن كلاب، وبه سُمى قصى مُجَمِّعاً.

- وقيل سميت قريش بهذا الاسم نسبة إلى قريش بن مَخْلَد بن غالب بن فهر كان صاحب عيرهم فكانوا يقولون قدِمَت عيرُ قُرَيش وخرجت عير قريش) [2]حتى غلب عليها هذا الاسم فسمُوا به.

- وقيل سميت بذلك لأَنهم كانوا أَهلَ تجارة ولم يكونوا أَصحابَ ضَرْع وزرْع من قولهم فلان يَتَقَرَّشُ المالَ أَي يَجْمَعُه .

- أقول: ومن أطرف ما قرأت فى أصل تسميتها قريشاً بأنها مأخوذة من القِرش وهى السمكة المفترسة فى البحر التى يهابها الناس ، قال ابن منظور: (وهى دابةٌ في البحر لا تدَع دابةً إِلا أَكلتها فجميع الدواب تخافُها)[3]، وقد سُميت قريش من القِرش المعروف لهيبة العرب لها وتغلبها عليهم .

---

(١) سورة العنكبوت / من الآية ٦٧ .

(٢) لسان العرب ٣٣٤/٦

(٣) المرجع السابق ٣٣٤/٦

المسألة الثالثة: لم قال ربنا : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣)﴾ ولم يقل رب الناس أو رب الكون أو أى وصف آخر؟

والجواب: لبيان مكانة هذا البيت وأن إنعام الله ﷻ عليهم مرتبط بمقامهم بجواره، فلولا البيت الحرام لاجترأ الناس عليهم ومما يؤكد هذا ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** [(١)]﴾ .

المسألة الرابعة : لم قدَّم ربنا ذكر الإطعام من الجوع على الأمن من الخوف فى قوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ ؟

والجواب:إن السورة لما ذكرت رحلة الشتاء والصيف وهى تجارة قريش فى الشتاء إلى الشام، وفى الصيف إلى اليمن وأن أغلب تجاراتهم كانت طعاماً فناسب ذلك تقديم ذكر ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ**﴾ على ﴿**وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾ .

كما ناسب تقدم ذكر الشتاء على الصيف مع تقدم ذكر الإطعام على الأمن لما فى الشتاء من برد شديد استلزم أن تكون حاجة الإنسان إلى الطعام فى الشتاء أكثر منه فى الصيف، أما الصيف ففيه يكثر الخوف من قطاع الطرق والهوام والزواحف فكانت حاجة الإنسان فيه إلى الأمن أكثر، فناسب هذا الترتيب والتناسق بين الشتاء والصيف تقدَّم الإطعام على الأمن ... والله أعلى وأعلم .

---

(١) سورة العنكبوت / من الآية ٦٧ .

﴿سورة الفيل﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: ما دلالة الرؤية فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ ؟

قال جمهور المفسرين: إن الخطاب هنا للرسول ﷺ وهو وإن لم يشهد تلك الوقعة – لأنه ولد بعدها – لكنه شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها، فقام العلم بها مقام المشاهدة، فكأن الله ﷻ يقول له: (إنك رأيت أثار فعل الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترة، فقامت لك مقام المشاهدة) [١]، وفى ذلك إشارة إلى أن العلم الحاصل بالتواتر له من القوة والحجية ما يساوى الرؤية البصرية .

كما أن فيها دلالة على تمام التسليم لكلام الله ﷻ وشدة اليقين به، فكأن المؤمن يرى حادثة الفيل ويؤمن بكل ما ورد فى قصتها فى القرآن الكريم كأنه رأها رؤيا العين أو أشد.

المسألة الثانية: ماسر التعبير عن جيش أبرهة بأصحاب الفيل ؟

هنا وقفة بديعة وهى أن الله ﷻ لم يقل (مُلَّاك الفيل) أو (أرباب الفيل) بل قال أصحاب الفيل ومعلوم أن المرء يصاحب بنى جنسه ومَن هم على شاكلته، فكأن الله ﷻ نسبهم إلى الفيل ليبين وضاعة شأنهم وحقارة مكانتهم، وأنهم قد نزلوا من درجة البشرية إلى درجة البهيمية والحيوانية، بل أقل منها فإن الأصحاب ينسبون إلى أعلاهم شأناً وأرفعهم منزلة، ألا ترى الناس يطلقون على الصحابة (أصحاب محمد ﷺ) فينسبونهم إلى نبيهم وهوأعلاهم منزلة، أما فى هذه السورة فقد نسب الله ﷻ جيش أبرهة إلى الفيل فكأن هذا الحيوان كان خيراً منهم وأرشد سلوكاً، ألا ترى أنهم كلما وجهوه جهة الكعبة ليهدمها بَرَك وقعد وكلما وجهوه بعيداً عنها هرول

---

(١) الكشاف ٨٠٥/٤

هارباً،قال الفخر الرازى:(كأنه يقول لهم لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) [1]، وهم لا يتعظون ولا يعقلون فكان هذا الفيل مع حيوانيته أرجح منهم عقلاً وأحفظ لحرمات الله منهم .

المسألة الثالثة: ما سر إهلاك الله تعالى لجيش أبرهة بالطيور دون غيرها ؟

وهذا سؤال قد يتبادر إلى الذهن حيث كان من الممكن أن يسلط الله ﷻ على جيش أبرهة الأسود فتفترسهم أو الحيات فتلدغهم، أو العواصف فتهلكهم، لكنِ العجيب أن يسلط عليهم الطيور وهى من ألطف المخلوقات وأكثرها أمناً للإنسان ، لكن هلاك جيش أبرهة جاء منها .

وقد بحثت فِي علة هذا الأمر فى كتبِ عدةٍ فى التفسير فما وجدت لذلك جواباً شافياً إلا ما كان من محاضرةً ألقاها فضيلة الشيخ محمد بنصالح المغامسى إمام مسجد قباء فذكر فى ثناياها علة إهلاك الله ﷻ لجيش أبرهة بالطير فكان معنيٍ قاله: إن الله ﷻ قد عذبهم بالطير، ولا يوجد أحد يوماً ما خوَّف أحداً من ذريته أو مِن قرابته أو من الناس بالطير، لكن لما كان البيت قد جعله الله للناس أمناً خوَّفهم الله ﷻ من حيث يأمنون، فلو قابلتهم سباع البرارى والوحوش الكواسر ربما خافوا منها وهربوا لأنها مظنة القتل والهلاك، لكن أنِ تظلهم طير فلا يمكن أن تكون مظنة الهلاك، لأنه لا أحد يخوِّف أحداً بالطير، وإنما يخوِّفه بالحيات والعقارب والوحوش فهم لما أتوا لبيت آمن وأرادوا أن يهدموه خوَّفهم الله من حيث يأمنون ... والله تعالى أعلى وأعلم .

المسألة الرابعة: ما معنى ﴿أَبَابِيلَ﴾؟

والجواب: أبابيل أى: (جماعاتَ يتبع بعضها بعضاً، يقال جاءت الخيل أبابيل: أي جماعات من هاهنا وهاهناقال النحاس:وحقيقته أنها جماعات عظام ، يقال فلان وبل على فلان : أي تعظم عليه وتكبر ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذي لا واحد له) [2].

---

(١) مفاتيح الغيب ٩٤/٣٢

(٢) فتح القدير ٧٠٥/٥ .

﴿سورة الهمزة﴾

وفيها خمس مسائل :

المسألة الأولى: ما الفرق بين الهمزة واللمزة فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١)﴾؟

والجواب: الهمزة واللمزة كلاهما على وزن فُعَلَة وهى احدى صيغة المبالغة وتعنى كثير الهمز واللمز، وقد تعددت أقوال العلماء فى معنيهما والفرق بينهما، فقالوا :

- الهمزة: الذي يغتاب الرجل في وجهه، واللمزة الذي يغتاب من خلفه .
- الهمزة: الذي يهمز الناس بيده، واللمزة : الذي يلمزهم بلسانه .
- الهمزة: الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جليسه ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه .
- الهمزة: المغتاب، واللمزة: العيَّاب .

قال الفخر الرازى: (واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب) [١] .

المسألة الثانية: ما العلاقة بين الآية الأولى والثانية ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢)﴾ ؟

والجواب: إن الله ﷻلما عاب هذا الهماز اللماز الذى يطعن على الناس وينتقص من أقدارهم وهو في الغالب يرفع نفسه على الآخرين ويترفع عنهم ، فكأن سائلاً يسأل: ما الذى يدفع إنساناً إلى مثل هذا الخُلُق؟ والجواب أنه يظن نفسه أفضل من غيره، وإنما يكون ذلك بتملكه المال الذى يُشعره بقيمته، ولذا قال ربنا: ﴿**الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢)**﴾ فالأغلب فى حال من يملك المال ويكنزه أن يتفاخر بغناه ويحتقر غيره ويطعن فيهم

---

(١) مفاتيح الغيب ٨٧/٣٢

ويلمزهم ولا شك أن بعض الناس من الأغنياء فيهم خير عظيم،ولكنهم قلة لقول الله ﷻ: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)**﴾[١]

المسألة الثالثة: لم ذكرت الآية جهنم بهذا الاسم ﴿الْحُطَمَةِ﴾دون غيره من الأسماء ؟

والجواب: أن الجزاء من جنس العمل فإنهم لما حطموا قلوب الناس بالهمز والطعن فيهم وشدة احتقارهم والطعن عليهم عاقبهم الله ﷻبأن حطمهم فى نار الحطمة التى تتسلط عليهم فتحرق أجسادهم، وتحطم كبرياءهم ... أعاذنا الله وإياكم من حرها .

(وأصل الحطم في اللغة الكسر، قال المفسرون الحطمة اسم من أسماء النار وهي الدركة الثانية من دركات النار وقال مقاتل: هي تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب) [٢].

المسألة الرابعة: لم وصفت النار بصفة ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧)﴾؟

والجواب: الأفئدة جمع فؤاد وهو القلب، وتبين الآية أن النار تتسلط على جلودهم فتحرقها ثم تنفذ إلى لحومهم فتهلكها حتى تنتهى إلى أفئدتهم، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى مسه، فكيف إذا اطلعت نار جهنم واستولت عليه ؟

ثم إن الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق إذ لو احترق لمات المعذَّب، (قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خُلِقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم) [٣].

وهذا هو المراد من قوله: ﴿**ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا (١٣)**﴾[٤]، ومعنى الاطلاع هو أن النار تنزل من اللحم إلى الفؤاد، ولذا لما كان ثابت البناني

---

(١) سورة العلق / الآيتان ٦ – ٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ٨٩/٣٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨٥/٢٠.

(٤) سورة الأعلى / الآية ١٣ .

يقرأ هذه الآية يقول: (تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء، ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب، ثم يظل يبكي) [1] .

أما سبب تخصيص الأفئدة بذلك فلأنها موطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة،فاستحقت هذه الأفئدة التى حملت خبث الفكر وفساد المعتقد أن تتسلط عليها النار وتصل إليها.

المسألة الخامسة: ما معنى ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)﴾؟

والجواب: إن النار مؤصدة أى مغلقة محكمة الإغلاق على الكفار فيها لا يجدون سبيلاً للهرب منها، ولا طريقاً للخروج من جحيمها، (قال ابن عباس: مُّؤْصَدَةٌ مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب بلغة قريش، أي أغلقه) [2]، وقوله: ﴿**فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ** (٩)﴾ العَمَد والعُمُد جمع عمود، قيل: أى فى أعناقهم الأغلال والسلاسل وهم موثقون فى أعمدة يعذبون، (قال قتادة: بلغنا أنها عمد يعذبون بها في النار) [3]، وقيل: بل العمد الممددة هى لإغلاق أبواب النار وشدة إحكامها، ولذا ورد (في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة" وقال عطية العوفي: هي عمد من حديد، وقال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثم شدت بأوتاد من حديد، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، وعلى هذا فقوله: مُّمَدَّدَةٍ صفة للعمد، يعني أن العمد التي أوثقت بها الأبواب ممددة مطولة، والممدود الطويل أرسخ وأثبت من القصير) [4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٨١/٨

(٢) – المرجع السابق ٤٠٩/٨

(٣) جامع البيان فى تأويل آى القرآن ٦٠٠/٢٤، محمد بن جرير الطبرى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٠ه

(٤) معالم التنزيل ٨ /٥٣١.

﴿سورة العصر﴾

وفيها مسألتان:

المسألة الأولى: ما دلالة القسم بالعصر ولم أقسم الله تعالى به فى هذه السورة ؟

والجواب: إن الله ﷻ أقسم بالعصر وهو خلق من مخلوقاته، وللخالق ﷻ أن يقسم بما يريد من خلقه فخلقه ﷻ من دلائل قدرته، والعظيم لا يقسم إلا بالعظيم، وهنا أقسم الله ﷻ بالعصر والمراد من العصر الزمن والدهر، والسؤال: ولم أقسم الله ﷻ به فى هذه السورة على وجه الخصوص ؟

وتكمن الإجابة فى ملمح مهم، وهو أن الله ﷻ تحدث بعد ما أقسم بالعصر على أن الإنسان فى خسارة وأعظم الخسارة ضياع رأس المال، فما رأس المال الحقيقى للإنسان الذى لا يمكن تعويضه فى حال خسارته ؟ إنه العمر المكون من سنين فشهور فأيام فساعات فثوانى، أى العصر والزمن، ولذا أقسم ربنا بالعصر على خسارة الإنسان لأعظم ما يملكه ولا يحسن استغلاله وهو عمره الدنيوى الذى يتوقف عليه ربحه الحقيقى أو خسارته الحقيقى فى وقت الحساب الأخروى حيث النعيم الأبدى أو العذاب السرمدى .

أو أن يكون القسم بالعصر هنا بمعنى وقت صلاة العصر المعروفة وهى الصلاة الوسطى التى حثنا ربنا على المحافظة عليها، فى قوله ﷻ: ﴿**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ**﴾ [1]، قال الزمخشرى: (**أقسم بصلاة العصر لفضلها، ولأنّ التكليف في أدائها أشقّ لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم**) [2] .

---

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٣٨ .
(٢) الكشاف ٤/٨٠٠ .

المسألة الثانية: لم ذكرت السورة التواصى بالحق والصبر؟ وما السر فى تقديم الحق على الصبر ؟

الجواب: إن فتنة الإنسان فى دينه وانحرافه عن الطريق المستقيم إنما يكون بتعرضه لمرض الشبهات أو مرض الشهوات، فالشبهات تَعرِض لحقائق الدين والشبهات تَعرِض لأخلاقه، وأنجع دواء لهذين المرضين أن تُعالَج الشبهات باتباع الحق، وأن تُعالَج الشهوات بالتخلق بالصبر، ولا أنفع للمرء فى دينه ودنياه من التزام الحق والتخلق بالصبر فبهما حياة القلب وسعادة الروح .

وقد تقدم ذكر الحق على الصبر فى السورة الكريمة لأن ملازمة الحق أمر شاق على النفوس – إلا من رحم الله – فاستلزم ذلك أن يُذكر الصبر من بعده، حتى يستمسك الإنسان بالحق مهما عرضت له الفتن، ومن هذا الباب وجدنا أن لقمان الحكيم لما وعظ ابنه وحثه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر علم – بما أعطاه الله من حكمة – أن دعوة الحق صعبة، وطريق الحق محفوف بالمشاق، فذكر بعدها مباشرة وصية ولده بالصبر على ما أصابه ، فقال فيما حكى الله عنه:﴿**وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ**﴾ [1] ... والله أعلم

---

(١) سورة لقمان / من الآية ١٧ .

﴿سورة التكاثر﴾

وفيها مسألتان:

المسألة الأولى: ما المراد بقوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ (٢)﴾ ؟

والجواب: ألهاكم أى شغلكم عما يجب عليكم الانشغال به، وأصل اللهو شغل يصرف عن تحصيل أمر مهم، والتكاثر هو المفاخرة بالمال والولد ومتاع الحياة الدنيا، قال الفخر الرازى وغيره: (والخطاب للمشركين بقرينة غلظة الوعيد بقوله: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤)**﴾، وقوله: ﴿**لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ (٦)**﴾ إلى آخر السورة، ولأن هذا ليس من خلق المسلمين يومئذ) [(١)]، ولا يعنى أن يكون الخطاب للمشركين عدم انتفاع المسلمين به، بل هم أحرص ما يكون على عدم الانشغال بأعراض الدنيا الفانية عن الاستعداد للعمل للدار الباقية خوف أن يفاجئهم الموت وهم فى غفلة عن فعل الخير وانشغال عنه .

أما﴿ **حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ (٢)**﴾ ففيها قولان :

الأول: أنكم داومتم على هذا التكاثر حتى فاجأكم الموت ودُفنتم فى القبور وقُبرتم بها، فما أغنى عنكم تكاثركم ولا تفاخركم، ولا منع عنكم الموت الذى نزل بكم، وعبَّرت الآية عن الدفن فى القبور بالزيارة، والزيارة تعنى عدم المكث فى المكان لفترة طويلة دلالة على أن المدفون فى القبر لن يستقر فيه إلى الأبد، بل هو مقيم فى قبره كما يمكث الزائر فى زيارته وسرعان ما يغادر مكان الزيارة لينقلب إلى بيته ومستقره ، وكذا المقبور فى قبره يمكث فيه ما شاء الله ﷻ له أن يمكث ثم يُبعث منه لينقلب إلى مستقره النهائى إما فى الجنة وإما فى السعير، وعبَّرت الآية عن هذا الأمر بصيغة الفعل الماضى ﴿**زُرْتُمُ**﴾ مع أنه لم يحدث بعد بل

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٥٧/٣٠

سيزوروها ويقبرون فيها بعد موتهم دلالة على تحقق هذا الأمر وتأكد وقوعه حتى كأنه وقع بالفعل فصار ماضياً مقضياً .

ويتضح من هذا خطأ قول بعض الناس عن الميت الذى تم دفنه: (نُقِل إلى مثواه الأخير) لأن القبر ليس مستقره الدائم بل سيمكث فيه كما يمكث الزائر فى مكان زيارته ثم ينصرف عنه إلى مثواه الحقيقى الأخير نسأل الله ﷻ أن يحسن لنا المثوى.

الثاني: أن تكون (حتى) هنا بمعنى الغاية، والمعنى: بلغ بكم التكاثر والتفاخر إلى الحد الذى جعلكم تذهبون للمقابر من أجل التكاثر بأصحابها المقبورين فيها والتفاخر بمآثرهم، لا من أجل الاتعاظ والاعتبار، فتحول غرض زيارة القبور من أمر يذكركم بالموت ويقربكم من العمل الصالح إلى معصية تُضاف إلى سجل معاصيكم وتزيد من شهوة الكبر والعجب فيكم ، ويؤيد هذا المعنى ما ذكره المفسرون فى سبب نزول هذه السورة، فقد ذكر الواحدى وغيره أن سورة التكاثر قد (نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم كان بينهما لحا فتعاند السادة والأشراف أيهم أكثر، فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيداً وعزاً وعزيزاً وأعظم نفراً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدُّ موتانا، حتى زاروا القبور، فعدُّوا موتاهم فكثرهم بنو سهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية) [1] .

المسألة الثانية: ما الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين؟

الحقيقة كأنه يراها ولا ينكرها أو يكذب بها فهذا هو علم اليقين، فإذا رأى الحقيقة بعينه صارت عين اليقين، ثم إذا عايشها وتلبس بها وتعامل معها صارت حق اليقين، ولعل من أروع ما يُستدل به فى هذا المقام ما ذكره ابن القيم – رحمه الله – فى هذا الباب حيث ضرب مثالاً رائقاً ليوضح به هذه الدلالات الثلاثة، فقال: (وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٣٠٥، دار الباز للنشر والتوزيع، ط١، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

أخبرك أن عنده عسلاً وأنت لا تشك في صدقه،ثم أراك إياه فازددت يقيناً، ثم ذقت منه، فالأول: علم اليقين، والثاني عين اليقين، والثالث حق اليقين.

فعلِمُنا الآن بالجنة والنار علم يقين، فإذا أُزلفت الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق، وبرزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق فذلك عين اليقين، فإذا أُدخِل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فذلك حينئذ حق اليقين) (١).

وفى السورة لطيفة تحسن الإشارة إليها :

أخرج مسلم فى صحيحه فى كتاب (الأشربة) قصة حدثت للنبى ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر رضي الله عنهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟"، قالا الجوع يا رسول الله، قال: "وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا "، فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت: "مرحباً وأهلاً"، فقال لها رسول الله ﷺ: "أين فلان؟" قالت: "ذهب يستعذب لنا من الماء"، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: "الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني"، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: "كلوا من هذه"، وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: "إياك والحلوب"، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: "والذي نفسي بيده لتُسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم") (٢) .

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، محمد بن أبى بكر ابن القيم ، ٤٠٣/٢، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ ه ، ١٩٧٣م .

(٢) صحيح مسلم، ١٦٠٩/٣، كتاب الأشربة، باب "جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك"ورقمه ٢٠٣٨.

وفى الحديث دليل على أن كل إنسان سيُسأل بين يدى الله ﷻ عما أنعم به عليه من نعيم الدنيا، لكن شتان بين سؤال الله ﷻ لعبده المؤمن ولعبده الكافر، فالمؤمن سيسأله الله ﷻ عما أنعم به عليه سؤال تعداد وبيان بخلاف الكافر حيث سيُسأل عن النعيم سؤال تقريع وامتهان، قال النووى – رحمه الله – فى شرحه للحديث: (وأما السؤال عن هذا النعيم فقال القاضي عياض: المراد السؤال عن القيام بحق شكره، والذى نعتقده أن السؤال هنا سؤال تعداد النعم وإعلام بالامتنان بها وإظهار الكرامة بإسباغها، لاسؤال توبيخ وتقريع ومحاسبة والله أعلم) (١).

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحى بن شرف النووى ، ٢١٤/١٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ .

﴿سورة القارعة﴾

وفيها خمس مسائل :

المسألة الأولى: لم سمي يوم القيامة بالقارعة ؟

والجواب: القارعة اسم من أسماء يوم القيامة المتعددة، وهى من القرع أى الضرب بالعصا، وكذا من المصيبة العظيمة التى تقرع آذان الناس وتأخذ بعقولهم وتخطف قلوبهم، قال ابن عباد: (والقَارِعَةُ: الشديدةُ من قَوارع الدهر وهى اسمُ القيامة) [1]، وقد سُميت بهذا الاسم بياناً لأهوالها التى تقرع قلوب الناس.

ثم تكرر ذكر اسمها فى قوله ﷻ: ﴿**مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)**﴾ لتهويل أمرها وتعظيم شأنها، قال العلامة السعدى- رحمه الله-: (﴿**الْقَارِعَةُ**﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿**الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)**﴾) [2] كأن العلم بها وتصور ما فيها من أهوال قد تجاوز حدود فهم البشر وتخيل عقولهم، فاحتاجوا إلى شرح وإيضاح فجاءت الآيات بعد ذلك تبين شيئاً من أهوالها .

المسألة الثانية: هل هناك تعارض بين وصف الله تعالى للناس يوم القيامة بالفراش المبثوث فى هذه السورة، ووصفهم بالجراد المنتشر ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧)﴾ [3] فى سورة القمر ؟

والجواب: إن الوصفين مكملان لبعضهما ولا تعارض بينهما على الرغم من اختلاف طبيعة الجراد المنتشر عن الفراش المبثوث، هذا إذا سلمنا أن الجراد غير الفراش، إذ إن بعض المفسرين يرون أن الفراش هو صغار الجراد وبالتالى تصير دلالتهما واحدة لأن النوع واحد، قال ابن

(١) المحيط فى اللغة، إسماعيل بن عباد ١/١٦٩، عالم الكتاب، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٤هـ.
(٢) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدى، ص٩٣٣، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م .
(٣) سورة القمر / من الآية ٧ .

عجيبة: (والفراش: صِغار الجراد، ويسمى : غوغاء الجراد، وبهذا يوافق قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧)﴾ [١].

أما إذا قلنا إن الجراد غير الفراش فيكون الوصفانمعبرينعن حالتين مختلفتين للناس بعد البعث والانطلاق من القبور إلى الحساب: فالوصف الأول لهم لحظة خروجهم من قبورهم حيث يتفرقون من الهول والفزع فى كل اتجاه كحال الفراش المبثوث أى المفرق يقال بثه إذا فرقه، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة ويؤكد ما ذكرناه قوله ﷻ: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨)﴾[٢]، فالناس أول ما يُبعثون يتهارجون ويختلطون ويموجون وينتشرون على غير هدى فهذا هو حال الفراش المفرق المبثوث، وعند البعث يقومون جميعاً لا يتخلف منهم أحد – منذ أن خلق الله آدم وبنيه إلى قيام الساعة – فينطلقون فى أعداد لا تُعد ولا تُحد، فهذا وصفهم بالجراد لما ينتشر فى أعداد هائلة تفوق القدرة على الحصر ... والله أعلى وأعلم .

كما أن هناك ملمحاً آخر فى وصف الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث وهو أن من عادة الفراش فى الدنيا التكالب على ضوء النار حتى يُسقط بعضها بعضاً فيها ويحترق بلهيبها ، فلعل وصف الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث هو وصف خاص بالكافرين الذين يسقطون فى نار جهنم بسوء أفعالهم التى أقدموا عليها فى الدنيا وحث بعضهم بعضاً على الكفر وتكذيب الرسل فكأن بعضهم يدفع بعضاً بسوء الصحبة وفساد العشرة إلى نار جهنم ...والله أعلى وأعلم .

المسألة الثالثة: لم وصف الله تعالى الجبال فى هذه السورة بالعهن المنفوش، بينما اكتفى بوصف الجبال بالعهن فقط دون وصفها بالمنفوش فى سورة المعارج فقال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩)﴾[٣]؟

---

(١) البحر المديد ٨/ ٥٢٠ .
(٢) سورة النبأ / من الآية ١٨ .
(٣) سورة المعارج / الآية ٩ .

والجواب: لابد من التأمل فى السورتين لمعرفة السر فى ذلك وهو ما يؤكد أهمية التدبر والتأمل فى القرآن الكريم وقد ذكر الدكتور فاضل السمرائى – حفظه الله – فى علة ذلك وجوهاً، منها :

- (إن الله تعالى لما ذكر القارعة في أول السورة، والقارعة من "القَرْعِ"، وهو الضرب بالعصا ناسب ذلك ذكر النفش، لأن من طرائق نفش الصوف أن يُقرعَ بالمقرعة ، كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تهشم بالمقراع (وهو من القَرْع) وهو فأس عظيم تُحَطَّم به الحجارة، فناسب ذلك ذكر النفش أيضاًفلفظ القارعة أنسب شيء لهذا التعبير.

- إن ذكر اليوم الآخر في سورة القارعة، أهول وأشد مما ذكر في سورة المعارج، فإنه لم يذكر فى سورة المعارج إلا طول ذلك اليوم، وأنه تعرج الملائكة والروح فيه، في حين قال في سورة القارعة: ﴿**الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)**﴾ فكرر ذكرها وعَظَّمها وهوَّلها، فناسب هذا التعظيم والتهويل أن يذكر أن الجبال تكون فيه كالعهن المنفوش، وكونها كالعهن المنفوش أعظم وأهول من أن تكون كالعهن من غير نفش كما هو ظاهر.

- ذكر في سورة المعارج أن العذاب ﴿**وَاقِعٍ (١)**﴾ وأنه ليس له دافع ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢)**﴾، ووقوع الثقل على الصوفمن غير دفع له لا ينفشه، بخلاف ما في القارعة فإنه ذكر القرع وكرره، والقرع ينفشه وخاصة إذا تكرر، فناسب ذلك ذكر النفش فيها أيضاً.

- إن الفواصل في السورتين تقتضي أن يكون كل تعبير في مكانه ، ففي سورة القارعة قال ﷻ: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥)**﴾، فناسبت كلمة (المنفوش) كلمةَ (المبثوث)، أما في سورة المعارج فقال: ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)**

لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢)﴾ فناسب (العهن) (المهل).

- ناسب ذكر العهن المنفوش أيضاً قوله في آخر السورة: **﴿نَارٌ حَامِيَةٌ(١١)﴾** لأن النار الحامية هي التي تُذيبُ الجبالَ، وتجعلها كالعهن المنفوش، وذلك من شدة الحرارة، في حين ذكر صفة النار في المعارج بقوله: **﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦)﴾**، والشوى هو جلد الإنسان، والحرارة التي تستدعي نزع جلد الإنسان أقل من التي تذيب الجبال، وتجعلها كالعهن المنفوش، فناسب زيادة (المنفوش) في القارعة من كل ناحية. والله أعلم) [1].

المسألة الرابعة: فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨﴾ هل توزن الأعمال على وجه الحقيقة ؟

والجواب: أنكر بعض الناس وزن الأعمال على وجه الحقيقة، وقالوا إن الوزن المذكور هو مجاز عن الحساب ولم يقتنعوا بكيفية وزن الأعمال والحسنات والسيئات وكلها أمور معنوية غير محسوسة ولا مادية، وهذا جهل منهم بآى القرآن وصحيح السنة وإعمال لعقولهم مع النصوص الثابتة، حيث ثبت فى السنة أن الأعمال توزن فى الميزان، وقد ورد لفظ الوزن والميزان فى القرآن الكريم والسنة المطهرة فى أكثر من موضع، ومنه قوله ﷻ: **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾**[2] وقد دلت السنة على أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان فقد روى الإمام أحمد من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: "إن الله سيختص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب فيقول: ألك عذر أوحسنة؟ فيبهت الرجل فيقول:

---

(١) لمسات بيانية ص ١٢٤ .

(٢) سورة الأنبياء / من الآية ٤٧ .

لا يا رب فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلم، قال: "فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: "فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم")[١] وانظر وتأمل لفظ الحديث: (فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة) فدلّ هذا على الوزن بميزان حقيقى له كفتان. وثمة أمر آخر قاله العلماء فى قضية الوزن، حيث قالوا: إن صاحب العمل يوزن مع عمله فى الميزان واستدلوا على ذلك بما ورد فى الحديث (توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة)[٢]، وفي هذا السياق فائدة جليلة وهي أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: "اقرؤوا إن شئتم: ﴿**فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (١٠٥)**﴾[٣])[٤].

كما وردت الأحاديث أيضاً بوزن الأعمال نفسها، كما في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان" [٥]، قال ابن أبى العز الحنفى: (فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول: "الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام!"، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً، فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال وثبت أن الميزان له كفتان، والله ﷻأعلم بما وراء ذلك من الكيفيات) [٦] .

---

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد، ١١ / ٥٧٠ ، ورقمه ٦٩٩٤ .
(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد، ١١ / ٦٣٧ ، ورقمه ٧٠٦٦ .
(٣) سورة الكهف / من الآية ١٠٥
(٤) الجامع الصحيح، ١١/ ٤٦٦ ، ورقمه ٤٧٢٩ .
(٥) صحيح مسلم، ١ / ١٤٠ ، ورقمه ٥٥٦ .
(٦) شرح العقيدة الطحاوية ،لابن أبى العز الحنفى ، ص ٤٠٤ ، المكتب الإسلامي ،بيروت ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٩١ه

المسألة الخامسة: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَة (٩)﴾ ؟

والجواب: إن من خفت موازين حسناته، وثقلت موازين سيئاته فمصيره النار، وفي ﴿**فَأُمُّهُ هَاوِيَة(٩)**﴾ قولان:

الأول: أمه أى: مصيره ومأواه الذى يأوى إليه ويستقر فيه هو النار، فمن أسماء النار الهاوية أى التى يهوى فيها الكفار، ولذا فسرها ربنا بقوله: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)**﴾.

الثانى: ﴿**فَأُمُّهُ هَاوِيَة(٩)**﴾ أمه أى رأسه ودماغه، هاوية أى ساقطة من أعلى، والمعنى: أن الكفار يلقون فى النار من مكان عال فيسقطون على أدمغتهم وأم رؤوسهم، قال ابن كثير: (معناه: فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم، وعَبَّر عنه بأمه-يعني دماغه- وروي نحو هذا عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، قال قتادة: "يهوي في النار على رأسه"، كذا قال أبو صالح: "يهوون في النار على رءوسهم") [١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٦٨/٨

﴿سورة العاديات﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى ؟ وعلام أقسم ؟

والجواب: أن الله ﷻ أقسم بالعاديات التى تضبح، والموريات التى تقدح، والمغيرات وقت الصباح التى تثرن النقع وتتوسطن به الجمع، أقسم بذلك كله على أن الإنسان لربه لكنود ... فما معنى المقسَم به والمقسَم عليه ؟

اختلفت أقوال أهل التفسير فى المراد من المقسم به وهو العاديات، ومن ثمَّ فى معانى الصفات التابعة لها على أقوال، من أشهرها :

إن العاديات هى الخيل التى تعدو أى تجرى بسرعة، والعاديات جمع عادية، وهى اسم فاعل من العدو وهو السير السريع، والعاديات هى: الخيول التى تسرع فى الجرى فتضبح، والضبح هو ترددأنفاسها فى صدورها عند اشتداد جريها .

(وعن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح "أح أح") [(١)]،قال صاحب اللسان: (والضَّبْح في الخيل أَظهر عند أَهل العلم، قال ابن عباس رضي الله عنه ما ضَبَحَتْ دابة قط إِلا كَلْبٌ أَو فرس) [(٢)] وعلى هذا فقد أقسم الله ﷻ بخيول المجاهدين التى تشتد وتعدو للإغارة على أعداء الله، فيخرج منها صوت الضبح لتسارع أنفاسها من فرط جهدها .

أما الرأى الثانى: فيرى أن العاديات التى أقسم الله ﷻ بها فى السورة هى الإبل، وبوجه خاص هى الإبل التى تحمل الحجيج يوم الحج لأداء مناسكهم، فقد أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه (قال: بينما أنا في الحجر جالس، أتاني رجل يسأل عن: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً** (١)﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم. فانفتل عني، فذهب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو تحت

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٣٩/٣٠ .
(٢) لسان العرب ٥٢٢/٢ .

سقاية زمزم، فسأله عن: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً (١)﴾ فقال: سألتَ عنها أحدًا قبلي؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس، فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي؛ فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله لكانت أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحا! إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى مزدلفة إلى منى؛ قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه) [1]، وعلى هذا فإن الضبح لا يمكن حمله على صوت تردد الأنفاس فى صدورها، لأن الضبح لا يصلح أن يكون فى الإبل بل هو فى الخيل فقط، وعلى هذا فقد قال بعض أهل اللغة: (من جعلها للإبل جعل ضَبْحاً بمعنى ضَبْعاً يقال ضَبَحَت الناقة في سيرها وضَبَعَتْ إذا مَدَّتْ ضَبْعَيها في السير) [2].

والراجح أن المراد هو خيول المجاهدين بدليل ما بعدها من الضبح، قال العلامة السعدى: (أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل، لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرةما هو معلوم للخلق، وأقسم تعالىبها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات) [3]، ثم قوله ﷻ: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً (٢)﴾ والإيراء هو إشعال النار، فوصف الله ﷻ هذه الخيل فى شدة عدوها واصطكاك حوافرها بالحجارة فتتقدح منها الشرر، قال الزجاج: (إذا عدت الخيل بالليل أصاب حوافرها الحجارة فانقدح منها النيران) [4]، وهذا يؤكد أن المقصود بالعاديات هى الخيل وليس الإبل إذ ليس للإبل حوافر تقدح بها الشرر، بل لها أخفاف – جمع خُف – وهى لا تُحدث هذا الأثر فى الحجارة عند وقوعها عليها .

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً (٣)﴾ هى الخيل التى يشن بها أصحابها الغارة على أعداء الله ورسوله وقت الصباح، ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤)﴾ أى أثرن

---

(١) جامع البيان فى تأويل القرآن، ٥٥٩/٢٤ .
(٢) لسان العرب ٥٢٢/٢ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩٣٢
(٤) فتح القدير ٥ /٦٨٥

وهيجن بعدوهن وغارتهن النقع – وهو التراب – فعلا وارتفع، ﴿**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً** (٥)﴾ أى توسطت تلك الخيول بركابها جموع الأعداء وخيامهم عند الإغارة عليهم .

كل هذا هو المقسَم الذى أقسم الله ﷻ به ، فعلام أقسم الله ﷻ ؟

أقسم ﷻ على أن ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** (٦) **وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ** (٧) **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** (٨)﴾.

المسألة الثانية: ما المراد بالكنود فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)﴾؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى معنى الكنود على أقوال تدور حول الجحود لنعم الله عليه والمنكر لفضله ونعمائه (وعن الحسن أيضاً : هو اللائم لربه، يعد السيئات وينسى الحسنات ، وقال الفضيل : هو الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة)[1]، قال القرطبى – رحمه الله – :(قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** (٦)﴾ هذا جواب القسم، أي طُبِع الإنسان على كفران النعمة، قال ابن عباس: ﴿ **لَكَنُودٌ**﴾ لكفور جحود لنعم الله)[2] .

وقيل إن كلمة ﴿**لَكَنُودٌ**﴾ ليست بلسان قريش، قال الفخر الرازى: (الكنود بلسان كندة: العاصي، وبلسان بني مالك: البخيل، وبلسان مضر وربيعة: الكفور)[3] .

أما قوله ﷻ: ﴿**وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ** (٧)﴾ ففيها قولان :

الأول: إنه أى الإنسان يشهد على نفسه بأنه كنود .

الثانى: إنه أى الله ﷻ شهيد على جحود الإنسان، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

المسألة الثالثة: ما المقصود بالخير فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)﴾ ؟

---

(١) البحر المحيط ٥٠١/٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦٠/٢٠ .
(٣) مفاتيح الغيب ٦٤/٣٢ .

والجواب : المقصود بالخير هنا المال كما أجمع المفسرون ، فالإنسان يحب المال حباً شديداً ، وقد سمى الله ﷻ المال خيراً ، قال الله ﷻ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)**﴾[١]، وقد سُمى ﴿**خَيْراً**﴾ لأنه لا غنى عنه لصلاح دنيا الناس، بل وصلاح أخراهم إذا أُحسِن أخذه ثم وضعه فى مواضع الإنفاق المأمور بها فيكون المال عندئذ خيراً للفرد والمجتمع، ولذا قال رسولنا ﷺ: (نِعم المال الصالح مع العبد الصالح) [٢]، وفى هذا رد على من يتهمون الإسلام بدعوته الناس إلى الفقر وترك الدنيا ، بل الأصل التوسط والاعتدال فيها وأن تكون الدنيا فى يد المسلم لا فى قلبه، ينفق من مال الله ﷻ الذى اكتسبه من حِله على نفسه وأهله، ومواطن الإنفاق من صدقة وزكاة وصلة للأرحام وتفريج للكربات وفك للعانى وإطعام للبائس الفقير.

وفى السورة لطيفة تحسن الإشارة إليها :

فالناظر فى هذه السورة المباركة يجدها قد رسمت لنا صورة متكاملة الأركان حول مشهد الإغارة على الأعداء وهو مشهد متراكب الأجزاء، متعدد اللقطات، يحمل بين ثناياه الحركات المتفاعلة والأصوات المتناغمة والألوان المتداخلة، فهاهى الحركة يشعر بها القارئ فى عدو الخيل وإغارتها وتوسطها خيام الأعداء وإثارتها للفوضى فى المكان، ثم كأن القارئ للسورة يستمع بأذنيه إلى الأصوات الصادرة من ضبح الخيل واصطكاك حوافرها بالصخر عند العدو، ليشاهد بعينيه الألوان المتداخلة كاحمرار الشر المتطاير من قدح الخيل للصخر بحوافرها ثم السواد والغبار الذى يلف مكان الغارة جراء النقع الذى يعلو فوق رؤوس الفرسان مع انبلاج أول خيط لضوء النهار .

---

(١) سورة البقرة / ١٨٠.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، باب المال الصالح للمرء الصالح ، ص١١٢، ورقمه ٢٩٩ .

فسبحان مَن أبدع لنا هذه الصورة المتكاملة فى تفاصيلها، المنسجمة فى جزئياتها، المبدعة فى رسم كل هذه التفاصيل من حركات وأصوات وألوان للخيول العادية المجاهدة بعنفوانها وقوتها ورشاقتها وخفة حركتها .

ثم ينبغى لنا فى هذا السياق أن نطرح سؤالاً إجابته لنا واضحة مكشوفة إذا كان الله ﷻ قد أقسم بخيول المجاهدين لمكانتها ورفعة شأنها فما بالك بشأن راكبيها ، ومكانة المجاهدين أنفسهم عند الله ﷻ؟

لا شك أن هذه السورة هى أعلى وسام يحصل المجاهد فى سبيل الله عليه من سيده ومولاه الذى امتدح فرس المجاهد وأقسم بالعاديات إشارة إلى شرف الجهاد ومكانة المجاهدين فى سبيل الله ﷻ .

﴿سورة الزلزلة﴾

وفيها مسألتان :

المسألة الأولى: ما الأثقال التى ستخرجها الأرض فى قوله ﷻ: ﴿وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾ ؟

والجواب: الأثقال (جمع : ثِقُل ، وهو : متاع البيت) [(١)]، جعل الله ﷻ كل ما يُدفن فى جوف الأرض أثقالاً لها من الكنوز والموتى (قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها، وذكر بعض أهل العلم قال: كانت العرب تقول: إذا كان الرجل سفاكاً للدماء: كان ثقلاً على ظهر الأرض، فلما مات حطت الأرض عن ظهرها ثقلها) [(٢)]

وقيل أيضاً: ﴿**أَثْقَالَهَا**﴾ هى كنوزها التى فى باطن الأرض فتلقيها الأرض يوم القيامة على سطحها حتى يمر عليها الناس فلا ينظر إليها منهم أحد لانشغال كل امرئ منهم بنفسه وبعمله .

المسألة الثانية: ما المستفاد من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(٤)﴾ ؟

الجواب: إن الأرض تتحدث يوم القيامة (فتشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم) [(٣)]، أما كيف تنطق الأرض وتتكلم فهذا أمر غيبى يؤمن به العبد المؤمن وهو غير مستبعد على قدرة الله القدير ، ثم إن إيمان العبد بأن الأرض ستشهد عليه أو له بما فعله على ظهرها ليدفع العبد المؤمن أن يكثر فيها من أماكن الطاعات كالصلاة فى المساجد المتنوعة وكثرة الخطا إلى المساجد، والمتابعة بين العمرة والحج، وصلة

---

(١) البحر المديد ٥١٤/٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤٧/٢٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٩٣٢ .

الأرحام، وقطع المسافات لعيادة المرضى وتفقد أحوال الأرامل واليتامى والسعى للإصلاح بين المتخاصمين، والجهاد فى سبيل الله ﷻ، فكل هذا وغيره مما ستشهد به الأرض يوم القيامة، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)﴾**[١] فهذه من آثار العبد، وممشاه على الأقدام ينال بها شهادة الأرض له يوم القيامة .

بل إن الأرض لتبكى على من مات من الصالحين فوق ظهرها لانقطاع عمله الصالح عنها، وتفرح لموت الظالمين المجرمين لتخلصها من شرورهم وفجورهم، ألم يقل ربنا ﷻ عن آل فرعون لما أغرقهم: **﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾**[٢] فدلَّ على أن السماء والأرض تبكي على من كان صالحاً ثم توفاه الله ﷻ.

——————————————————————

(١) سورة يس / الآية ١٢.
(٢) سورة الدخان / من الآية ٢٩.

﴿سورة البينة﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى : ما المراد بقوله تعالى:﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ (١)﴾؟ وما البينة المذكورة فى الآية ؟

والجواب: أى لم يزل الذين كفروا من أهل الكتاب أى من اليهود والنصارى والمشركين من سائر أصناف الأمم متمسكين بغيهم وضلالهم ولا يزيدهم مرور السنين إلا كفرًا، حتى تأتيهم البينة وهى الدليل الواضح والبرهان القاطع من عند الله ﷻ ، فما هذه البينة ؟ أوضحها الله ﷻ بقوله: **﴿الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣)﴾** فالبينة التى أقام الله ﷻ بها الحجة على كل الأمم السابقة هى إرساله لرسوله ونبيه محمد ﷺ وإنزاله عليه القرآن الكريم ليتلوه على الناس فيرشدهم به إلى الصراط المستقيم

المسألة الثانية: لِمَ تفرق الذين أوتوا الكتاب بعدما جاءتهم البينة ؟

والجواب: هذا انتقاد من الله ﷻلهم وفضح لخبث نفوسهم، فالأصل عند أصحاب الفطرة السليمة أن يتوحدوا وتتآلف قلوبهم ويهتدوا بعقولهم للطريق المستقيم، خاصة بعدما جاءتهم البينة الواضحة، يقول العلامة السعدى – رحمه الله – : (ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم، لم يزدهم الهدى إلا ضلالاً ولا البصيرة إلا عمى)[1].

وهذا درس لنا فى اتباع الحق خاصة مع ظهور علاماته ووضوح أماراته ...نسأل الله ﷻ أن يثبتنا عليه .

المسألة الثالثة: لم وصفت الآية الذين كفروا بأنهم ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(٦)﴾ ؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٩٣١ .

والجواب: ﴿**الْبَرِيَّةِ**﴾ قرأها نافع (البريئة) بالهمز، وقرأ الباقون بغير همز، وهو من برأ الله الخلق أى خلقهم وأوجدهم، والسؤال: لم كان الذين كفروا هم شر الخلق على الإطلاق؟ والجواب: لأنهم عرفوا الحق وخالفوه وجاءتهم الآيات البينات الواضحات فأعرضوا عنها، فكانت لهم عقول ما استفادوا بها وأبصار ما رأوا بها نور الله ﷻ، قال الفخر الرازى – رحمه الله – معقباً على هذه الآية: (واعلم أن شر البرية جملة يطول تفصيلها،شر من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ، وشر من قطاع الطريق لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق، وشر من الجهال الأجلاف لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أقبح، واعلم أن هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد) [١] .

المسألة الرابعة: نفهم أن الله ﷻ قد رضى عن المؤمنين، فكيف نفهم رضى المؤمنين عن الله تعالى ؟

والجواب: الأصل فى الرضا أنها المحبة وانعدام السخط، قال أبو هلال العسكرى فى الفرق بين الرضا والمحبة: (قيل: هما نظيران، وإنما يظهر الفرق بضديهما، فالمحبة ضدها البغض، والرضا: ضده السخط)[٢]، قال الفخر الرازى: (وأصل الرضا أنّه ضدّ الغضب، فهو المحبّة وأثرها من الإكرام والإحسان، فرضي الله مستعمل في إكرامه وإحسانه مثل محبّته في قوله :﴿**يحبّهم**﴾، ورضي الخلق عن الله هو محبّته وحصول ما أمَّلوه منه بحيث لا يبقى في نفوسهم متطلّع، وعلى هذا فإن رضا الله تعالى عن العبد إنما يكون فى الآخرة، ورضا العبد عن الله تعالى إنما يكون فى الآخرة بما يراه العبد) [٣]. وعلى هذا فإن رضا العبد عن الله ﷻ يأتى من رضاه بما يجرى عليه من أحكام الله ﷻ فى الدنيا، قال ابن عجيبة:

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٨/٣٢.
(٢) الفروق اللغوية ٢٥٧/١
(٣) مفاتيح الغيب ٤/ ٤٢٨

(﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية) [1]، (قال محمد بن حقيق: "الرضا ينقسم إلى قسمين: رضاً به ورضاً عنه ، فالرضا به ربّاً ومدبّراً، والرضا عنه فيما يقضي ويقدّر) [2]، فلما رضوا بأقداره جاءهم من ثوابه ونعمائه ما استراحت به قلوبهم واطمأنت به ضمائرهم فرضوا عن الله ﷻ بما نالوه من نِعَمِه الدنيوية ومِنَنِه الأخروية، (حيث بلغوا من الأماني قاصيها، وملكوا من المآرب ناصيتها، وأُتيح لهم ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) [3]، قال السهمى: (إذا كنت لا ترضى عن اللّه، فكيف تسأله الرضا عنك ؟)[4]، وفى قوله ﷻ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ زاد هذا التعبير حُسناً ما وقع فيه من المشاكلة اللفظية .

---

(١) البحر المديد ٢/ ٣٢٦

(٢) الكشف والبيان ٢٦٢/١٠

(٣) البحر المديد ٨/ ٥١٢

(٤) الكشف والبيان ٢٦٢/١٠

﴿سورة القدر﴾

وفيها خمس مسائل:

المسألة الأولى: لِمَ سميت هذه الليلة بليلة القدر ؟

والجواب: ليلة القدر لها أكثر من دلالة، ومنها :

- إن القدر هو الشأن العظيم والمكانة العالية ومنه: فلان ذو قدر أى ذو مكانة بين الناس، فهذه الليلة ذات قدر أى مكانة ترفعها على غيرها من الليالى، ولذا قال ربنا بياناً لمكانتها: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)**﴾، فهى ليلة ذات قدر نزل فيها كتاب ذو قدر على نبى ذى قدر بواسطة مَلَك ذى قدر فهى ليلة القدر .

- إن القدر بمعنى القَدَر وجمعها الأقدار ومقادير ، فهذه الليلة تُكتَب فيها مقادير الخلائق من عامهم هذا إلى مثل هذه الليلة من العام القادم مصداقاً لقول ربنا ﷻ عنها فى سورة الدخان: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(٤)**﴾[١] حتى روى عن سعيد بن جبير– رحمه الله – أنه قال: (يؤْذَن للحُجَّاج في ليلة القدر فيُكتَبون بأسمائهم وأسماء آبائهم فلا يُغادر منهم أحد، ولا يزاد ولا ينقص منهم)[٢]، قال الفخر الرازى: (واعلم أن تقدير الله لا يحدث في تلك الليلة فإنه تعالى قدَّر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل، بل المراد إظهار تلك الليلة المقادير للملائكة في تلك الليلة بأن يكتبها في اللوح المحفوظ) [٣] .

- وقيل القدر بمعنى التضييق، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ**﴾ [٤]، وقد سُميت ليلة القدر بذلك لكثرة نزول الملائكة فيها حتى أن الأرض تضيق على أهلها مصداقاً لقول الله تعالى:

(١) الدخان / من الآية ٤ .
(٢) الكشف والبيان ١٠/ ٢٤٨ .
(٣) مفاتيح الغيب ٣٢/ ٢٨ .
(٤) سورة الطلاق / من الآية ٧ .

﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ .

المسألة الثانية: كلنا يعرف أن القرآن قد نزل مفرقاً على مدار ثلاثوعشرين سنة،فكيف يستقيم هذا مع ما يُتوهم من أن القرآن قد نزل جملة واحدة فى هذه الليلة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(١)﴾؟

والجواب: إننا حتى نفهم ذلك فلا بد من الحديث عن تنزلات القرآن الكريم التى ذكرها العلماء فى "علوم القرآن"، حيث ذهب أكثرهم إلىأن القرآن الكريم (قد نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا وكان ذلك فى ليلة القدر وهو ما ذكرته سورتا القدر والدخان، ثم نزل بعد ذلك من بيت العزة فى السماء الدنيا إلى نبينا محمد ﷺ مفرقاً وفق الوقائع والأحداث وذلك على مدار نيف وعشرين سنة قيل ثلاث وعشرون وقيل خمس وعشرون سنة ، وبذلك يزول الالتباس .

وهناك من العلماء من ذهب إلى أن الله ﷻ كان يُقدِّر ما سينزل من القرآن كل عام فيُنزل هذا المقدار فى ليلة القدر من هذا العام إلى بيت العزة ثم ينزل مفرقاً طوال العام، حتى إذا انتهى العام انتهى معه ما قدّر الله فيه أن ينزل من القرآن، ثم ينزل مقدار العام الجديد من القرآن فى ليلة القدر فى العام الجديد ليُحفظ فى بيت العزة ثم ينزل هذا المقدار مفرقاً فى العام، وهكذا كل عام، فيكون القرآن الكريم قد نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى ثلاث أو خمس وعشرين ليلة قدرٍ بعدد السنين التى نزل فيها مفرقاً .

أما الرأى الثالث فيذهب إلى أن القرآن الكريم قد ابتُدِئ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات) [١] .

ولكن الراجح الرأى الأول وعليه قول جمهور العلماء، وترجع علة تعدد نزول القرآن جملة واحدة فى ليلة القدر ثم نزوله مفرقاً فى ثلاث وعشرين سنة لإظهار مكانته وفضله على سائر الكتب السابقة .

---

(١) ويمكن فى هذا الشأن مراجعة الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١٤٦/١، البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٢٢٨/١.

وفيه أيضا تفضيل نبينا ﷺ على غيره من المرسلين فى أن كتابه قد نزل مثل كتبهم جملة واحدة ثم التفضيل لمحمد ﷺ في إنزاله عليه منجماً ليحفظه.

المسألة الثالثة: ما معنى أن ليلة القدر خير من ألف شهر ؟

الجواب: أى أن العبادة فيها تعدل عبادة ألف شهر، بمعنى أن الإنسان لو عمل عملاً صالحاً ألف شهر ليس فيها ليلة القدر كانت ليلة القدر خيراً منها لما فيها من الفضل العظيم والثواب الجزيل، فقد ثبت فى الصحيحمن حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه) [١] وألف شهر أى ما يساوى ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر كل هذه الفترة لا تعادل فضل ليلة واحدة .

أما عن تحديد فضلها بألف شهر، فقيل: إن المراد ليس الألف شهر على وجه التحديد، وإنما أُطلِق الألف وأريد به الكثرة وأراد بألف شهر جميع الدهر، لأن العرب تذكر الألف وتريد به الدلالة على كثرة الأشياء، كما قال عز وجل: ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [٢]، يعني جميع الدهر.

قال القرطبى: (إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، فجعل الله تعالى لأمة محمد ﷺ عبادة ليلة خيراً من ألف شهر كانوا يعبدونها) [٣].

كما روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك فنزلت﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)**﴾ فهى خير من ألف شهر من التى لبس الرجل فيها سلاحه فى سبيل الله) [٤].

---

(١) صحيح البخارى ٤ / ٥٧٤ ، ورقمه ١٩٠١.
(٢) البقرة / من الآية ٩٦ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٣١/٢٠.
(٤) سنن البيهقى الكبرى، أحمد بن الحسين أبوبكر البيهقى، ٤ / ٣٠٦، ورقمه ٨٣٠٥، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م .

المسألة الرابعة: فى قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ ماالمراد بالروح ؟ ولم خص بالذكر مع الملائكة ؟

والجواب: الروح فى أقوال جمهرة المفسرين هو جبريل عليه السلام، فإن قال قائل: أليس جبريل من الملائكة فَلِم ذُكِر بعد ذِكر الملائكة وهو داخل في جملتها ؟

والجواب: إن هذا من باب ذكر الخاص بعد العام للدلالة على أهميته وأن له شأناً خاصاًيختلف عن غيره من الملائكة لشرفه ومكانته، فكأن جبريل – عليه السلام – ذُكر مرتين: مرة عامة فى عموم الملائكة ، ومرة أخرى خاصة بذكره منفرداً بعدهم فى قوله تعالى: ﴿**وَٱلرُّوحُ**﴾، ومثاله أيضاً قوله ﷻ فى سورة البقرة: ﴿**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ الوُسطَى**﴾[١]، حيث أفرد الصلاة الوسطى – وهى العصر – على أرجح الأقوال بالذكر مع أنها من جملة الصلوات التى أمرنا ربنا بالمحافظة عليها فى الآية، بيد أنه ﷻ كرر ذكرها لبيان مكانتها، قال الزمخشرى: (وإنما أُفردت وعُطفت على الصلاة لانفرادها بالفضل) [٢].

المسألة الخامسة: ﴿سَلَٰمٌ﴾ ما إعرابها وما المراد منها ؟

الجواب: جاءت كلمة ﴿**سَلَٰمٌ**﴾ مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره هى، وتكون الجملة "هى سلام"، وقيل فى المراد من ذلك ثلاثة أقوال:

الأول: (إن الملائكة تسلم على المطيعين، وذلك لأن الملائكة ينزلون فوجاً فوجاً من ابتداء الليل إلى طلوع الفجر، فترادف النزول لكثرة السلام)[٣]، (قال الشّعبي: هو تسليم الملائكة في ليلة القدر على أهل المساجد منحين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، وقيل الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمناً أو مؤمنة يسلمون عليه من ربه عزّ وجلّ)[٤].

---

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٣٨ .
(٢) الكشاف ٣١٥/١ .
(٣) مفاتيح الغيب ٣٥/٣٢ .
(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل ٢٧٦/٧-٢٧٧ .

الثانى: قيل المراد إن ليلة القدر سلام من الشرور والآفات(فهي ليلة سالمة من كل شر، لا يحدث فيها حدث ولا يرسل فيها شيطان، قاله مجاهد) [1].

أما القول **الثالث** فقيل: إن الله ﷻ لا يقدر فى هذه الليلة إلا كل خير (قال الضّحاك: لا يقدر اللّه سبحانه في تلك الليلة إلاّ السلامة ، فأمّا في الليالي الأُخر فيقضي اللّه تعالى فيهنّ البلاء والسلامة) [2] .

لطيفة تحسن الإشارة إليها :

بعض القراء عندما يقرأ هذه الآية الكريمة﴿**سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)**﴾ يقف على كلمة ﴿**سَلَٰمٌ**﴾ ثم يبدأ القراءة من أول قوله ﷻ: ﴿**هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)**﴾، ليكون المعنى أن وقت هذه الليلة المباركة ممتد من الليل حتى طلوع الفجر ... والله أعلى وأعلم .

―――――――――――――――――――――――――――――――――――

(١) النكت والعيون ٦/٣١٤ .
(٢) الكشف والبيان ١٠/٢٥٨ .

﴿سورة العلق﴾

وفيها خمس مسائل:

المسألة الأولى: ما دلالة أن تكون سورة العلق أول مانزل من القرآن الكريم ؟

والجواب: إن الثابت عند أهل التفسير أن سورة العلق أول ما نزل من القرآن، ومطلعها ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)**﴾ فهى أول ما لامس قلب رسول الله ﷺ من وحى السماء ، ولعل فى ذلك بعض الإشارات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

إن فى هذه البداية دليل على أن القرآن الكريم ليس من تأليف محمد ﷺ إذ لا يُعقل أن يكون أول ما ينطق به رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب أن يقول لأتباعه: ﴿**اقْرَأْ**﴾، فكان هذا دليل على أن هذا القرآن من أول وحيه وبدايته إلى نهاية عهده ومنتهاه إنما هو من عند الله ﷻ لا من تأليف محمد .

كما يدل على أهمية العلم والقراءة والكتابة فى حياة المسلم وأن طلب العلم وإجادة تحصيله بحسن الخط وإتقان القراءة وجودة الكتابة هو مطلب شرعى حثنا عليه ديننا ودلنا عليه كتاب ربنا ﷻ من أول نزوله .

ثم تأمل ارتباط العلم بالإيمان فى قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)**﴾ حيث يرشدنا ربنا إلى أن العلم بدون إيمان أوارتباط بنور النبوة ومنهج الإيمان إنما هو خراب ودمار للبشرية، وما نراه اليوم من ممارسات غيرإنسانية فى مجال العلم وهذه الاستخدامات غير الأخلاقية التى أدت إلى اختلاط الأنساب وإزهاق الأرواح وضياع الممتلكات إنما هو نتاج العلم بدون إيمان، كما أن الإيمان بدون علم هو إساءة إلى المجتمع المؤمن الذى ينتسب إلى دين جعل العلم عنواناً له، فى رسالة إلى أتباعه إلى الحرص على العلم والتمسك بحبال المعرفة والتسلح بالقراءة والكتابة فهما بعد الإيمان ببسم الله ومنهجه وشريعته ضمان لتقدم الأمة ودوام سيادتها .

المسألة الثانية: ما دلالة قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ ؟ وما علاقتها بما بعدها ؟

والجواب: إن الله ﷻ الذى خلق الإنسان ويعلم ما فى نفسه يُخبر عن صفة فى هذا المخلوقألا وهى الطغيان أى مجاوزة الحد فى الكِبر والبطر إذا رأى فى نفسه الغنى وشعر باستغنائه عن غيره، عندئذ تتعاظم نفسه ويتيه على الناس كِبراً وإعجاباً بنفسه ، قال ابن عاشور: (أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه)[١]، وقد أوضحت هذه الآية حقيقة نفسية فى أغلب بنى آدم ألا وهى الطغيان فى حال أن رأى نفسه مستغنياً عن غيره، وغيره محتاج إليه، والمعصوم من عصمه الله ﷻ .

ولذا جاءت الآية التى تليها : ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨)﴾ وكأنها تنبيه لهذا الغافل المغرور بأن نهايته المحتومة هى الموت ثم الرجوع إلى ربه الذى أغناه ومن كل خير أعطاه، وما كان هذا من الرب القوى القهار إلا اختبار للعبد الضعيف المحتاج الذى طغى بعطاء ربه وإنعامه عليه، وما شعر بعوزه وحاجته وأن ستر الله ﷻ له ممدود وعطاءه له غير محدود، فغرَّه طول الأمل واستغنى بكثرة المال عن ربه الكريم وتكبر على إخوانه من بنى آدم .

(كما أن فيها معنى آخر وهو أن استغناءه غير حقيقي لأنه مفتقر إلى الله تعالى في أهم أموره ولا يدري ماذا يصيره إليه ربه من العواقب)[٢] .

المسألة الثالثة: ما قصة هذه الآيات:﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤)﴾ ؟

---
(١) التحرير والتنوير ٣٩٢/٣٠
(٢) المرجع السابق، ٣٠ /٣٩٢

والجواب: إن هذه الآيات نزلت فى واقعة معينة ذكرتها كتب التفاسير ألا وهى ما كان بين عدو الله أبى جهل – لعنه الله – ورسول الله ﷺ فإن عدو الله أراد منع رسول الله ﷺ من الصلاة فى المسجد الحرام وقال فيما أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ؓ قال: (قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته، ولأعفِّرَن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، وعزمليطأ على رقبته، فما فَجَأَهُمْ منه إلا وهو ينكُص على عقبيه، ويتَّقي بيديه، قال فقيل له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا، قال: فأنزل الله هذه الآيات) [(١)].

فخاطبه الله ﷻ بهذه الآيات، أي أرأيت يا أبا جهل إن كان محمداً على هذه الصفة من الهدى والأمر بالتقوى والإيمان، أمثل هذا يُمنع عن الصلاة والسجود لله ﷻ فلا يَمنع مثل هذا العبد التقى من السجود والصلاة إلا مكذب للحق معرض عن طريق الهداية والرشاد، (فما أعجب هذا ! ثم يقول: ويله ! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى، أي يراه ويعلم فعله، فهو تقرير وتوبيخ) [(٢)] .

المسألة الرابعة: بم توعد الله تعالى عدوه "أبا جهل" فى هذه السورة؟

الجواب: إن الله ﷻ توعد عدوه أبا جهل وكل من يسير على منهجه الضال المنحرف فى معاداة الأنبياء والرسل ومحاربة الأولياء والصالحين – فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب – كما هو مقرر عند أهل التفسير – فتوعده الله ﷻ بقوله: ﴿**كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)**﴾، ولا بد أولاً أن نتوقف عند معانى الألفاظ التى وردت فى الآيات الكريمات :

---

(١) صحيح مسلم ، ٨ /١٣٠، ورقمه ٧٢٤٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢٤/٢٠

فى قوله تعالى: ﴿ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ (١٥)﴾ السفع كما يقول أهل اللغة: سفعت بالشئ: إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً، وقيل: هو مأخوذ من سفعته النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد، أما الناصية فهى شعر مقدمة الرأس، والعرب تعبر عن كرامة الإنسان وحريته بالناصية، فكان العبد عندهم يؤخذ بناصيته وتجز إيذاناً بعبوديته وإعلاناً عن استرقاقه، ومن ذلك قول الخنساء :

جززنا نواصي فرسانهم * وكانوا يظنّون أنْ لن تُجَزَّا**

فتوعده الله ﷻ بالعذاب المهين يوم القيامة حيث ستجذبه ملائكة النار من ناصيته وتلطمه على وجهه وتدفعه دونما شفقة أو رحمة ليُلقى فى النار ذليلاً مهاناً ، وإنما يستحق ذلك فناصيته كاذبة خاطئة، والمعنى أنه كذاب فى قوله خاطئ فى فعله ومعتقده، وقد تُذكرالناصية ويرادبها الدلالة على جملة الإنسان، كما يقال: هذه ناصية مباركة، إشارة إلى أن هذا الإنسان مبارك. ثم قال ربنا: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَه (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)**﴾، لأن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهك؟ فأغلظ له رسول الله ﷺ، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً، فأنزل الله ﷻ الآية ومعناها: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَه**﴾ أي أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدى فيه القوم أي يجتمعون، فإن فعل ذلك فسندع الزبانية، والزبانية مأخوذة من الزبن وهو الدفع بشدة قال ابن منظور فى اللسان: (والزَّبانِية الذين يَزْبِنون الناسَ أَي يدفعونهم، قال قتادة الزَّبانِية عند العرب الشُّرَطُ وكله من الدَّفْع وسُمي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أَهل النار إليها، قال الفراء يقول الله ﷻ: ﴿**سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)**﴾، وهم يعملون بالأَيْدي والأَرجل فهم أَقوى، قال الكسائي: واحد الزَّبانية زِبْنيٌّ، وقال الزجاج: الزَّبانية الغلاظ الشداد واحدهم زِبْنية وهم هؤلاء الملائكة الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿**مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ**﴾، وهم الزَّبانية)[1].

(١) لسان العرب ١٩٤/١٣

المسألة الخامسة: ماذا يُفهم من قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ ؟

والجواب: المتدبر فى هذه الآية الكريمة يخرج منها بعدة فوائد:

الأولى: الارتباط بين أولها وآخرها فعدم طاعة المؤمن لأصحاب الفجور ومخالفة أرباب البدع والمعاصى سبيل القرب من رب العالمين، ألم تلحظ أمر الله ﷻ لكل مؤمن – متمثلاً فى شخص نبيه ﷺ بألا يطيع من يأمره بترك الطاعة والعبادة ، فإنه إن فعل ذلك نال القرب والرضا من رب العالمين، ويؤكد هذا أنه من طلب رضا الناس بسخط الله ﷻ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن طلب رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضا عنه الناس .

الثانية: إن العبد يستعين على هجران أهل المعاصى وأعداء الدين باللجوء إلى الله ﷻ والإكثار من الصلاة والسجود حتى يثبته الله ﷻ على دينه وألا يُفتن بكثرة الدعاة إلى الفتن، فالثبات من الله ﷻ وليس بقوة إيمان العبد، وصدق الله ﷻ حين قال: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤)**﴾[١]، ولذا كان أكثر دعائه ﷺ (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك) [٢] .

الثالثة: أن السجود سبيل القُرب، فكلما ازداد سجودك ازداد قربك، ولذا لما سأل أحد الصحابة الرسول ﷺ أن يكون رفيقه فى الجنة، قال له : (فأعنى على نفسك بكثرة السجود) [٣]، وعلمنا نبينا ﷺ أن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، ولذا فمن العجب أن يتسرع المصلى فى رفع رأسه من السجود فإنه إن فعل فإنما يحرم نفسه من أُنس القرب وروعة المناجاة ولذة الوقوف بباب من بيده مفاتيح الفرَج .

---

(١) سورة الإسراء / الآيتان ٧٣- ٧٤

(٢) الأدب المفرد ، ١ / ٢٣٧ ، ورقمه ٦٨٣ .

(٣) صحيح مسلم ، ٢ / ٥٢ ، ورقمه ١١٢٢ .

﴿سورة التين﴾

وفيها خمس مسائل:

المسألة الأولى: ما الذى أقسم به ربنا فى أول السورة المباركة ؟

والجواب: أقسم الله ﷻ بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين ولنا معها وقفات:

الأولى: اختلف العلماء فى المراد بالتين والزيتون، فالبعض كابن عباس قال: إن المراد بهما أعيانهما أى التين الذى نأكله والزيتون الذى نعصره، وجزم ابن القيم أنه المراد فى السورة، بيد أن البعض كابن جرير الطبرى والحافظ ابن كثير يرون أن المراد بهما المواضع التى يُزرعان فيها فالمراد بالتين:مسجد دمشق، والمراد بالزيتون: بيت المقدس، وهى الأرض المباركة أرض الشام التى عاش فيها عيسى بن مريم – عليه السلام – وكذا قالوا عن طور سينين إنه الجبل الذى نبت فيه الشجر والمراد به محل وموقع هذا الجبل الذى كلم الله ﷻ فيه موسى كليم الله واحتجوا على ذلك بأن الله ﷻ ختم هذا القسم بالبلد الأمين وهى مكة المباركة ليكون فى ذلك جمعاً بين محل عيسى وموسى ونبينا محمد ﷺ، وقالوا إنه لا يوجد تناسب بين القسم بالتين والزيتون ثم القسم بطور سنين والبلد الأمين، لكن أكثر المفسرين على خلاف هذا، حيث يرون ما ذهب إليه ابن عباس ﷺ بأن القسم بأعيانهما: أى التين الذى نأكله والزيتون الذى نعصره، وبعض المفسرين كالألوسى يرى أنه لا تنافى بين القولين وهذا – والعلم عند الله – هو الأقرب للصواب وأدنى للتوفيق، فيكون القسم بأعيانهما والمراد به البقاع والأماكن .

الثانية: ذكر أهل العلم فى قيمة التين والزيتون أقوالاً كثيرة كلها تدل على أهميتهما وفائدتهما، حتى قال بعضهم عن التين: هو أشبه شئ بفاكهة الجنة،فهى فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص إذ لايُرمى من ثمرتها شئ، فكلهاــ كل، إذ لا قشر لها يُنزع، ولا نوى يُرمى، ولا بذور تُلقى، بخلاف

غيرها فالتمرة تُرمى نواتها، والبرتقال يُرمى قشره، وقد أبدعها الله ﷻ على قدر لقمة الآكل.

أما الزيتون فهو شجرة مباركة كما قال ربنا: ﴿**يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ**﴾ [(١)]، وكل الزيتون فوائد حتى أن أطباء القلب يوصون باستعمال زيت الزيتون الذى يحتوى على أحماض دهنية غير مشبعة وهو ما يميزه عن بقية الزيوت ولذا يوصى الأطباء باستعماله بديلاً عن أنواع الزيوت الأخرى التى ترفع نسبة الكوليسترول فى شرايين القلب،بينما يعمل زيت الزيتون على تفكيكها وإزالتها كما قال أهل الطب، أورد الفخر الرازى أن (مريضاً لابن سيرين:"رأيت في المنام كأنه قيل لي: "كُل اللامين تشف"، فقال: "كُل الزيتون، فإنه لا شرقية ولا غربية") [(٢)].

الثالثة: أما طور سينين فهو جبل الطور بسيناء الذى كلم الله ﷻ عنده موسى بن عمران – عليه السلام – والبلد الأمين البلد هو أى مكان مأهول مسكون، والأمين أى الآمن من الأعداء أن يغزوا أهل الحرم، ولا خلاف بين العلماء أن المراد بالبلد الأمين هى مكة المكرمة التى فيها ولد رسولنا – ﷺ– ومنها بُعث، وقد سماها الله تعالى بأم القرى فى قوله تعالى: ﴿**لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾ [(٣)]، وحرَّمها يوم أن خلق السموات والأرض، هذا كله قسم من الله ﷻ ببعض مخلوقاته ولله تعالى أن يُقسم بما شاءمن مخلوقاته وليس لأحد من خلق الله أن يُقسم إلا بالله ﷻ .

المسألة الثانية: علام أقسم الله تعالى ؟

والجواب: أقسم الله ﷻ على أنه خلق الإنسان فى أحسن تقويم، فقال: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)**﴾، قال العلامة السعدى: (أى تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا أو باطنًا شيئًا، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور، وسفساف الأخلاق) [(٤)]، وقد خلق الله ﷻ

(١) سورة النور / من الآية ٣٥ .
(٢) مفاتيح الغيب ، ٣٢ / ١٠ .
(٣) سورة الشورى / من الآية ٧
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٩٢٩

كل كائن حى منكباً على وجهه إلا الإنسان فقد خلقه معتدل القامة مستوياً قائماً على ساقيه، وهذا من ناحية الشكل، وإن كان الواجب عدم التوقف عند حدود المنظر، ورحم الله ابن عاشور حين علق على هذه الآية بكلام نفيس مفاده أن تقويم صورة الإنسان الظاهرة ليس هو المعتبر عند الله ﷻ ولا جديراً بأن يُقسم عليه إذ لا أثر له في إصلاح النفس وإصلاح الغير والإصلاح في الأرض، وإنما الذي نأخذه من هذه الآية أنَّ الإنسان مخلوق على حالة الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها مصداقاً لقوله ﷻ: **﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عليها﴾**[1]، وقول رسوله ﷺ (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه) [2]، أقول: وأنا أميل إلى ما قاله ابن عاشور بدليل ما بعده من قوله تعالى: **﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥)﴾** ، فمَن فسر **﴿أ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾** بالقوة والفتوة والشباب فسَّر**﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥)﴾** بأنه ارتداد الإنسان إلى أرذل العمر وانتكاس حاله من القوة إلى الضعف ومن الإقبال إلى الإدبار، لكن هذا التفسير لا يستقيم مع الاستثناء فى الآية التى بعدها **﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾** فلا يُعقل أن يُستثنى الذين آمنوا من الوصول إلى أرذل العمر والردة إلى أسفل سافلين، وهذا يدعم القول إن المقصود من الآية هو تغير الفطرة السليمة التي خلق الله الإنسان عليها، ومن ثبت على هذه الفطرة أمِن على نفسه من أن يرتد إلى أسفل السافلين فكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ونال بفضل الله ورحمته الأجر غير الممنون .

المسألة الثالثة: لم قال الله تعالى: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥)﴾ ولم يقل (أسفل السافلين) ؟

والجواب: قوله: **﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥)﴾** أكثر عموماً وأقوى شمولاً، فالكافر المنتكس على فطرته سيرتد إلى أسفل من أى سافل وأحط من أى رتبة كانت فى البهائم العجماوات، أو الحشرات الحقيرات، أو الصم الجمادات، ولذا كان التنكير هنا أكثر تعميماً وأقوى دلالة على الانتكاس والانحطاط فى الرتبة .. والله أعلى أعلم .

---

(١) سورة الروم / من الآية ٣٠ .
(٢) صحيح البخارى ، ١١/ ٥٧٣ ، ورقمه ٤٧٧٥ .

المسألة الرابعة: ما معنى (مَمْنُونٍ) فى قوله تعالى : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)﴾؟

الجواب: الممنون هو اسم مفعول من الفعل منَّه أى قطعه، ومنه قول ذى الإصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذى غلق * على الصديق ولا خيرى بممنون**

فالأجر غير الممنون هو المتصل غير المقطوع، وهناك معنى آخر للأجر غير الممنون أي هو الذى لا يُمَن به عليهم، قال الفخر الرازى: (واعلم أن كل ذلك من صفات الثواب، لأنه يجب أن يكون غير منقطع وأن لا يكون منغصاً بالمنة) (١) .

المسألة الخامسة: مَن المخَاطَب فى قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧)﴾ ؟

والجواب: قد يصلح أن يكون الخطاب للإنسان على سبيل الالتفات والمعنى ما الذى يدفعك للتكذيب بهذا الدين القويم بعد أن رأيت بعينيك كل هذه الأدلة والبراهين، قال الزمخشرى: (والمعنى: أنّ خلق الإنسان من نطفة، وتقويمه بشراً سوياً وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر لا ترى دليلاً أوضح منه علىقدرة الخالق، وأن من قدر من الإنسان على هذا كله لم يعجز عن إعادته فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع) (٢) .

وقد يكون الخطاب للرسول ﷺ والمعنى علام يكذبونك يا محمد، والأوفق للسياق المعنى الأول، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن منصور قال: قلت لمجاهد: **﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ(٧)﴾** عنى به النبي ﷺ؟ قال: "مَعَاذ الله! عنى به الإنسان"، وهكذا قال عكرمة وغيره) (٣) .

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/ ١٢ .
(٢) الكشاف ٤/ ٧٨٠ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٥

﴿سورة الشرح﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: قضية شرح صدر رسول الله ﷺ :

وهى قضية كثر حولها لغط المستشرقين وأنكرها بعض العلمانيين ممن يقدسون العقل ويرفعون شأنه على النقل، مع أن هذه الحادثة قد أثبتها القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية وأصحاب السير المتقدم منهم والمتأخر حيث أجمعوا على وقوعها للنبى ﷺ يقظة وهو ابن سنتين فى بادية بنى سعد عند مرضعته حليمة السعدية، وقد وردت قصة الشرح فى صحيح البخارى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهومنتقع اللون قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره) (١).

والذى عليه قول كثير من أصحاب السير أن حادثة شق الصدر حدثت للنبى ﷺ مرتين، الأولى وهو مسترضع فى بادية بنى سعد والثانية لتهيئته لرحلة الإسراء والمعراج.

قال أبو حاتم: (شق صدر النبي ﷺ وهو صبي يلعب مع الصبيان وأخرج منه العلقة ولما أراد الله جل وعلا الإسراء به أمر جبريل بشق صدره ثانيا وأخرج قلبه فغسله، ثم أعاده مكانه مرتين في موضعين وهما غير متضادين)(٢) .

المسألة الثانية: هل كان للنبى ﷺ أوزار، وإلا فما معنى قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢)﴾ ؟

والجواب: معلوم أن الوزر هو الذنب، وقدسبق وأن تعرضنا لقضية هل كان للنبى ﷺ أوزار وذنوب أم عصمه الله عز وجل منها أى قضية (عصمة

---

(١) صحيح مسلم ١٤٧/١ ، ورقمه ١٦٢.
(٢) صحيح ابن حبان ٢٤٢/١٤، ورقمه ٦٣٣٤ .

الرسول ﷺ) وذلك حين تعرضنا لقوله ﷻ فى سورة (النصر): ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)**﴾ ، والحق أن هذه قضية دار حولها جدل كثير وخلاف كبير بين فريقين: الأول يثبت العصمة التامة ويتأول الآيات التى وردت فى عتاب النبى ﷺ فى القرآن لينفى عن النبى ﷺ حدوث الذنب، والفريق الثانى ينفى العصمة ويثبت حدوث الذنب للرسل عليهم الصلاة والسلام، والحق – فيما أرى – أن نفرق بين نوعين من العصمة :

الأول: العصمة من أمور التبليغ والرسالة وكبائر الذنوب، والثانى: العصمة من صغائر الذنوب والأخطاء الدنيوية.

أولاً: بالنسبة للأمر الأول فلا شك فى عصمة الرسل – عليهم السلام – فيه، لأن الخطأ فى هذا الجانب يقدح فى أصل الرسالة وتمام الدين، وقد عصمهم الله تعالى من الخطأ فى الإبلاغ عن عمد أو من غير قصد، قال الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٦٧)**﴾[١]، وقال الله ﷻ: ﴿**وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)**﴾[٢]، قال العلامة السعدى – رحمه الله – فى تفسير الآية: (وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين فلم يشح بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرءوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأحباراً متفرسين)[٣] وعلى عصمة الرسل الكرام – عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام– انعقد إجماع الأمة، قال شيخ الإسلام – رحمه الله – فى (مجموع الفتاوى): (فإن الآيات الدالة

(١) سورة المائدة / الآية ٦٧.
(٢) سورة التكوير / الآية ٢٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩١٢.

على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله ﷻ، فلا يكون خبرهم إلا حقاً وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب وأنه ينبئ الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه) [1] .

وكذا القول بعصمتهم من كبائر الذنوب فإن الوقوع فيها لا يليق بآحاد الناس فما بالك بخيارهم ومرسليهم سواء قبل البعثة أو بعدها، بخلاف ما حوته كتب التوراة والإنجيل – بعد التحريف – من بلايا وزلات لا تليق بعوام الناس لكن الضالين المكذبين ألصقوها بالأنبياء والمرسلين واتهموهم – كذباً وافتراءً – بالزنا وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق والوقوع فى الحرام .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : (إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ... وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول) [2]، ولأن صدور الكبائر منهم – حتى قبل بعثتهم – سبيل لطعن أعدائهم فيهم بعد بعثتهم، وحجة للطعن فى صدق إيمانهم وحسن إخلاقهم وانصراف الناس عن تصديق دعوتهم، ويكفى للاستدلال فى هذا الباب ما عُرِف به نبينا ﷺ بين قومه قبل بعثته بالصادق الأمين .

ثانياً: أما الأمر الثانى وهو العصمة من صغائر الذنوب والأخطاء الدنيوية، فهذه مسألة دار حولها جدل وخلاف، فأكثر من قال بالعصمة التامة وعدم وقوع الخطأ الدنيوى فضلاً عن الدينى كان الروافض الشيعة أصحاب المذهب المبتدع، حيث اتخذوا القول بعصمة الأنبياء ذريعة ومدخلاً للقول بعصمة آل البيت ومن ثم القول بعصمة الأئمة الإثنى عشر،

(١) مجموع الفتاوى ٧/١٨ .
(٢) المرجع السابق ٣١٩/٤ .

ثم القول بعصمة معمميهم ورجال الدين فيهم، فأطاعوهم ورفعوا أقدارهم حتى جعلوا أقوالهم وأفعالهم حجة على من خالفهم وخلعوا عليها قدسية القرآن وحجية السُنة .

لكن القول المعتبر عندنا وهو مذهب جمهور العلماء إن الأنبياء غير معصومين من الوقوع فى صغائر الذنوب، لكن الوحى يتنزل عليهم بالتصحيح والتنبيه، والتعديل والتصويب، فيسارعون إلى التوبة والاستغفار ليكونوا بعد الذنب والتوبة منه أفضل وأقرب من حالهم قبله، قال شيخ الإسلام: (وعامة ما يُنقل عن جمهور العلماء أنهم (أي الأنبياء) غير معصومين عن الإقرار على الصغائر، ولا يقرون عليها، ولا يقولون إنها لا تقع بحال، وأول من نُقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقاً وأعظمهم قولاً لذلك: الرافضة، فإنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل)[1]، والأدلة على عدم عصمتهم من الصغائر فى القرآن والسنة كثيرة متوافرة، ومن ذلك فى قصة آدم – عليه السلام –: ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)**﴾[2]، وقد وصفت الآية ما وقع من آدم – عليه السلام – بالمعصية وبينت أن الله ﷻ وفقه للتوبة حتى تاب من المعصية فتاب الله ﷻ عليه، وكذا فى قصة موسى – عليه السلام – لما قتل القبطى فيما ورد فى سورة القصص ثم قوله فيما حكاه القرآن عنه: ﴿**قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)**﴾[3]، وفى الآية اعتراف من موسى – عليه السلام – بظلم نفسه بوقوع القتل منه ثم استغفاره لربه ودعاؤه أن يغفر الله ﷻ له فغفر له، ومعلوم أن الغفران إنما يكون من الذنوب

(١) المرجع السابق ٣١٩/٤ .
(٢) سورة طه / الآيتان ١٢١– ١٢٢
(٣) سورة القصص / الآيتان ١٥– ١٦ .

والمعاصى، أضف إلى ذلك ما ورد فى قصة داود – عليه السلام – مع الخصمين اللذين تسورا المحراب، وأنه تعجل فى إصدار الحكم دون تثبت ولا سماع لكل أطراف القضية، فلما علم بخطئه تاب إلى الله وخر راكعاً وأناب، فغفر الله له ذنبه، قال الله ﷻ: ﴿**وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)**﴾[١]، والمتتبع لآى القرآن الكريم يجدها قد بعضها قد حوى عتاباً من الله ﷻ لنبيه ﷺ ومن ذلك :

عتاب الله ﷻ له فى قضية أسرى بدر حين قبل منهم الفداء، قال الله ﷻ: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)**﴾[٢]، وكذا فى فى قضية التحريم إرضاءً لبعض نسائه، قال الله ﷻ:﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)**﴾[٣]، وقضية عبد الله بن أم مكتوم الذى أعرض النبى ﷺ عنه فنزلت سورة (عبس) التى عاتبه الله ﷻ فيها على هذا الإعراض والانشغال عن هذا الرجل المؤمن، قال الله ﷻ: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)**﴾[٤] .

وأرى لزاماً علينا من باب تتمة هذا الموضوع أن نذكر ما قد يقع من الأنبياء – عليهم السلام– من الأخطاء الدنيوية فى أمور الحياة المعيشية والحياتية وهى جائزة فى حقهم مع تمام عقولهم وسداد تفكيرهم لكن الخطأ

(١) سورة ص/ الآيتان ٢٤– ٢٥ .
(٢) سورة الأنفال / الآيات ٦٧– ٦٩ .
(٣) سورة التحريم/ ١ .
(٤) سورة عبس/ الآيات من ١– ١٠ .

فى هذا الباب قد يقع منهم لعدم إحاطتهم بكل شئون الحياة وتشعب أعمالها من زراعة وصناعة وتجارة وحرب وقضاء ... إلخ .

ويدخل فى هذا الباب ما رواه مسلم فى صحيحه من قصة تأبير نخل المدينة حيث روى مسلم في صحيحه عن رافع بن خديج ﷺ قَالَ: قَدِمَ نَبِيّ اللّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَهُمْ يَأْبُرُونَ النّخْلَ. يَقُولُونَ يُلَقّحُونَ النّخْلَ. فَقَالَ: "مَا تَصْنَعُونَ؟ " قَالُوا: "كُنّا نَصْنَعُهُ"، قَالَ: "لَعَلّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْراً" فَتَرَكُوهُ، فَنَفَضَتْ أَوْ قال: فَنَقَصَتْ قَالَ: "فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ"، فَقَالَ: "إِنّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنّمَا أَنَا بَشَرٌ")[١]. ومعلوم أن هذا إنما يكون فى أمور الدنيا فلا يقدح فى عصمتهم من جهة الإبلاغ والرسالة ... والله أعلى وأعلم .

المسألة الثالثة: ما معنى وصف الوزر بـ ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(٣)﴾؟

والجواب: وصف هذا الوزر بالثقل على كاهل النَبِيّ ﷺ، قال الفخر الرازى: (قال علماء اللغة: الأصل فيه أن الظهر إذا أثقل الحمل سمع له نقيض أي صوت خفي وهو صوت المحامل والرحال والأضلاع، أوالبعير إذا أثقله الحمل، فهو مثل لما كان يثقل عن رسول الله ﷺ من أوزاره) [٢]، وقال أبو حيان: (والنقيض : صوت الانقضاض والانفكاك) [٣]، وفيه دلالة على شدة إيمانه وقوة تعلق قلب نبينا ﷺ بربه حتى كانت صغار الذنوب وكأنها جبل عظيم يحمله فوق ظهره حتى كاد أن ينقض ظهره من ثقله عليه، وايم الله تلك حال المؤمن الذى ينظر إلى صغار الذنوب وكأنها جبال تهامة حطت على عاتقيه، أما المنافق فينظر إلى كبائر الموبقات وعظائم السيئات وكأنها ريشة يتخفف فى حملها، أو ذبابة وقعت على أنفه فحرك يده إليها فطارت فلا هو شعر بها حين نزلت ولا حين انصرفت... والله المستعان .

---

(١) صحيح مسلم، ٤/ ١٨٣٥، ورقمه (٢٣٦٢) .
(٢) مفاتيح الغيب ٣٢ / ٥
(٣) البحر المحيط ٤٨٤/٨

المسألة الرابعة : كيف رفع الله تعالى ذكر نبيه محمد ﷺ مصداقاً لقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾؟

والجواب: أذكر بعضاً من جوانب رفعة ذكره ﷺ وعلو شأنه، ومن ذلك :

- أن الله ﷻ قد أخذ العهد له عليه الصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين، قال الله ﷻ: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾** [١] قال ابن كثير: (فالرسول محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً على يوم الدين هو الإمام الأعظم الذي إن وُجد في أي عصر لكان هو الواجب الطاعة المقدمعلى الأنبياء كلهم ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لمَا اجتمعوا ببيت المقدس) [٢] .

- إن الله ﷻ جعل النجاة من النار بقول شهادة التوحيد ولا تتحقق هذه الشهادة إلا بقولك: (أشهد ألا إله إلا الله، ثم لزاماً عليك أن تتبعها بقولك (أن محمداً رسول الله).

- إن الله ﷻ قرن اسم النبى ﷺ باسمه فلا يُذكر اسم الله ﷻ إلا واسم رسوله معه حين يؤذن المؤذن كل يوم خمس مرات .

- إن الله ﷻ قد أقسم بحياة رسوله ﷺ وهذا القسم بحياة الرسول ﷺ خاص بالله ﷻ فله تعالى أن يُقسم بمن شاء من خلقه وليس لأحد من خلقه أن يُقسم إلا به ﷻ، قال الله ﷻ مقسماً بحياة نبيه ﷺ **﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾**[٣] .

---

(١) سورة آل عمران / الآيتان ٨١-٨٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٦٨ .
(٣) سورة الحجر / الآية ٧٢ .

- جعل الله ﷻ طاعة رسوله واجبة وقرنها بطاعته ﷻ فى أكثر من موضع، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿**قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ**﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[2] .

- إن الله ﷻ قد نادى فى كتابه الكريم على جميع المرسلين بأسمائهم مجردة، فقال: ﴿**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾ [3]، وعلى نوح فقال: ﴿**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا**﴾[4]، وعلى خليله إبراهيم: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤)**﴾ [5] وعلى كليمه موسى: ﴿**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى(١٩)**﴾ [6]، وعلى زكريا بقوله: ﴿**يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ**﴾ [7].

وعلى يحيى فقال: ﴿**يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾[8]، وعلى داود فقال: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾[9] ولكنه ﷻ لما أراد أن ينادى على رسوله محمد ﷺ لم يناده باسمه مجرداً فلم يقل: "يا محمد"، بل ناداه بكل توقير وتقدير فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾[10] وقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ**﴾[11] وقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ(١)**﴾[12] وقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ(١)**﴾[13] .

- أضف إلى ذلك أن الله ﷻ لما أثنى على رسله بحسن الأخلاق ذكر كل رسول بصفة خلقية معينة امتدحه بها، فقد أثنى الله على خليله إبراهيم فقال: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥)**﴾[14]، وقال عن إسماعيل:

---

(١) سورة آل عمران / من الآية ٣٢ .
(٢) سورة النساء / من الآية ٥٩ .
(٣) سورة البقرة / من الآية ٣٥ .
(٤) سورة هود / من الآية ٤٨ .
(٥) سورة الصافات / من الآية ١٠٤ .
(٦) سورة طه / الآية ١٩ .
(٧) سورة مريم / من الآية ٧ .
(٨) سورة مريم / من الآية ١٢ .
(٩) سورة ص / من الآية ٢٦ .
(١٠) سورة المائدة / من الآية ٤١ .
(١١) سورة الأحزاب / من الآية ١ .
(١٢) سورة المزمل / الآية ١ .
(١٣) سورة المدثر / الآية ١ .
(١٤) سورة هود / من الآية ٧٥ .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥٤)﴾[١]، وقال عن موسى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥١)﴾[٢]، وقال عن أيوب ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرا﴾[٣]، وحين تحدث عن سيدنا محمد ﷺ بيَّن أنه حاز الكمالات كلها، فجمع له كل محاسن الأخلاق، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾[٤] .

المسألة الخامسة: لم جاءت العسر معرفة بأل، واليسر نكرة فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٦)﴾ ؟

والجواب: المتأمل فى الآيتين يجد أن كلمة العسر قد جاءت معرفة بأل (**الْعُسْرِ**)، بيد أن كلمة اليسر قد جاءت نكرة (**يُسْراً**) فما الحكمة من ذلك ؟

يرى أهل اللغة أن الكلمة المعرفة بأل إذا تكررت فى سياق واحد فهى تكرار والثانية هى عين الأولى كقولك: جاء الرجل، وأخبرنى الرجل، فيكون الرجل الأول هو عينه الرجل الثانى الذى تتحدث عنه لكن الأمر يختلف فى حال الاسم النكرة – أى غير المعرفة – فإن النكرة متى تكررت وأعيد ذكرها فى سياق واحد كانت مختلفة، وكان الثانى غير الأول، تقول: جاء رجل، وأخبرنى رجل، فرجل الثانية غير عين رجل الأولى، وإذا طبقنا هذا الكلام على الآية الكريمة فسنجد أن كلمة العسر معرفة مكررة فهى بمعنى واحد، أما كلمة اليسر فهى نكرة مكررة فهما يسران مختلفان، ومن هنا قالوا: (لن يغلب عسر واحد يسرين)، قال العلامة السعدى في تفسيره: (وتعريف "العسر" في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير "اليسر" يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين، وفي تعريفه بالألف واللام – الدالة على الاستغراق والعموم – ما يدل على أن

---

(١) سورة مريم / من الآية ٥٤ .
(٢) سورة مريم / من الآية ٥١ .
(٣) سورة ص / من الآية ٤٤ .
(٤) سورة القلم / من الآية ٤ .

كل عسر، وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ، فإنه في آخره التيسير ملازم له)[1] .

وهذا ما عبر عنه الشاعر بقوله :

إذا ضاقت بك الدنيا * ففكر فى (ألم نشــرح)**

فعسر بين يسريــن * متى تذكرهما تـــفرح**

وقد روى أن عمر بن الخطاب ﷺ لما بلغه أن أبا عبيدة بن الجراح ﷺ قد حاصره الروم وضيقوا عليه فى الشام، فكتب إليه يُصبره ويقرب إليه الفَرَج : (سلام عليك، أما بعد، فإنه ما ينزل بعبدٍ مؤمن من منزلة شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجًا، ولن يغلب عسر يسرين ...)[2].

وهذا درس لكل المكروبين ورسالة لجميع المظلومين بأن يسر الله حاضر وفَرَج الله قريب، ودوام العسر مع اليسر محال، فالصبر الصبر عباد الله على النوائب والمصائب، فلن يغلب عسر يسرين بإذن الله ﷻ.

المسألة السادسة:بم أمر الله ﷻ نبيه ﷺ في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾؟

والجواب: إن الله ﷻ قد أمر نبيه ﷺ فيهما بأمرين :

الأمر الأول: النصب بعد الفراغ : ومعلوم أن النصب بمعنى التعب، ومعنى الآية كما ذهب جمهور المفسرين على اختلاف فى العبارة: أن الله ﷻ أمر نبيه إذا فرغ من عبادة أن يبدأ فى عبادة أخرى، فإذا فرغ من صلاة الفرض قام إلى الدعاء والذكر، وإذا فرغ من الجهاد أسرع للعبادة، وهكذا فحاله بين التقلب من طاعة لطاعة ومن عبادة لأخرى، فلا وقت يُضيعه ولا فراغ لا يجد ما يشغله وقيل: (إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطاً فارغ

(١) تفسير السعدى ، ص ٩٢٩ .
(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (٤٤٦/٢)، والحاكم في المستدرك (٣٢٩/٢)، والبيهقي في الشعب (٢٠٥/٧) .

البال)[1]، ودنياه ﷺ كانت كلها فى مرضاة الله ﷻ وسعياً لقضاء مصالح الناس وتبليغهم الرسالة والقيام بمصالح بيته وأمته .

الأمر الثاني: ﴿**وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)**﴾ أي ارغب إلى ربك فى الدعاء والمسألة ولا تلجأ إلى غيره أو تطلب المدد والعون من سواه، واجعل كل عملك خالصاً لله ﷻ رغبة فيه وحده .

وفى قراءة (وإلى ربك فرغِّب) [2]: أى رغِّب الناس وحببهم فى الله ﷻ، طلباً لمرضاته وحرصاً على ثوابه وجنته.

ـــ

(١) تفسير القرآن العظيم ، ٤ /٦٤٢ .

(٢) مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازى، ٨/٣٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

﴿سورة الضحى﴾

وفيها تسع مسائل :

المسألة الأولى: ما الفرق بين ﴿وَدَّعَكَ﴾ وبين ﴿قَلَىٰ﴾ فى قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ(٣)﴾ ؟

والجواب: ودع الشئ أى تركه وأهمله، قال ابن منظور: (وسائر القُرّاء قرأوه" ودّعك" بالتشديد وقرأ عروة بن الزبير (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ) بالتخفيف والمعنى فيهما واحد أي ما تركك ربك) [١]، قال العلامة السعدى – رحمه الله –: (﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ**﴾أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة، ﴿**وَمَا قَلَىٰ**﴾ وما قلاك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده) [٢]، كما أن التوديع إنما يكون بين المتحابين، بيد أن القِلى فهو البغض والكره، ولا يكون إلا بين المتخاصمين المتباغضين.

المسألة الثانية: هنا سؤال له علاقة باللفظين: لم ذكر الله ﷻ ضمير المخاطب وهو (الكاف) مع ودع، فقال: ﴿وَدَّعَكَ﴾، ولم يذكره مع القِلى فلم يقل: (وما قلاك) بل قال: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؟

والجواب: هنا إشارة فى غاية الإبداع والإيناس لنبينا ﷺ وهو المخاطب فى الآية بضمير المخاطب (الكاف)، حيث ذكره الله ﷻ مع التوديع وهو لا يكون إلا بين المتحابين، فقال: ودعك، ولم يذكره بالضمير فى القِلى وهو لا يكون إلا بين المتخاصمين الكارهين، فنزه الله ﷻ رسوله ﷺ أن يُذكر حتى ولو بالضمير فى مثل هذا المقام فقال: ﴿**وَمَا قَلَىٰ**﴾، وفى ذلك معنى الإكرام لنبينا ﷺ فى الذكر، وفى الحذف أكرمه في الذكر ﴿**وَدَّعَكَ**﴾، وفي الحذف ﴿**وَمَا قَلَىٰ**﴾.

كما جاءت ﴿**وَمَا قَلَىٰ**﴾ من غير ضمير مراعاة لانسجام الفواصل بين الآيات، (الضُّحَى، سَجَى، ومَا قَلَى، فَتَرْضَى، فَآوَى، فَهَدَى، فَأَغْنَى) .

---

(١) لسان العرب ، ٨/٣٨٠ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٩٢٨ .

المسألة الثالثة: لم وجه الله تعالى كلامه لنبيه فى قوله: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الأُولَى(٤)﴾ ولم يأت الكلام عاماً للناس جميعاً ؟

والجواب: لأن هذا الكلام لا يصلح أن يكون عاماً لعموم الناس فليس كل الناس آخرتهم خير من دنياهم بل إن بعض الناس – عياذاً بالله – دنياهم خير لهم من أخراهم كالكفار والظلمة والمجرمين، لذا جاء الكلام خاصاً لنبينا ﷺ ولم يصلح أن يكون خطاباً عاماً لجميع الناس .

المسألة الرابعة: لِمَ لم يحدد العطاء من الله تعالىبل تُرِك مفتوحاً، فى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ ؟

والجواب: إن هذا عطاء ملك الملوك فلا يحده حد، ولا يعده عد، هو عطاء تُرِك مفتوحاً دلالة على كثرته وتنوعه وعدم القدرة على حصره ولا تخيله، هو عطاء ملك الملوك يأتى لعبده متنوعاً بين نِعم معارف ونِعم قرب ونِعم دنيا ونِعم نفس ونِعم دين ... ولا يقف على نعمه أحد .

المسألة الخامسة: ما دلالة قوله: ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ بدلاً من فتسعد أو تهنأ أو نحو ذلك ؟

والجواب: إن فى ذلك إشارة إلى أن أقصى غايات السعادة والعطاء أن يُرزق العبد الرضا، فالفقير مع الرضا غنىٌّ والغنىُّ مع السخط فقير، ولذا جعل الله ﷻ أقصى درجات سعادة المؤمنين فى الجنة الرضا بالله وعن الله، فقال ﷻ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[1]، وقال عن نفس المؤمن:﴿يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَة مَّرۡضِيَّة٢٨﴾[2]، ونحن فى حياتنا اليومية نجد أناساً أعطاهم الله ﷻ من كل أصناف الرزق لكنهم حُرِموا نعمة الرضا، فلم يشعروا بما هم فيه من نِعَم، وعاشوا حياة مِلؤها القلق والكمد، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) سورة البينة / من الآية ٨ .
(٢) سورة الفجر / الآيتان ٢٧ – ٢٨ .

المسألة السادسة: كثيراً ما يتوقف القارئ عند قوله ﷻ ممتناً على رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧)﴾ فما معنى ضالاً فى الآية ؟

والجواب: الضلال هنا لا يمكن أن نفهمه على أنه عكس الهداية، فالأنبياء من هذا الضلال معصومون، وإنما للضلال هنا معان كثيرة ذكرها المفسرون، ومنها :

- أنها بمعنى الغفلة كما قال القرطبى وغيره، والمعنى: **(أي غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك أي أرشدك)** [(١)].

- (وقال قوم: ﴿ **ضَالاًّ**﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك اللهﷻ إلى القرآن، وشرائع الإسلام وهو معنى قوله ﷻ: ﴿**مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ**﴾ [(٢)].

ومن أجمل ما قرأتُ فى هذا المعنى ما حكاه أبو حيان صاحب "البحر المحيط" من أنه نام متفكراً فى معنى هذه الآية فرأى فى منامه أنه يقرأ هذه الآية ويفكر فيها، فيقول فى منامه: ﴿**وَوَجَدَكَ**﴾ أي وجد رهطك، ﴿**ضَالاًّ**﴾ فهداه بك)[(٣)] فيكون وصف الضلال هنا ليس منسوباً للنبى ﷺ بل هو صفة لقومه أى وجد قومك على ضلال فهداهم بك، قلتُ: والله ما أجمله من تأويل وليس هذا بمستغرب، بل له أمثلة من القرآن الكريم نحو قوله ﷻ: ﴿**وَسئلِ ٱلقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كنَّا فِيهَا**﴾[(٤)] والمعنى – كما أجمع على ذلك أهل اللغة – أي اسأل أهل القرية.

- وقيل الضلال بمعنى الحب، وقد ورد هذا فى القرآن الكريم وذلك فى قوله ﷻ حكاية عن إخوة يوسف لما قالوا لأبيهم يعقوب – عليه السلام – : ﴿**قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلقَدِيمِ (٩٥)**﴾ [(٥)] أي ما زلت ثابتاً على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ٢٠/٩٦ .
(٢) سورة الشورى/ من الآية ٥٢ .
(٣) البحر المحيط ، ٨ / ٤٨١ .
(٤) سورة يوسف/ من الآية ٨٢ .
(٥) سورة يوسف/ من الآية ٩٥ .

حبك القديم ليوسف، وعلى هذا يكون المعنى فى حق النبى ﷺ ووجدك محباً للهداية فهداك إليها، وهذا المعنى يليق بمقام النبى ﷺ وهو عكس ما يظنه البعض من أن الضلال بمعنى البعد عن الهداية.

- ومن أكمل المعانى فى هذا الشأن ما ساقه القرطبى – رحمه الله – حين قال: (وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالة فيُهتدي بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَآلا**﴾ أي لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديتُ بك الخلق إليّ) (١)، أى كما يهتدى المسافرون فى الصحراء بالشجرة الضالة أى الوحيدة المنفردة على الطريق الصحيح .

المسألة السابعة: لم جاء ترتيب الآيات على هذا النحو:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨)﴾ ؟

والجواب: إن المتأمل فى هذا الترتيب يجده متناسباً مع متطلبات حياة مراحل نمو الإنسان، فعندما يكون صغيراً قد يفقد أباه فيصير يتيماً محتاجاً ليد العناية والرعاية، وعندما يشب عن الطوق ويبلغ سن التكليف تظهر حاجته إلى الهداية والاسترشاد على طريق الحق، ثم يتخطى مرحلة البلوغ ليدخل فى مرحلة الشباب التى يكون فيها السعى على الرزق وطلب المعاش وفيها تكون حاجة المرء للمال والغنى ، فجاءت الآيات متناسقة مع هذه الحاجات البشرية .

المسألة الثامنة: لم جعلت الآية مع اليتيم القهر، ومع السائل النهر، فقال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠)﴾ ؟

الجواب: لا بد أولاً من معرفة معنى القهر ومعنى النهر، فالقهر في اللغة هو: التسلط بما يؤذي، ولا تقهره بمعنى لا تظلمه بتضييع حقه، ولا تتسلط عليه، أو لا تحتقره أو تغلب على ماله، كل هذه المعاني تدخل تحت كلمة القهر.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩٨- ٩٩ .

وأما النهر فهو: الزجر والغلظة فى القول، وكلا الفعلين مناسب مع حال المفعول به، فحالة اليتيم وهو الطفل الصغير غير البالغ الذى لا أب له تجعله عرضة لاجتراء الناس عليه بالقهر والتسلط لعلمهم بعجزه عن الدفاع عن نفسه وعدم وجود ولى أمره الذى يذود عنه ويدفع عنه القهر والعدوان، أما السائل الذى يستجدى الناس فى الطرقات فهو أحوج ما يكون لإحسانهم وطيب لقياهم والعطف عليه مادياً ومعنوياً فناسبت حالته النهى عن نهره وطرده والإغلاظ معه، ويدخل تحت السائل "طالب العلم" مع معلمه فهو أحوج إلى لين شيخه معه، وعدم الشدة عليه أو الإغلاظ له بالقول، فإن ذلك من آداب العالم مع المتعلم .

قال الثعلبى: (وقرأ النخعي والشعبي: فلا تكهر، بالكاف، وكذلك هو في مصحف عبد الله، والعرب تعاقب بين القاف والكاف، يدل عليه حديث معاوية بن الحكم الذي تكلّم في الصلاة، قال: ما كهرني، ولا ضربني)[1]، وفى قول الثعلبى: (وكذلك هو في مصحف عبد الله) أي عبد الله بن مسعود فقد وردت هذه القراءة فى مصحفه، والكهر هو العبوس فى الوجه، وفلان ذو كهرورة عابس الوجه، وفى الآية دعوة إلى الإحسان بالقول والفعل وذلك حال المسلم مع الضعفاء والمحتاجين .... والله أعلى وأعلم .

المسألة التاسعة: ما التوجيه الذى يدلنا عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ (١١)﴾؟

والجواب: النعمة هى كل خير يصيب الإنسان فى دينه ودنياه، ونعمة ربك لفظ عام شامل لكل نعم الله ﷻ على عبده فى دينه ودنياه، قال ابن عاشور: (وليس المراد بنعمة ربك نعمة خاصة وإنما أريد الجنس فيفيد عموماً في المقام الخطابي، أي حدث ما أنعم الله به عليك من النعم) [2]، وهذه الآية فيها أمر من الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يتحدث بنعمة الله ﷻ عليه

(١) الكشف والبيان، أحمد بن محمد الثعلبى النيسابورى، ١٠/ ٢٢٩ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٥٦/٣٠

كالنبوة والقرآن والدعوة إلى الإسلام والإيمان بنبوته، فقد كان يخاطب الناس ويعلمهم الإسلام فيقول لمن يخاطبه: أن تشهد أن لا اله إلا الله وأني رسول الله كذلك تعريفه الناس بحقه عليهم من الطاعة والتوقير والاحترام، حتى نزلت الآيات مبينة لحقه على أمته – كما فى سورة الأحزاب والحجرات وغيرهما، فتكون الآية الكريمة إرشاداً للعبد المسلم أن يتحدث بنعم الله ﷻ عليه فى دينه ودنياه ، فكيف يفعل العبد ذلك ؟

اختلف العلماء فى هذه المسألة خاصة مع ضعف إيمان كثير من الناس وعدم أمنهم من دبيب الرياء والفخر وظن الناس بهم مظنة الغرور والترفع عليهم بالحديث عن نِعم الله ﷻ عليهم، فذهب بعض السلف إلى أن التحدث بالنعمة تكون للثقة من الإخوان ممن يثق به، ونقل الطاهر بن عاشور عن ابنالعربي المالكى – رحمه الله – قوله: (إن التحدث بالعمل يكون بإخلاص من النية عند أهل الثقة فإنه ربما خرج إلى الرياء وإساءة الظن بصاحبه) [(١)]، وذكر الفخر والقرطبيوابن عاشور وغيرهمعن الحسن بن علي قوله: "إذا أصبت خيراً أو عملت خيراً فحدِّث به الثقة من إخوانك" قال الفخر: (إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء وظن أن غيره يقتدي به) [(٢)]، أما فى أمور الدنيا فمن الحديث بالنعمة إظهارها بالملبس والمركب قال النبى ﷺ: "إن الله يحب أن يرى أثرنعمته على عبده) [(٣)]، فيظهرها العبد بلبس الجديد من الثياب، النقى من غير فخر ولا بطر، ولا يكون من مكافأة نعمة الله ﷻ على العبد المسلم أن يُخالط الناس بالثوب القذر والهيئة المنفرة، وكذا فى اتخاذ مركبة صالحة له تيسر له سبيل الانتقال إلى مطالب العلم ومواطن الرزق فيكون ذلك من باب التحدث بنعمة الله ﷻ على العبد وإظهارها، بيد أننا نجد فى هذا الزمان بعضاً من

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦ / ٣٨١ .
(٢) مفاتيح الغيب ، ١ / ٤٧٧٨ .
(٣) الجامع الصحيح سنن الترمذى، محمد بن عيسى الترمذى، ١٢٣/٥، ورقمه ٢٨١٩، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

الناس ممن تملكتهم وساوس الشيطان وسيطرت على نفوسهم مخاوف الحسد وضياع النعمة منهم بكلام الناس فأخفوها وبالغوا فى كتمان نعم الله عليهم، فلا تلقاه إلا عابس الوجه مهموماً يسبقك بالشكوى قبل أن تسأله عن حاله، مظهراً ما به من بلايا ساتراً ما ينعم فيه من نِعمٍ وعطايا ، فهو إلى جحود نِعم سيده عليه أقرب من شكرها، ومن الكذب على الناس ألصق من الصدق معهم ولا يزال هكذا حاله حتى يفضح الله أمره ويكشف ستره فيعلم الناس حقيقته فيستوحشونه وينفضون عنه، وايم الله أن هذا ليس من خلق المسلم الواثق بربه الشاكر لمولاه .

﴿سورة الليل﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى فى أول السورة ؟ وعلام أقسم ؟

والجواب: من المعلوم أن أسلوب القسم يتكون من أربعة أركان وهى: الأول أداة القسم، والثانى المقسِم، الثالث المقسَم به، الرابع المقسَم عليه فأما الأداة فهى الواو وهى حرف القسم وأداته، وأما المقسِم فهو الله ﷻ، وأما المقسَم به فهو ثلاثة أشياء: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١)**﴾ أى عمَّ ظلامه الخلائق، ﴿**وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ(٢)**﴾ أى ظهر نوره للخلق فاستضاءوا به وانتشروا في مصالحهم ﴿**وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ(٣)**﴾: هنا معنيان: إذا كانت ﴿**مَا**﴾ موصولة كان هذا قسم من الله ﷻ بنفسه الكريمة ، فهو يقسم بنفسه القادرة الحكيمة والموصوفة بأنه خالق الذكور والإناث، وإن كانت ﴿**مَا**﴾ مصدرية كان قسماً من الله ﷻ بخلقه وللذكر والأنثى (وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكرًا وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلاً منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلاً منهما مناسبًا للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين)[1].

يتبقى لنا الركن الرابع وهو المقَّسم عليه وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ(٤)**﴾ فقد أقسم الله ﷻ بالليل والنهار وقدرته بخلق الذكر والأنثى على أن عمل العاملين وسعى المكلَّفين مختلف باختلاف نياتهم وإيمانهم وقربهم أو بعدهم من منهج الله ﷻ وهدى رسوله ﷺ.

ولذا جاء التقسيم بعد ذلك فى هذه السورة المباركة بين فريقين: ﴿**فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥)**﴾، و﴿**وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨)**﴾.

المسألة الثانية: ما دلالة قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ(٧)﴾ و﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ(١٠)﴾ على قضية هل الإنسان مسير أم مخير ؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٩٢٦ .

والجواب: لا بد أولاً أن نعلم أن معنى اليسرى كل معانى الخير وقيل الثواب وقيل الجنة،والعسرى عكس ذلك، وأما تيسير الله ﷻ العبد لليسرى وكذا تيسيره للعسرى فلها علاقة بمعنى اليسرى ومعنى العسرى، فمن رأى أن اليسرى هى الجنة فيكون تيسير الله ﷻ العبد لليسرى بأن يدخله الجنة بسهولة ويسر وإكرام، وأما من فسر اليسرى بأعمال الخير فالتيسير لها هو تسهيلها على المؤمن فلا يعتريه كسل ولا رياء، وكذا يمكن القول فى تيسير العسرى للعبد الكافر الذى اختار طريق العصيان فأوكله الله تعالى لنفسه وتركه لشيطانه فجعل المعصية أرجح وأحب وأيسر إليه من الطاعة. وليس فى هذا دليل على إجبار الله ﷻ للعبد، بل إن الله ﷻ قد بين فى هذه السورة أن العبد التقى أعطى واتقى وصدق وأقبل على الله ﷻ بكل جوارحه فلما علم الله ﷻ منه الإقبال عليه أعانه ويسر له أسباب الطاعة وأعانه عليها ثم تقبلها منه – بلطفه وكرمه – وأثابه عليها الرضا والجنة ، والعكس صحيح فالعبد الشقى أعرض عن الطريق وتنكب السبيل وأخلد إلى الأرض واتبع هواه فلما علم الله ﷻ منه هذا الصدود وذلك الإعراض أوكله إلى نفسه ونزع عنه توفيقه فكانت أسباب المعصية وطريق النار أيسر إلى قلبه وأحب إلى نفسه من جهاد الهوى والتزام طريق الهدى وقد قالﷻ: ﴿**وَلَا يَحِيقُ ٱلمكرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهلِهِ**﴾[1].

المسألة الثالثة: دار خلاف بين علماء السنة وبين جهال الرافضة (الشيعة) حول قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلأَتقَى(١٧) ٱلَّذِي يُؤتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨)﴾ ... فما سبب هذا الخلاف ؟

الجواب: أجمع المفسرون على أن هذه الآية الكريمة قد نزلت فى أبى بكر الصديق ﷺ وخالفهم فى ذلك الروافض الشيعة، حيث قالوا: إنها نزلت فى على بن أبى طالب ﷺ فما الأرجح من القولين ؟

الراجح عند أهل العلم أنها فى أبى بكر ويستدلون على ذلك بدليل عقلى لطيف ألا وهو: أن الله ﷻ حدد الأفضلية عنده بالتقوى، فقال: ﴿إِنَّ

(١) سورة فاطر / من الآية ٤٣ .

﴿أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1]، وهنا وصفت الآية المذكور بأنه الأتقى أى أتقى الناس – بعد الأنبياء– ومن ثم يكون هذا الموصوف هو خير الأمة بعد نبيها ﷺ وهو ما عليه إجماع الأمة بأن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هو أبو بكر الصديق، لكن هنا يعترض الروافض فيقولون بل إن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هو على بن أبى طالب ، وبالتالى لا بد من الرجوع إلى الآية التى بعدها حتى تفصل فى هذا الخلاف وتحدد مَن المقصود هل هو أبو بكر أم على ؟

فلو نظرنا إلى الآية التى بعدها لوجدناها تصف هذا التقى المذكور فى الآية بأنه **﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ(١٩) إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ(٢٠)﴾** فهذا الوصف الذى تحدثت عنه الآيتان ينطبق على أى من الصحابيين الكريمين ؟

هو – بلا شك – لا ينطبق إلا على أبى بكر الصديق وحده من دون الخلق أجمعين، فما لأحد من الناس فضل على أبى بكر، بل لأبى بكر الفضل على الناس جميعاً حتى رسول الله ﷺ لم يكن له على أبى بكر فضل دنيوى بل فضل دينى، وكان لأبى بكر فضل السبق إليه وإنفاق ماله عليه والهجرة معه، ولكن لرسول الله ﷺ الفضل على الناس جميعاً بأن هداهم الله ﷻ إلى الدين به .

أما على بن أبى طالب فكان فضل النبى ﷺ عليه دنيوياً ودينياً، حيث كان النبى ﷺ يربيه فى حجره صغيراً وينفق عليه من ماله ويكسوه ويطعمه من طعامه، وكان الرسول منعماً عليه نعمة دنيوية يجب جزاؤها فلا يصلح أن ينطبق عليه وصف هاتين الآيتين .

ولذا أجمعت الأمة المسلمة أن أفضلها بعد نبيها هو أبو بكر الصديق، إذ له الفضل على الناس جميعاً، بإنفاق ماله على النبى ﷺ، والذود عنه، والسبق فى الإسلام إليه حتى كان أول من أسلم من الرجال، فرضى الله

---

(١) سورة الحجرات / من الآية ١٣ .

تعالى عنه وأرضاه، بيد أن بغض الشيعة لأبى بكر وعمر وتكفيرهم للأصحاب الرسول ﷺ هو الذى دفعهم إلى رد الآية ودفع فضلها عن أبى بكر الصديق وقد خابوا وخسروا .

قال الصابونى: (ونحن مع حبنا لعلى وتكريمنا له، نقول: لا يمكن حمل هذه الآية على على رضي الله عنه لأن الله تعالى ذكر في وصف هذا الأتقى وصفا لا ينطبق عليه، وهو قوله: (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعمَة تُجزَىٰٓ) أى ليس لأحد عليه نعمة حتى يكافئه عليها، وعلى كان في تربية النبي ﷺ لأنه أخذه من أبيه، وكان يطعمه ويسقيه ويكسوه ويربيه، وكان ﷺ منعما عليه نعمة يجب عليه شكرها والجزاء عنها، أما أبو بكر رضي الله عنه فلم يكن للنبي ﷺ عليه نعمة دنيوية، بل كان أبو بكر ينفق على الرسول ﷺ، فثبت أن الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا في على رضي الله عنه، وأن (أبا بكر) هو الذي اشترى بلالا وأعتقه، لا على رضي الله عنهما جميعا، ورزقنا شفاعتهما ومحبتهما، فكل الصحابة عظماء أجلاء، ولا يجوز أن نغمط أحداً فضله ولكن الحق أحق أن يقال ويتبع !) .

ثم إن سبب نزول الآية يبين أنها نزلت فى أبى بكر حين عاتبه أبوه على أنه ينفق ماله فى عتق العبيد والجوارى من الضعفاء الذين أسلموا فعذبهم المشركون، وقال له: "لو اشتريت بهذا المال رجالاً أشداء يدافعون عنك ويحمون ظهرك"، فرد عليه الصديق بقوله: "ما منع ظهرى أريد وما أريد إلا وجه الله تعالى" فنزلت الآية، وقال الفخر الرازى والقرطبى وابن كثير وغيرهم: (أن بلالاً كان (عبداً) لعبد الله بن جدعان فسلح على الأصنام فشكا إليه المشركون فعله فوهبه لهم ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول: "أحد. أحد"، فمر به رسول الله ﷺ وقال له:"ينجيك أحد أحد"، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر أن بلالاً يُعذب في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاعه به، فقال المشركون: "ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليدٍ كانت لبلال عنده"، فنزل ﴿**وَمَا**

لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعمَة تُجزَىٰٓ(١٩) إِلَّا ٱبتِغَآءَ وَجهِ رَبِّهِ ٱلأَعلَىٰ (٢٠)﴾، وقال ابن الزبير وهو على المنبر: " كان أبو بكر يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: "يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك"، فقال: "ما منع ظهري أريد" فنزلت هذه الآية).

وإنا نُشهد الله ﷻ أنا نحب أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسائر الصحب الكرام والتابعين الأعلام ونسأل الله ﷻ أن ينفعنا بهذا الحب يوم اللقاء، ونُشهد الله ﷻ أنا نكره من يكرههم ونعادى من يعاديهم .

لطيفة تحسن الإشارة إليها :

ورد ذكر أبى بكر الصديق رضي الله عنه فى سورة الليل فى ثلاثة عشر موضعاً حاولت حصرها فيما يلى: بضمير الغائب وتقديره "هو" فى قوله تعالى: **﴿فَأَمَّا مَن أَعطَىٰ﴾**، ثم بالضمير نفسه فى **﴿وَٱتَّقَىٰ﴾**، وكذا فى قوله: **﴿وَصَدَّقَ﴾**، ثم بالضمير المتصل بالفعل فى محل نصب مفعول به **﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِليُسرَىٰ(٧)﴾**، ثم بالضمير المستتر تقديره "هو" فى محل رفع فاعل وذلك فى قوله: **﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾**، ثم بالاسم الظاهر **﴿ٱلأَتقَى﴾**،وبضمير الفاعل المستتر وتقديره " هو" فى قوله تعالى: **﴿يُؤتِي﴾**، ثم أُشير إليه بالضمير المتصل بالاسم فى قوله: **﴿مَالَهُۥ﴾** وبالضمير المستتر وتقديره (هو) والذى هو ضمير مبنى فى محل رفع فاعل وذلك فى الفعل **﴿يَتَزَكَّىٰ﴾**، ثم بالضمير المتصل بالظرف فى كلمة **﴿عِندَهُۥ﴾**، ثم بالضمير المضاف إلى كلمة "رب" فى قوله: **﴿رَبِّهِ﴾**، وأخيراً بالضمير المستتر المبنى فى محل رفع فاعل **﴿يَرضَىٰ﴾**.... والله أعلى وأعلم .

مع التنبيه على أن هذه الآيات وإن كانت قد تحدثت على أبى بكر الصديق – رضى – لكنها صالحة للتطبيق على كل من اتصف بصفاته وتخلق بأخلاقه وسار على دربه، فإن العبرة كما قال أهل التفسير بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. والله أعلم .

﴿سورة الشمس﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى ؟ وعلام أقسم ؟

الجواب: إن الله ﷻ أقسمفى هذه السورة بأشياء، وهى :

- **﴿وَٱلشَّمسِ وَضُحَيهَا﴾**: والضحى هو ارتفاع الشمس من أول النهار .
- **﴿وَٱلقَمَرِ إِذَا تَلَيهَا﴾**: أى القمر إذا تبع الشمس فى المنازل والنور .
- **﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّيٰهَا﴾**: أى النهار إذا انتشر ضوؤه فعم الأرض وكشف ما فيها .
- **﴿وَٱلَّيلِ إِذَا يَغشَىٰهَا﴾**: أى الليل إذا غطى ظلامه وجه الأرض .
- **﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾**: إذا كانت ما موصولة كان الله تعالى يقسم بنفسه فهو بانى السماء ، وإذا كانت ما موصولة فالقسم بالسماء وإحكامها وإتقان بُنيانها .
- **﴿وَٱلأَرضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾**: أى الأرض وامتدادها واتساعها لتشمل كل الخلائق وتجرى فيها كل المنافع.
- **﴿وَنَفس وَمَا سَوَّىٰهَا﴾**: أى النفوس التى أودعت فى الخلائق – عاقلة وغير عاقلة – وفيها سر حياتهم.

قال الصابونى: (قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء (الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية) إظهارا لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارة إلي كثرة مصالح تلك الأشياء وعظم نفعها، وأنها لابد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها)[(١)].

أما المُقسَم عليه فهو قوله تعالى: **﴿قَد أَفلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (٩) وَقَد خَابَ مَن دَسَّىٰهَا(١٠)﴾** فالله ﷻ يقسم على فلاح من طهر نفسه من دنس المعاصى

---

(١) صفوة التفاسير ٤٩٣/٣ .

وأخلصها لله ﷻ، وعلى خيبة وخسارة من حقر نفسه بالكفر والمعاصي وأوردها موارد الهلكة، وأصل التدسية الإخفاء والمعنى خاب من أخفى نفسه بالمعاصى ... عياذاً بك اللهم .

وذهب بعض المفسرين إلى أن جواب القسم محذوف، قال ابن عجيبة: (وجواب القسم محذوف، والتقدير: ليهلكنّ الله مَن كفر من قريش ويُدمدم عليهم كما دمدم على ثمود) [(١)] .

المسألة الثانية: ما الدرس العقائدى المستفاد من قوله ﷻ: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا (٨)﴾؟

والجواب: إن هذه الآية الكريمة من بين أدلة أهل السنة والجماعة على أن الإنسان مخير وليس مسيراً؛ أى أن الله ﷻ أعطاه حرية اختيار طريقه: إما طريق التقوى، أوطريق الفجور، ولم يجبره الله ﷻ على طريق معين ويدفعه فيه وإلا كان الإنسان مسيراً مجبراً، وفى ذلك ظلم لأصحاب النار إذ إنهم – على هذا المعتقد الفاسد – مسلوبو الإرادة، وفى ذلك اتهام لمقام الله ﷻ بالظلم، والظلم نقص، والله ﷻ منزه عن كل نقيصة .

فالآية دليل على أن الله ﷻ أوضح الطريقين لعباده، بإنزال الكتب وإرسال الرسل ومنحهم العقل الذى يعرفون به ما فيه صلاحهم وفسادهم، قال ابن عجيبة – رحمه الله –: (﴿**فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا** (٨)﴾ أي: ألهمها طاعتها ومعصيتها ، وأفهمها قبح المعصية وحسن الطاعة ، أو عَرّفها طرق الفجور والتقوى، وجعل لها قوة يصح معها اكتساب أحد الأمرين، ويحتمل أن تكون الواو بمعنى "أو" كقوله: ﴿**إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)**﴾[(٢)]، أي: ألهم مَن أراد شقاوتها فجورها فسعت إليه، وألهم مَن أراد سعادتها تقواها، فسعت إليه) [(٣)].

---

(١) البحر المديد ٨ /٤٧٥ .
(٢) سورة الإنسان / الآية ٣ .
(٣) البحر المديد ٤٧٥/٨ .

المسألة الثالثة: ما المثال الذى ضربه الله تعالى فى هذه السورة لمن خاب وخسر نفسه ؟

والجواب: إنه مثل (ثمود) قوم صالح- عليه السلام – التى كذبت رسول الله وحادت عن طريقه ﴿**بِطَغْوَىٰهَا**﴾ أى بسبب طغيانها واعتدادها بقوتها وغناها، فاتفقوا على قتل الناقة وهى آية الله ﷻ إليهم، وأسرع لهذا الفعل الدنئ ﴿**أَشْقَىٰهَا**﴾ وهو أشقى القوم وأشدهم إجراماً، قال المفسرون: هو قُدار بن سالف قام إلى الناقة فعقرها، ولم يعتبروا بنصيحة رسولهم صالح – عليه السلام – لما قال لهم: ﴿**نَاقَةَ ٱللَّهِ**﴾ وقد جاءت ناقة منصوبة على أنها مفعول به لفعل محذوف والتقدير: اتركوا ناقة الله، قال الزجاج: (منصوب على معنى: ذروا ناقة الله) [(١)] ﴿**وَسُقْيَٰهَا**﴾ شربها، أي: ذروا ناقة الله وذروا شربها من الماء فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، لكنهم كذبوه وخالفوا أمره وعقروا الناقة، فماذا كان الجزاء ؟

قال الله تعالى: ﴿**فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا(١٤)**﴾ أى أنزل عليهم العذاب، قال البيضاوى: (فأطبق عليهم العذاب وهو من قبيل قولهم: "ناقة مدمومة" إذا ألبسها الشحم، ﴿**بِذَنۢبِهِمۡ**﴾ أى بسببه، ﴿**فَسَوَّىٰهَا**﴾ أى: فسوى الدمدمة بينهم أو عليهم فلم يفلت منهم صغير ولا كبير) [(٢)]، (قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها) [(٣)]، وقيل لها معنى آخر وهو من التسوية أى سوى الله بهم الأرض .

المسألة الرابعة: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا (١٥)﴾ ؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى المقصود بالآية، فقال بعضهم هو الله ﷻ، وقال بعضهم: بل هو صالح – عليه السلام – وقال آخرون:

---

(١) تفسير البغوى ٨ / ٤٤٠ .
(٢) تفسير البيضاوى ٥ /٤٩٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤١٤/٨ .

بل هو أشقى ثمود عاقر الناقة، وعلى هذا ستتعدد المعانى مع تعدد الفاعل، فإن كان المقصود هو الله ﷻ فالمعنى أن الله ﷻ دمر ثمود وسوى بهم الأرض وهو فعل الملك الجبار المتصرف فى خلقه بما يشاء ولا يخاف ﷻ شيئاً من عواقب فعله فهو ﷻ ﴿**لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ (٢٣)**﴾[١]، وإذا كان المقصود هو صالح – عليه السلام – فيكون المعنى (ولا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذي ينزل بهم وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه لو حاول محاول أن يؤذيه لأجل ذلك)[٢] أما إن كان المقصود هو عاقر الناقة فالمعنى أنه أقدم على فعلته الشنعاء وجريمته النكراء دون مبالاة بوعيد صالح لهم ولا اكتراث بعاقبة هذا الفعل .

---

(١) سورة الأنبياء / الآية ٢٣ .
(٢) مفاتيح الغيب ، ٣١ / ١٧٨ .

﴿سورة البلد﴾

وفيها سبع مسائل:

المسألة الأولى: ما معنى النفى "بلا" فى قوله تعالى : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ(١)﴾ ؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى معنى "لا" فى هذا القسم، وقد أحسن القرطبى حين جمع أقوال أهل العلم فيها، فذكر منها :

إنها زائدة – وهو قول الأخفش وغيره – والمعنى: أقسم بهذا البلد، وهو قول مردود عليه من أغلب أهل اللغة ، قال القرطبى: (فكيف يجحد القسم به وقد أقسم به)[1].

وقيل هى ليست للنفى وإنما هى بمعنى الإثبات، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة الحسن والأعمش وابن كثير " لأقسم "من غير ألف بعد اللام إثباتاً، قال الشنقيطى: (يشهد لهذا الوجه قراءة قنبل: "لأقسم بهذا البلد" بلام الابتداء وهو مروي عن البزي والحسن)[2] ، وأجاز الأخفش أيضاً أن تكون بمعنى " ألا "، وقيل بل هى بمعنى النفى الصريح والمراد: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه، أى لا أقسم بهذا البلد بعد خروجك منه، كما قيل إن " لا " ليست متعلقة بنفى القسم فى أول السورة، بل لها ارتباط بكلام سابق فهى رد لكلام المشركين ثم جاء القسم من الله ﷻ، وهذا اختيار ابن العربي، لأنه قال: (وأما من قال إنها رد، فهو قول ليس له رد، لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد، فهو رد لكلام من أنكر البعث ثم ابتدأ القسم) [3]، فالنفى هنا رد لما توهمهالإنسان المغرور بالدنيا، من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ابتدأ القسم .

المسألة الثانية: ماالبلد المُقسَم بها وما معنى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ(٢)﴾؟

والجواب: أجمع المفسرون على أن البلد المذكورة هنا هى مكة المكرمة، وقد أقسم الله ﷻ بها لشرفها وعظيم مكانتها، وهو ما يتفق مع

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٥٩ .
(٢) أضواء البيان ، ٨ / ٣٧١ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٥٩ .

قوله تعالى: ﴿وَوَالِد وَمَا وَلَدَ(٣)﴾، وهو قسم كما يرى كثير من المفسرين بآدم أبى البشر وذريته من بعده، فيكون الله ﷻ قد أقسم بأم القرى وأصلها وأصل البشر وأبيهم. ثم خاطب الله ﷻ رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ(٢)﴾، وفى معنى الآية أقوال:

الأول: أى أن الله ﷻ حرَّم مكة وجعلها حرماً آمناً، ولم يُحلها إلا لنبيه ﷺ حيث أحلها الله ﷻ لنبيه فى فتح مكة ساعة من نهار، قال المفسرون: (وَأَنْتَ – يا محمّد – حِلٌّ – حلال– بِهَذَا الْبَلَدِ (تصنع ما تريد من القتل والأسر، وذلك أنّ الله ﷻ أحلّ لنبيّه ﷺ مكّة يوم الفتح حتّى قاتل وقتل، وأحلّ ما شاء وحرم ما شاء، وقتل ابن خطل وهو متعلّق بأستار الكعبة، ومقيّس بن صبابة وغيرهما ثمّ قال: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) فأحلّ دم ابن خطل وأصحابه وحرّم دار أبي سفيان، ثمّ قال ﷺ: (إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحلّ لأحد قبلي ولا يحلّ لأحد بعدي، ولم يحلّ لي إلاّ ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها ولا نختلي خلالها ولا نفر صيدها ولا يحلّ لقطتها إلاّ المنشد) [١].

الثانى: إن هذه الآية تتحدث عن أهل مكة الذين استحلوا حرمة الرسول ﷺ واعتدوا عليه وعلى أصحابه فى هذا البلد الحرام، قال الزمخشرى: (إن مثلك على عظم حرمتك يُستحَل بهذا البلد الحرام كما يُستحَل الصيد في غير الحرم، عن شرحبيل: "يحرّمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك" وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته)[٢]

أما الثالث: فيرى أن معنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ من حلَّ بالمكان أى نزل فيه، وكأنها بشارة للرسول ﷺ بأنه سيرجع لمكة ويفتحها، وينزل بها عزيزاً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٥٩ .
(٢) الكشاف ٤ /٧٥٧ .

منتصراً، بعد أن أخرجه قومه منها، ونظيره قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ**﴾ [1]، ويكون المعنى عندئذٍ نقسم بهذا البلد حال كونك مقيماً ومستقراً فيه .

المسالة الثالثة: ما علاقة القسم بالبلد ، بقوله تعالى:﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ(٢)﴾؟

والجواب: أن الله ﷻ لما عظَّم مكة وبين حرمتها بالقسم بها زادها إعظاماً ببيان أنها بلد أشرف الناس وسيد ولد آدم، وذلك أن شرف المكان بشرف السكان، قال البقاعى: (فقد وقع القسم بسيد البلاد وسيد العباد) [2].

المسألة الرابعة: كيف خُلِق الإنسان فى كبد ؟

الجواب: الكَبَد هو المشقة العنت والنَّصب، (قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وعن ابن عبّاس: في شدّة خلق حمله وولادته ورضاعه وفصاله ومعاشه وحياته وموته) [3]، ومن أجمل ما قرأت من أقوال المفسرين فى بيان حالة الكبد والمشقة التى هى مرتبطة بالإنسان منذ خلقته إلى بعد موته وحسابه ما قاله بعض العلماء: (إن أوّل ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قمط قماطاً وشدّ رباطاً يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع ولو فاته ضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، ثم يكابد الفطام الذي هو أشدّ من اللطام، ثم يكابد الختان والأوجاع، ثم المعلم وصولته،والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج، وشغل الأولاد والخدم وشغل المسكن والجيران، ثم الكبر والهرم، وضعف الرُّكَب والقَدَم، في مصائب يكثر تعدادها من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وهمّ الدَّين، ووجع السنّ، وألم الأذن، ويكابد محناً في المال والنفس من الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدّة، ثم يكابد بعد

---

(١) سورة القصص / من الآية ٨٥ .
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٢٦/٨.
(٣) الكشف والبيان ١٠ / ٢٠٧.

ذلك مشقة الموت، ثم بعده سؤال الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقرّ به القرار: إما في الجنة، وإما في النار)[1] وفى ذلك دليل قدرة الله ﷻ وعظمته ، وافتقار جميع الخلق إليه مهما علا شأنهم وكثرت أموالهم .

المسألة الخامسة: ما المراد بالنجدين، فى قوله تعالى :﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ(١٠)﴾؟

والجواب: قال بعض أهل العلم: إن النجدين هما الطريقان أى طريق الخير وطريق الشر، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(٣)**﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ**﴾ [3] .

وقال بعض أهل العلم: إن النجد فى اللغة هو المكان البارز المرتفع ومنه سُميت نجد لارتفاعها، (قال قطرب: والنجد هو الطريق المرتفع فأرض نجد هي المرتفعة، وأرض تهامة هي المنخفضة) [4] فالنجدان هما الثديان لأنهما بارزان مرتفعان فى صدر المرأة، ولما كان الله ﷻ فى الآيات قبلها يمتن على عباده بتسوية خلقتهم وحسنها وجعل العينين واللسان والشفتين لهم، كان الحديث فى هذه الآية عن المولود أول ما يولد فيهديه الله ﷻ لثدى أمه دون تعليم من أحد له فيلتقمه ليأخذ منه غذاءه، وهى منة من الله ﷻ على خلقه كافة .

المسألة السادسة: فى قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ(١١)﴾ ما المراد بالعقبة ؟ وكيف يقتحمها الإنسان ؟

الجواب: العقبة هى عقبة كئود صعبة تحول بين الإنسان والجنة، وقيل هو مثل ضربه الله ﷻ لمجاهدة الإنسان لنفسه ودفعها فى أعمال البر والبعد عن الشهوات وعلى الإنسان أن يقتحمها ليعبر منها إلى الجنة.

---

(١) السراج المنير ٤ /٣٩٣ .
(٢) سورة الإنسان / الآية ٣ .
(٣) سورة فصلت / من الآية ١٧ .
(٤) النكت والعيون ٦ / ٢٧٨ .

أما عن كيفية عبورها واقتحامها :

فقد بيَّن الله ﷻ أن اقتحامها إنما يكون بخمسة أمور :

الأول: ﴿**فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣)**﴾ أى عتق الرقاب أى تحرير الرقيق والإماء وقد صار هذا اليوم منعدماً ويحتمل أن يكون المراد أن يعتق الإنسان رقبته من النار بفعل الطاعات وترك المنكرات، وبه قال جمع من المفسرين .

الثانى: ﴿**أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)**﴾، وهى وصية من الله ﷻ لمن أراد أن يقتحم العقبة ليصل إلى الجنة، فعليه بإطعام الطعام وهو من أعظم الأعمال فى رمضان أو فى غير رمضان، وهذا الإطعام إنما يزيد ثوابه ويعظم أجره إذا كان ﴿**فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**﴾ والمسغبة هى المجاعة وشدة الجوع إما لغلاء أو لقحط، وفي هذا اليوم تكون حاجة الناس إلى الطعام أكبر والبذل به حال وجوده أشق على النفس وأصعب، ونظيره قوله تعالى: ﴿**وَيُطعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسكِينا وَيَتِيما وَأَسِيرًا (٨)**﴾[١]، فالطعام قليل واليوم يوم مجاعة وشدة، ثم الإطعام يكون ليتيم فقد أباه وولى أمره، وهو يتيم قريب ﴿**ذَا مَقْرَبَةٍ**﴾ أو لمسكين محتاج فقير معدم ﴿**ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾، قال الفخر: (أى لصق بالتراب من فقره وضره فليس فوقه ما يستره ولا تحته ما يوطئه)[٢]

وهذه الآية تدلنا على أن العبد كلما اجتهد فى إيصال الصدقة لمن كان فى غاية الاحتياج إليها كلما عظم ثوابه وارتفعت درجته، فهذا الذى ينفق إنما ينفق طعاماً فى يوم مجاعة عزَّ فيه الطعام وندر، ثم هو ينفق هذا الطعام العزيز فى هذا اليوم العصيب على يتيم لا يجد من يقوم على أمره ثم هو يتيم تجمعه به صلة القرابة ليكون الأجر أضعافاً مضاعفة، أويطعم به مسكيناً جائعاً جعل التراب فراشه وغطاءه من شدة الفقر والعوز.

---

(١) سورة الإنسان / من الآية ٨ .
(٢) مفاتيح الغيب ٣١ /١٦٩ .

الثالث: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أى وهو مع ذلك حريص على الإيمان يفعل الخيرات مع إيمان قلبه، إذ لا يصلح العمل دون إيمان ولا اتباع ولا إخلاص لله رب العالمين .

الرابع: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أى أوصى بعضهم بعضاً بالتزام منهج الصبر وطريقه، والتمسك بأنواعه حال شهوة المعصية، وثقل الطاعة، وألم الأقدار والمصائب .

الخامس: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ أى بالرحمة، (قال ابن عباس: كل ما يؤدي الى رحمة الله تعالى) [1]، أي أوصى بعضهم بعضاً برحمة الفقراء والمساكين، قال الجزائرى: (بمثل هذا تجتاز العقبة وينجو المرء من عذاب الله، وفي مثل هذا تُنفَق الأموال لا أن تنفق في الدسائس والمكر بالصالحين وخداع المؤمنين) [2].

المسألة السابعة: ما الزيادة التى أضافها وصف النار بالمؤصدة ؟

والجواب: ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ اسم مفعول من أوصد الباب بالواو أى أغلقه، أو أأصده بالهمزة وهما لغتان، قال الفخر الرازى: (قرأ الجمهور: ﴿مُوصَدَة﴾ بواو ساكنة بعد الميم من أوصد بالواو، وقرأه أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بهمزة ساكنة بعد الميم من ءَاصد الباب، بهمزتين بمعنى وصَده) [3].

وفى هذا زيادة العذاب عليهم وقطع لحبل الأمل فى نفوسهم فلا منجى ولا مهرب من النار، فهى (مطبقة لا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد) [4] .

وهنا لطيفة تحسن الإشارة إليها: الناظر إلى خاتمة سورة البلد ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠)﴾ يجد بينها وبين خاتمة سورة (الهمزة) ﴿إِنَّهَا

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٤٥٧ .
(٢) أيسر التفاسير ٥ / ٥٧٥ .
(٣) مفاتيح الغيب ١٦ / ٣٥٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥١٦ .

عَلَيهِم مُّؤۡصَدَةٞ (٨) فِي عَمَد مُّمَدَّدَةِۢ (٩)﴾ مشابهة، بيد أن خاتمة (الهمزة) وردت فيها زيادة ﴿**فِي عَمَد مُّمَدَّدَةِۢ**٩﴾ والتى لم ترد فى سورة البلد فما العلة فى ذلك ؟

أجاب على هذا السؤال د. السامرائى فقال: (كل تعبير هو أليق بمكانه من نواح منها :

- أنه توسع فى سورة الهمزة فى ذكر صفات المعذَّب وتوسع فى ذكر العذاب، فذكر فى صفات المعذَّب أنه ﴿**وَيۡلٞ لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ** (١) **الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ** (٢) **يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخۡلَدَهُ** (٣)﴾ فى حين أنه لم يزد فى سورة (البلد) على ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَايَٰتِنَا**﴾ ولما توسع فى ذكر المعذَّب توسع فى ذكر عذابه، فناسب ذلك ذكر الزيادة فى سورة الهمزة دون سورة البلد .
- ذكر فى سورة الهمزة أن هذا الكافر جمع المال وعدده كى يحفظه من النقصان فكما حفظ المال وأغلق عليه الأبواب، اُغلِقت عليه أبواب جهنم واستوثق منها بأن مُدَّت عليها الأعمدة، فى حين أنه ذكر فى سورة البلد أنه أهلك مالاً لبدا، فذلك أهلك المال وأنفقه، وهذا جمع المال وحفظه، فناسب ذكر الحفظ وشدة الاستيثاق فى سورة الهمزة الاستيثاق من غلق باب النار عليه، والجزاء من جنس العمل .

﴿سورة الفجر﴾

وفيها احدى عشرة مسألة :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى فى أول السورة وما المُقسَم عليه؟

والجواب: أقسم الله ﷻ فى هذه السورة بأربع أشياء من خلقه، وهى :

- ﴿**وَالْفَجْرِ(١)**﴾: قال بعض المفسرين هى صلاة الفجر فى كل الأيام، قال الماوردى: (وهو انفجار الصبح من أفق المشرق، وهما فجران: فالأول منهما مستطيل كذَنَب السرحان يبدو كعمود نور لا عرض له، ثم يغيب لظلام يتخلله، ويُسمَّى هذا الفجر المبشر للصبح ، وبعضهم يسميه الكاذب لأنه كذب بالصبح وهو من جملة الليل لا تأثير له في صلاة ولا صوم، وأما الثاني فهو مستطيل النور منتشر في الأفق ويسمىالفجر الصادق لأنه صدقك عن الصبح) [(١)]، (وقال قتادة: هو أوّل يوم من المحرّم تتفجر منه السنة)[(٢)]، (وفي بعض التفاسير: أنّ الفجر: الصخور والعيونتتفجّر بالمياه)[(٣)] .

قلت: والأرجح القول الأول خاصة لتعلقه بما بعده من قسم بالأزمنة والمواقيت .

- ﴿**وَلَيَالٍ عَشْرٍ(٢)**﴾: اختلف المفسرون فى تحديدها فقال بعضهم هى عشر ذى الحجة وهو قول مجاهد وقتادة والضحّاك والكلبي والحلبي وغيرهم، وقال بعضهم: هى الأيام العشر من رمضان وقيل الأيام الأواخر منه، وقال بعضهم: العشر الأُولى من المحرّم التي عاشرها يوم عاشوراء .
- ﴿**وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)**﴾ الأصل فى اللغة إن الشفع العدد الزوجى الذى يقبل أن يُقسَم على اثنين، والوتر عدد فرد لا يقبل القسمة

---

(١) النكت والعيون ٦ / ٢٦٤

(٢) الكشف والبيان ١٠ / ١٩١ .

(٣) المرجع السابق ١٠ / ١٩١.

على اثنين، وقد تعددت أيضاً أقوال المفسرين فى بيان معنى الشفع والوتر فقال بعضهم: الوتر هو الله ﷻ إذ لا شريك له ولا ثانى له فهو واحد أحد أما الشفع فهم جميع خلقه، وذهب بعضهم إلى أن الوتر هو آدم عليه السلام حيث خلقه الله ﷻ بيده فرداً واحداً فهو أبو البشر، والشفع هى حواء أم البشر حيث شفع الله ﷻ آدم بها فصارا معاً اثنين، وقيل بل هى الصلوات منها شفع كالفجر ومنها وتر كالمغرب، و(قال عكرمة: "عرفة وتر، ويوم النحر شفع عرفة يوم التاسع، والنحر يوم العاشر") [1]، وقيل غير ذلك من أقوال لا تخرج عما ذكرناه ... والعلم عند الله ﷻ .

- ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(٤)**﴾: والأصل يسرى أى يسير ويذهب، ومعلوم أن الليل لا يسير ولا يذهب وإنما يُسار فيه والمعنى إذا سار فيه أهله، وقال ابن عباس رضي الله عنه: إذا يسر أى إذا أظلم، وقيل بل الليل يذهب (لأن الليل يسير بمسير الشمس والفلك فينتقل من أفق إلى أفق، ومنه قولهم جاء الليل وذهب النهار) [2] .

فهذه هى الأشياء الأربعة التى أقسم بها الله ﷻ، فما المُقسَم عليه ؟

والجواب: إن المفسرين قد اختلفوا فى تحديد المُقسَم عليه،فقال بعضهم: إنه لم يُذكر صراحة فى السورة الكريمة بل هو محذوف وتقديره (ليعذبن) وذلك بدلالة ما جاء بعده من حديث الله ﷻ عن إهلاكه لعاد وثمود وفرعون، (وقال ابن الانباري: إن المُقسَم عليه هو﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ١٤**﴾، وقال مقاتل فى قوله: ﴿**هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ(٥)**﴾ إن ﴿**هَلْ**﴾ هنا بمعنى إن، والتقدير: إن في ذلك قسماً لذي حجر، وهى المُقسَم عليه)[3] .

---

(١) الدر المنثور للسيوطى ٨ / ٥٠٤ ، دار الفكر، بيروت – لبنان ، ١٩٩٣م .

(٢) النكت والعيون ٦ / ٢٦٧

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٤٣

المسألة الثانية: ما معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ(٥)﴾؟

الجواب: الحِجر هو العقل، وسُمى العقل حِجراً لأنه يحجر صاحبه ويمنعه من الوقوع فى المنكرات والمهالك ومنه سُمِي الحَجَرلامتناعه بصلابته ، ومنه حجر الحاكم على فلانأي منعه وضبطه عن التصرف، ولذلك سُمِيت الحُجرة حجرةلامتناع من فيها بها، وقد ورد فى بعض كتب التفاسير تفسير الحجر بالحِلم، أو الستر عن الناس والحق أن كلها معانى تدور فى إطار العقل ولا تتعارض معه، فعقل المرء يجعله حليماً غير مجاهر بعيوبه أمام الناس فيستر نفسه بستر الله ﷻ عليه .

ومعنى الآية يقول تعالى ذكره: (هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مُقنِع لذي حجر؟، وإنما عُنِيَ بذلك: إن في هذا القسم مكتفى لمن عقِل عن ربه مما هو أغلظ منه في الإقسام) [١] .

المسألة الثالثة: ضرب الله ﷻ ثلاثة أمثلة للمكذبين الذين أهلكهم، فمن هم ؟

الجواب: ضرب الله ﷻ ثلاثة أمثلة للطغاة الكافرين الذين أهلكهم الله ﷻ وجعلهم للعالمين آية، وهم :

المثال الأول: هو قوله ﷻ: **﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾** حيث ذكر الله ﷻ لنبيه كيف أهلك عاداً وهم قوم هود – عليه السلام – ﴿إِرَمَ﴾اختلف أهل التأويل فى معناها، فقال بعضهم: هى اسم بلدة اختلفوا كذلك فى تحديدها فقال بعضهم هى الإسكندرية وقال آخرون هى دمشق، وقال آخرون: بل ﴿إِرَمَ﴾ هو اسم رجل كان من نسله قبيلة عاد فهو جدهم الأكبر وإليه يُنسبون، وقال آخرون: بل ﴿إِرَمَ﴾ بمعنى الهالك والعرب يقولون: " أَرِم بنو

(١) جامع البيان فى تأويل القرآن ٢٤ / ٤٠٢ .

فلان: أى هلكوا، ﴿ذَاتِ ٱلعِمَادِ﴾ قيل أى أجسامهم طويلة طول العمد، (وقال بعضهم: بل قيل لهم: ﴿ذَاتِ ٱلعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا أهل عَمَد، يبحثون عن مواضع المطر، وينتقلون إلى الكلأ حيث كان، ثم يرجعون إلى منازلهم (فكانوا عرباً سيارة يبنون بيوتهم على الأعمدة على عادة العرب)[١].

يقول صاحب الظلال: (وقيل: إنها من العرب العاربة أو البادية وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمال في جنوبي الجزيرة بين حضرموت واليمن، وكانوا بدواً ذوي خيام تقوم على عماد، وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها)[٢] وعلى هذا فالعماد فى الآية إما أن يُراد به طول أجسامهم أو عماد خيامهم التى يتنقلون بها بحثاً عن مواطن القطر ومواضع الرعى، وقد وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ أى لم تعرف الأرض لهم مثيلاً.

قال البغوى: (أي لم يُخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهم الذين قالوا: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [٣])[٤].

المثال الثانى: قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ(٩)﴾ وهم ثمود قوم صالح – عليه السلام – ﴿جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ أى كانوا يقطعون الصخر وينحتون فى الجبال بيوتاً مصداقاً لقول الله ﷻ: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢)﴾ [٥] وقد قيل: إن ثمود أول أمم البشر الذين نحتوا الصخر والرخام .

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ(١٠)﴾ وهو ملك مصر وقد اختلف المفسرون فى المراد من الأوتاد، فقال بعضهم إن المراد

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٦٢٢/٨ .
(٢) فى ظلال القرآن ٨ / ٣٤ .
(٣) سورةفصلت / من الآية ١٥ .
(٤) معالم التنزيل ٨ / ٤١٨ .
(٥) سورة الحجر/ الآية ٨٢ .

بها الجيوش والجنود التى تشد ملكه كما تشد الأوتاد الخيمة، أو سمى الجند أوتاداً (لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتّدونها في أسفارهم) [١]، وقال مجاهد وغيره : "كان يعذّب الناس بالأوتاد وكان إذا غضب على أحد مدّهُ على الأرض وأوتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض"[٢]، وأياً كان المعنى المراد من الأوتاد فإنها تدل على البطش والقوة والملك العضود الذى لم يغن عن فرعون وجنده من عذاب الله وانتقامه شيئاً .

المسألة الرابعة: لم استعمل القرآن الكريم لفظ السوط كأداة للعذاب دون غيره من الأدوات ؟

والجواب: لعل ذلك من وجوه :

الأول: أن العرب كانت تعذب بالضرب بالسياط، فخاطبهم القرآن وتوعدهم بما يفهمونه، قال القرطبى: (وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب، إذ كان فيه عندهم غاية العذاب) [٣] .

الثانى: جاء استعمال القرآن الكريم للفظ السوط للدلالة على اختلاط العذاب بلحمهم ودمائهم وأعصابهم، فأصل السوط فى اللغة من الخلط، فالعرب يقولون: ساط يسوط سوطاً إذا خلط الشئ بعضه ببعض فهو سائط قال ابن منظور: (وسُمِّي السَّوْطُ سَوْطاً لأَنه إِذا سِيطَ به إِنسان أَو دابّة خُلِطَ الدمُ باللحمِ وهو مُشْتَقٌّ من ذلك لأَنه يَخْلِطُ الدم باللحم ويَسُوطُه) [٤]، ومن ذلك قول كعب بن زهير ﷺ فى قصيدته المشهورة (بانت سعاد) وفيها :

لكِنَّها خُلَّةٌ قدْ سِيطَ من دَمِها ** فَجْعٌ وَوَلْعٌ وإِخْلافٌ وتَبْدِيلُ

أى كأن هذه الأخلاق قد سيطت بدمها أى اختلطت به وامتزجت معه .

الثالث: أشار الزمخشرى إلى معنى بديع يُفهم من ذكر السوط فى الآية، وهو أن السوط أقل أداة تُستخدم فى التعذيب، فكأن الله ﷻ قد عذبهم

---

(١) الكشف والبيان ١٠/١٩٧ .
(٢) المرجع السابق ١٠/١٩٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٤٩ .
(٤) لسان العرب ٧/٣٢٥ .

بأقل أدوات العذاب مقارنة بما ينتظرهم من عذاب الآخرة وما فيها من نار الجحيم، وماء الحميم، والزقوم، وحر السعير، والغسلين، والأغلال والزمهرير قال الزمخشرى: (وذكر السوط : إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذابالعظيم بالقياس إلى ما أعدّلهم في الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به، وعن عمر بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة، فأخذهم بسوط منها) [1] .

المسألة الخامسة: ما الدلالة الإيمانية التى يمكن للعبد أن يستفيدها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ (١٤)﴾؟

والجواب: المرصاد من (رصد تقول: رَصَدْتُه إذا قعدت له على طريقة تترقّبه وأرصَدْتُ له العقوبة إذا أعدَدتْها له وحقيقته : جعلتُها على طريقة كالمترقّبة له) [2] (وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وأنهم لا يفوتونه) [3] .

وفى الآية تهديد للكافرين المعاندين وتثبيت لقلوب المؤمنين، وبيان قدرة الله ﷻ على الظالمين وأنهم لا يفوتونه ولا يعجزونه، فتبث الآية الأمل فى قلوب المظلومين المضطهدين من أجل دينهم .

كما تُنمى الآية عند المؤمن مفهوم المراقبة لله ﷻ والحذر من عقابه وعدم الاغترار بستره، فإنه ﷻ يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ العبد الظلوم لم يفلته، فإن الحليم إذا غضب لم يقف لغضبته شئ، فنسأل الله ﷻ العفو الجميل والستر العميم .

المسألة السادسة: كيف أوضحت الآيات حال الإنسان الجحود فى حالة السراء، الجزوعفى حالة الضراء ؟

الجواب: تحدثت الآيات عن حالتين للإنسان لا يخلو منهما بحال :

الأولى: حالته عند الغنى والإكرام فيظن بنفسه الخير والقرب من الله ﷻ، ويعتقد أن هذا الغنى والمال دلالة على الرضا من الله عليه، قال الله

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٥١- ٧٥٢.
(٢) الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى، ٦٢/٢، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية .
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٥٦/٩ .

ﷻ: **﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ (١٥)﴾** فاعتقد هذا العبد أن الدنيا وزينتها .

الثانية: عند المنع والفقر يعتقد هذا العبد أن هذا التضييق دليل الإهانة والبعد عن الله ﷻ، قال الله ﷻ: **﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ (١٦)﴾**.

وما علم هذا المسكين أنه مخطئ فى الحكم والتقدير، فقيمة العبد عند الله ﷻ لا تتوقف على عرض الدنيا الزائل فإن الله ﷻ يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، يقول صاحب الظلال معلقاً على تقييم هذا الإنسان: (غير أن الإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان لا يدرك حكمة المنع والعطاء، ولا حقيقة القيم في ميزان الله . . فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء، فعمل له في البسط والقبض سواء، واطمأن إلى قدر الله به في الحالين؛ وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء!) [(١)] .

وهذه السورة المباركة مكية فقد نزلت فى مجتمع المشركين الذين يُعلون من قيمة الدنيا ويرفعون من شأن أصحابها ويبنون معيار التفاضل فيما بينهم على ما يتحصله المرء من هذا النعيم الزائل ويرون أن الفقير لو أحبه الله لأغناه وأن الغنى ما أغناه الله إلا لأنه يكرمه ويحبه، وهذا معيار المشركين فى كل زمان ومكان حتى قال صاحب الجنتين المنكر للبعث والنشور وهو يحاور أخاه المؤمن الفقير فيما حكاه القرآن عنه : **﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً (٣٦)﴾** فقد ظن هذا المغرور بدنياه أنه لولا حب الله له ما أعطاه هاتين الجنتين فى الدنيا وأنه مستحق لهما فى الآخرة بالضرورة .

---

(١) فى ظلال القرآن ٨/٣٥ .

ونلحظ هنا فى الآيتين التعبير القرآنى الحكيم عن المنح والمنع، والبسط والقبض، والغنى والفقر بالابتلاء، قال الله ﷻ فى حال المنح: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ وقال فى حال المنع: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ فلفت الأنظار إلى أن الحالتين ابتلاء، قال الله ﷻ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ(٣٥)﴾[١]، فالإنسان فى ابتلاء دائم بالمنح والمنع فالله ﷻ يعطى العبد ليرى ماذا سيفعل فى هذه النعم ويختبر شكره وتواضعه، ويبتليه بالفقر والتضييق ليرى صبره ورضاه بقضاء الله وقدره ، فحال العبد بين نعمة فيشكر وبين نقمة فيصبر .

المسألة السابعة: ما معنى التراث؟ ولم جاء القرآن الكريم مع التراث بالأكل اللم ومع المال بالحب الجم، فقال: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا (١٩) وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا(٢٠)﴾؟

الجواب: التراث هو الميراث الذى يرثه الورثة من قريبهم الميت، والأكل اللم هو الأكل الشديد الجامع الذى لا يترك شيئاً، فذمهم الله ﷻ بأكلهم الميراث بالباطل وذلك بأكلهم نصيبهم من الميراث مع نصيب غيرهم، أو لأنهم كانوا لا يورثون النساء والأطفال ويأكلون نصيبهم من الميراث، أو لأنهم كانوا يأكلون الميراث وهم يعلمون أن المتوفى قد جمعه من حلال ومن حرام فيجمعون الحلال مع الحرام ويأكلونه دون تحرج ولا تأثم ، ويجوز أن تكون الآية ذماً للوارث الذى يرث المال من غير كد ولا تعب فيسرف فى إنفاقه، قال الزمخشرى: (ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً، من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الورّاث البطالون) [٢]، ولذا ناسب الميراث أن يأتى معه الأكل الجم الواسع الذى لا يفرق بين حلال وحرام .

---

(١) سورة الأنبياء / من الآية ٣٥.
(٢) الكشاف ٤/ ٧٥٤ .

أما المال فقد جُبل الإنسان على حبه جباً جماً أى حباً شديداً كثيراً مع الحرص عليه والشره فيه والبخل به، وتلك عادة الإنسان التى جُبل عليها، مؤمن كان أو كافر، فالمؤمن يحب المال ليقضى به مصالح دنياه ويُعين به إخوانه وينفق منه على الفقراء والمحتاجين، والكافر يحب المال ليتكاثر به وينفقه فى شهواته وقضاء ملذاته .

المسألة الثامنة: ما الدلالة العقدية من قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۢ بِجَهَنَّمَۚ﴾؟

الجواب: دار خلاف بين أهل السنة من جانب، وبين المعتزلة والقدرية من جانب آخر حول الجنة والنار هل هما موجودتان الآن، أم أن الله ﷻ سيخلقهما يوم القيامة، فأهل السنة والجماعة يرون أن الجنة والنار موجودتان، وأنهما لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، قال: (حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت: "بل ينشئهما الله يوم القيامة !"، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مددا متطاولة !!

فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدَّعوا من خالف شريعتهم) [1]، ومن بين ما يستدل به أهل السنة من نصوص على وجود الجنة والنار وأبديتها قوله ﷻ عن الجنة: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)**﴾[2]، وقوله ﷻ عن النار: ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادا (٢١) لِّلطَّٰغِينَ مَ‍َٔابا (٢٢)**﴾[3]، وقد

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٦١٥/١ .
(٢) سورة آل عمران / الآية ١٣٣ .
(٣) سورة النبأ / الآيتان ٢١-٢٢ .

رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء وفي آخره: (ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)[1] فدلَّ هذا وغيره من الآحاديث على وجود الجنة والنار.

وفى هذه الآية من سورة الفجر ﴿**وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۢ بِجَهَنَّمَۚ**﴾ دليل على وجودها وقِدَمها وأنها ستأتى يوم القيامة ليراها الناس، ولو كانت منعدمة لقالت الآية (وخُلِقت جهنم) لكن الآية تدل على مجيئ جهنم لأنها مخلوقة وموجودة منذ القدم .

المسألة التاسعة: ما الدرس المستفاد من قول الإنسان يوم القيامة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي (٢٤)﴾؟

الجواب: إن الإنسان يوم القيامة ستتكشف له الحقيقة؛ فيرى حقيقة الدنيا الزائلة، وزخرفها الفانى الذى طالما أضاع وقته واستفرغ فيها جهده مفرطاً فى جنب الله ﷻ، قد يجمع المال من حلال ومن حرام ثم يتركه لورثته، وقد يقترض من الربا لإرضاء زوجه وبنيه ثم يموت ويُحاسب على الربا وورثته يتمتعون بماله، قد يقتل من أجل منصب أو جاه ثم يزول جاهه ويضيع منصبه، وينزل إلى قبره وحيداً منفرداً لتستبين له الحقيقة، بأن ما عاشه فى هذه الدنيا ليس هو الحياة، بل الحياة الحقيقية هى التى سيُقدِم عليها ولم يُعد لها عدتها بل كان مشغولاً عن حياته الحقيقية بزيف الدنيا، فيقول عندئذٍ متحسراً: ﴿**يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي(٢٤)**﴾، ولكنه ندمٌ وقت لا ينفع الندم ... نسأل الله ﷻ العفو والعافية ... وقد أحسن من قال وتنسب لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه:

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت * أن السلامة فيها ترك ما فيها**

لا دار للمرء بعد الموت يسكنـــها * إلا التى كان قبل الموت يبنيها**

---

(١) صحيح البخارى ٣ / ١٢١٧ ورقمه ٣١٦٤ ، صحيح مسلم ١ / ١٤٨ ورقمه ١٦٣ .

فإن بناها بخير طاب مسكنـــــــه * وإن بناها بشرٍ خاب بانيـــها**

وفى تحسر المفرطين الظالمين رد على أصحاب الضلال من الجبرية وغيرهم الذين قالوا بأن الإنسان فى هذه الدنيا مجبر مسير لا مخير، حيث دلَّ تحسرهم على أن اختيار الحق كان متاحاً لهم فى الدنيا وأنهم ليسوا بمجبرين على فعل المنكرات واختيار طريق الشرك والظلمات، بل أعطاهم الله ﷻ حرية الاختيار وأرسل لهم الرسل وأنزل لهم الكتب لكنهم تنكبوا طريق الهداية واتبعوا طريق الغواية بمحض اختيارهم وكامل إرادتهم بدليل تحسرهم على تركهم شيئاً كان بإمكانهم الأخذ به والنجاة من خلاله لكن شهواتهم وعنادهم ورفقاء السوء معهم أوردوهم موارد الهلاك ... نسأل الله ﷻ الثبات على دينه حتى الممات .

المسألة العاشرة: ما معنى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦)﴾؟

الجواب: ذهب جمع من المفسرين كالقرطبى والفخر الرازى وغيرهما إلى أن المراد أنه فى يوم القيامة لا يعذب مثل عذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، فالضمير هنا – أى الهاء– يرجع إلى الله ﷻ وهو قل ابن عباس والحسن. وفى قراءة الكسائى بفتح الذال (يعذَّب) وبفتح الثاء (يوثَق) أي لا يعذَّب أحد في الدنيا كعذاب الله ﷻ الكافر يومئذ، ولا يوثَق كما يوثق الكافر، قال القرطبى:

(والمراد إبليس، لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عذاباً لأجل إجرامه، فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير، وقيل: إنه أمية بن خلف، حكاه الفراء، يعني أنه لا يعذَّب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثَق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد، لتناهيه في كفره وعناده، وقيل:

أي لا يعذب مكانه أحد، فلا يؤخذ منه فداء، والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق.

المسألة الحادية عشرة: فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفسُ ٱلمُطۡمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَة مَّرۡضِيَّة (٢٨) فَٱدخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ تساؤلات مثل: من النفس المطمئنة؟ ومتى سيُنادى عليها بهذا النداء؟ وما معنى النداء عليها بـــ ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، وما معنى: ﴿فَٱدخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾؟ وفيمن نزلت ؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى تعريف النفس المطمئنة، وكلها ترجع إلى أصل واحد وهو النفس المؤمنة بالله ﷻ المستعدة للقائه، قال ابن عباس: أي المطمئنة بثواب الله، وقال مجاهد: الراضية بقضاء الله، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وقال ابن كيسان: المطمئنة هنا: المخلصة، وقيل: المطمئنة بذكر الله ﷻ والدليل عليه قوله تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ ٱللَّه أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ (٢٨)﴾**[١]، وقيل: المطمئنة بالإيمان المصدقة بالبعث والثواب، وقال ابن زيد: المطمئنة لأنها بُشِّرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع.

أما متى سيُنادى عليها بهذا النداء فالأرجح أنه يكون عند الموت وخروج الروح المؤمنة حيث تبشرها الملائكة بالروح والريحان وبرب راضٍ عليها غير غضبان فتخرج الروح المؤمنة وقد اطمأنت إلى موعود الله لها وتسيل برفق وسهولة من جسد صاحبها، قال ابن كثير: (وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، وكذلك هاهنا)[٢]، وقد سمعت رجلاً ألمانياً قرأ هذه الآية فكانت سبباً فى إسلامه، حيث قال وهو يبكى: (كثيراً ما توقفت عند هذه الآية، وكنت أتساءل: من هم هؤلاء السعداء

---

(١) سورة الرعد / آية ٢٨ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٠٠ .

الذين سيُنادى عليه بهذا النداء العذب عند احتضارهم؟ إنهم نفر قليل كُتبت لهم السعادة، فهل يا تُرى ستكون نفسى احدى هذه الأنفس؟). ومعنى النداء عليها بـــ ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ فالرب هنا قيل هو صاحب هذه الروح فهو ربها أى صاحبها، فتؤمر الروح بالعودة إلى جسد صاحبها وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا، قال الضحاك وغيره فى الآية: (يأمر الله الأرواح يوم القيامة أن ترجع إلى الأجساد فيأتون الله كما خلقهم أول مرة)[1].

وقيل: بل المراد ارجعى أيتها الروح إلى موعد ربك، وموعد النفس المطمئنة هو الجنة، ولذا قال بعدها: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ .

وهناك قول ثالث لا يخلو من وجاهة؛ وهو قول الألوسى حين قال: (﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ والمراد بالأمر بالرجوع إلى الرب الأمر بالرجوع إليه ﷻ في كل أمر من الأمور، والمراد بالأمر بالدخول في العباد الأمر بالدخول في زمرة العباد الخُلَّص الذين ليس للشيطان عليهم سلطان بالإكثار من العمل الصالح)[2] وعلى هذا فيكون النداء للنفس أن تلتزم طريق الله، وتسير على نهجه وهداه، ولا تغفل عنه فى ساعة من ليل أو نهار، بل ترجع إليه ﷻ فى كل أمورها، وتتوكل عليه فى كافة شئونها، فتكون عندئذٍ فى زمرة عباد الله الصالحين؛ الذين لا يغفلون عن أمره ولا يعتمدون إلا عليه ﷻ .

وأما النداء على النفس المطمئنة وأمرها أن تدخل فى عباد الله فى قوله: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩)﴾ فقيل: أى ادخلى جسد عبدى؛ ويشهد لذلك قراءة ابن مسعود: (في جسد عبدي)، وقيل: بل المراد التزمى أيتها النفس الطيبة صفوف عبادى المؤمنين، قال الألوسى: (﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩)﴾ أى في زمرة عبادي الصالحين المخلصين لي، وانتظمي في سلكهم

---

(١) تفسير الطبرى ٤٢٥/٢٤ .
(٢) تفسير روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ١٣٢/٣٠ .

وكوني في جملتهم، ﴿**وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي (٣٠)**﴾ عطف على الجملة قبلها داخلة معها في حيز الفاء المفيدة لكون ما بعدها عقيب ما قبلها من غير تراخٍ، وكأن الأمر بالدخول في جملة عباد الله ﷻ الصالحين إشارة إلى السعادة الروحانية لكمال استئناس النفس بالجليس الصالح؛ والأمر بدخول الجنة إشارة إلى السعادة الجسمانية، ولفضل الأولى على الثانية قدَّم الأمر الأول وجيء بالثاني على وجه التتميم) [١]، وفى ذلك إشارة إلى أهمية اختيار الجار قبل الدار، فإن هذه النفس قد اطمئنت أولاً بحسن الجوار مع المؤمنين، ثم اطمأنت بحسن الدار فى جنات النعيم ،ونظيره فى القرآن قول امرأة فرعون: ﴿**إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ**﴾[٢] فقدَّمت جوار الله بقولها: ﴿**عِندَكَ**﴾ ثم ذكرت الدار فقالت: ﴿**بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ**﴾، فذكرت الجار قبل الدار .

وأما فيمن نزلت ... فجمهور المفسرين على أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين اشترى بئر رومة وجعلها سقاية للناس، أو أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقيل نزلت في خبيب بن عدي رضي الله عنه الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال: "اللهم إن كان لي عندك خير فحوِّل وجهي نحو قبلتك" فحوَّل الله ﷻ وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله بعد، لكننا لا نحصرها فى هؤلاء الصحابة الكرام بل هى صالحة للتطبيق على سائر الأنفس المؤمنة المطمئنة فى كل زمان ومكان، لأن العبرة عندنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

---

(١) تفسير روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ١٣١/٣٠ .
(٢) سورة التحريم / من الآية ١١ .

﴿سورة الغاشية﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: ما الغاشية ولم سميت بذلك ؟

والجواب: الغاشية اسم فاعل على وزن فاعلة من الفعل الثلاثى غشى، وقيل: فى معنى الغاشية إنهاسم من أسماء يوم القيامة، وقيل: هى اسم من أسماء نار جهنم، فأما أنها من أسماء يوم القيامة فإنه لا يخفى على أحد أن للقيامة أسماء متعددة مذكورة فى القرآن الكريم كالقارعة، والصاخة، والطامة، والحاقة، والغاشية، والساعة، ويوم الآزفة، ويوم التناد، يوم الحسرة، ويوم التغابن، ويوم الخروج، ويوم الوعيد، وغيرها من الأسماء التى تدل على شرف المسمى وعظيم خطره، وقدسميت القيامة بالغاشية لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له والقيامة كذلك لأنها ترد على الخلق بغتةً،كما أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين، والقول الثالث إنها تغشى الناس بالأهوال.

أما من قال إن الغاشية هى اسم من أسماء نار جهنم، فقد سُميت النار بالغاشية لأنها تغشى وجوه الكفرة وأهل النار، قال تعالى: ﴿**وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ** (٥٠)﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَاد وَمِن فَوقِهِمۡ غَوَاش**﴾[2] وهناك قول يرى أن الغاشية تدل على أهل النار لأنهم يغشونها ويقعون فيها .

المسألة الثانية: فى قوله ﷻ :﴿وُجُوه يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَة نَّاصِبَة (٣) تَصلَىٰ نَارًا حَامِيَة(٤)﴾ كيف تكون هذه الوجوه عاملة ناصبة ثم تصلى فى النهاية ناراً حامية ؟

والجواب: إن هذه النفوس هى نفوس الكفار وأهل الضلال المستحقة للعذاب يوم القيامة وأما كونها عاملة ناصبة ثم تصلى ناراً حامية ، ففيه وجوه :

---

(١) سورة إبراهيم / من الآية ٥٠ .
(٢) سورة الأعراف / من الآية ٤١ .

إما أن تكون هذه النفوس والأبدان قد اجتهدت فى الأعمال لكنها عملتها على غير شرع الله أو من غير إخلاص فى العمل فتعبت من غير فائدة ورُدَّت عليها وأُحبط ثوابها، ولذا اشترط العلماء لقبول العمل شرطين وهما موافقة الكتاب والسنة والإخلاص فيه، وبدون أحدهما أو كليهما لا يقبل العمل بل يُرد على صاحبه، فهذا الشرطان للعمل كالجناحين للطائر لا يرتفع فى السماء إلا بهما وبدون أحدهما يسقط ويقع.

وتنطبق هذه الآيات على الرهبان والأحبار الذين أعرضوا عن الدخول فى الإسلام وانعزلوا عن الناس فى الصوامع والبِيَع طلباً لعبادة الله، فصاموا نهارهم، وسهروا ليلهم، وأتعبوا أبدانهم، لكنهم فى كفر وضلال؛ ويوم القيامة هم من أهل النار؛ يصلون فيها ناراً حامية مع ما بذلوه فى الدنيا من نصب وتعب.

أورد القرطبى أنه (لما قدم عمر بن الخطاب ﷺ الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهل[1]، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك ؟ قال: هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله ﷻ: ﴿**عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصلَىٰ نَارًا حَامِيَةً(٤)**﴾)[2]، أو أن تكون هذه الآيات وصفاً لحال أهل النار فى عذابهم يوم القيامة، فهى (تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جرها السلاسل والأغلال، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبة في صَعودٍ من نار، وهبوطها في حدور منها)[3]، (قال سعيد عن قتادة: ﴿ **عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣)**﴾ قال: "تكبرت في الدنيا عن طاعة الله ﷻ، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وقال الحسن وسعيد بن جبير: لم

---

(١) التقهل: رثاثة الهيئة، ورجل متقهل: يابس الجلد سئ الحال، مثل المتقحل.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٧/٢٠ .
(٣) الكشاف ٧٤٤/٤ .

تعمل لله في الدنيا ولم تتصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم، وقال الكلبي: يُجرُّون على وجوههم في النار) [(١)].

المسألة الثالثة: بم وصفت الآيات شراب وطعام أهل النار؟ ولم قُدِّم ذكر الشراب على الطعام؟

الجواب: أوردت الآيات وصف شراب أهل النار وطعامهم فقال: ﴿**تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)**﴾، فشرابهم الحميم الآنى، أى الذى بلغ الغاية فى الحرارة، قال ابن منظور: (وأنى الحميم أي انتهى حره، ومنه قوله تعالى: ﴿**حَمِيمٍ ءَانٍ(٤٤)**﴾)، وفي التفاسير: ﴿**مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ(٥)**﴾" أي تناهى حرها، فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت.

ولما ذكر الله ﷻ شراب أهل النار ذكر طعامهم؛ فأما طعامهم فهو محصور مقصور على الضريع، وهو عند عامة المفسرين: "نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه، وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه"، وهذا القول هو جماع أقوال المفسرين مع اختلاف يسير فى وصف الضريع .

بيد أن القارئ للقرآن يتوقف عند ذكر القرآن مسمى آخر لطعام أهل النار ألا وهو (الغسلين) وذلك فى قوله ﷻ:﴿**وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسۡلِينٍ(٣٦) لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ (٣٧)**﴾[(٢)]، وقال هنا فى (سورة الغاشية): ﴿**لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ(٦)**﴾ وهو غير الغسلين، ووجه الجمع بينهما أن النار دركات، فمنهم من طعامه الزقوم، ومنهم مَن طعامه الغسلين، ومنهم مَن طعامه الضريع، ومنهم مَن شرابه الحميم، ومنهم مَن شرابه الصديد، قال الكلبي: الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة أخرى) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٧ .
(٢) سورة الحاقة / الآيتان ٣٦-٣٧.

المسألة الرابعة: فى قوله تعالى: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾ وصِفت الجنة فى هذه الآيات بأوصاف ... فما معناها ؟

الجواب: وصفت الآيات الجنة بسبع أوصاف :

أولاها: بأنها عالية أى مرتفعة ، قال ابن عاشور: (لزيادة الحسن لأن أحسن الجنات ما كان في المرتفعات، قال تعالى: **﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾**[١])[٢]، وقيل وصف الجنة بالعالية لا يقتصر به العلو الحسى المكانى فقط، بل يشمل العلو بمعنى الرفعة والرقى، فهى عالية القدر رفيعة الشأن ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثانيها: أنك لا تسمع فيها شيئاً يؤذى سمعك، فاللاغية مصدر بمعنى اللغو من الكلام الذى لا فائدة منه ولا نفع فيه، (وهذا تنبيه على أن الجنة دار جد وحقيقة، فلا كلام فيها إلا لفائدة؛ لأن النفوس فيها تخلصت من النقائص كلها فلا يلذ لها إلا الحقائق والسمو العقلي والخلقي، ولا ينطقون إلا ما يزيد النفوس تزكية) [٣] .

ثالثها: ﴿فِيهَا عَين جَارِيَة (١٢)﴾ أى أن عيونها تجرى من غير توقف وهذا أدعى لنقاوة مائها وحسن شرابها، فإن الماء الجارى أنظف وأطيب من الراكد .

رابعها: ﴿فِيهَا سُرُر مَّرْفُوعَة (١٣)﴾ السرر جمع السرير وقد وصفت بأنها مرفوعة أى (رفيعة السمْك أو المقدار ، ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوّله رَبُّه من المُلك والنعيم)[٤]، فالرفع هنا رفع قدر ومكان وحال .

---

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٦٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢٦٥/٣٠.
(٣) المرجع السابق ٢٦٦/٣٠.
(٤) البحر المديد ٤٥٠/٨.

خامسها: ﴿وَأَكوَاب مَّوْضُوعَةَ(١٤)﴾ الفرق بين الكوب والكوز أن الكوب من غير عروة يمسك بها الشارب، على عكس الكوز، (وهى أكواب موضوعة أى مُعدَّة للشرب فهى موضوعة على حافة العيون الجارية كلما أراد أهل الجنة الشرب وجدوها مملوءة بالشراب، وقيل بل هى موضوعة فى أيديهم لا يتركونها لفرط حسنها وجمالها لكونها من ذهب أو فضة أو من جوهر وكونهم يتلذذون بالشرب منها، وقيل موضوعة أى موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الصغر والكبر كقوله:﴿**قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقدِيرا (١٦)**﴾[(١)])[(٢)] .

سادسها: ﴿وَنَمَارِقُ مَصفُوفَةَ(١٥)﴾ وهى الوسائد، ومفردها نمرقة أى وسادة، وهى وسائد مصفوفة أى مرتبة واحدة إلى جنب الأخرى، بحيث إذا أراد الواحد أن يجلس جلس على نمرقة منها وأسند ظهره على أخرى وتوسد ثالثة، وهذه الوسائد مصفوفة مرتبة سلفاً بحيث لا يحتاج المؤمن إلى بذل جهد فى ترتيبها وإعدادها للجلوس عليها .

سابعها: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبثُوثَةٌ(١٦)﴾ جمع زربية وهى البسط التى تُفرَش على الأرض، ومبثوثة أى منتشرة فى المكان كله ومتفرقة فى المجلس، (وقيل: بعضها فوق بعض، قاله عكرمة، وقيل: كثيرة، قاله الفراء)[(٣)] .

المسألة الخامسة: لم حثت السورة الإنسان على التدبر فى خلق الإبل دون غيرها من الحيوانات ؟

الجواب: استدلت الآيات بعظيم إبداع الله فى خلقه بالإبل دون غيرها من الحيوانات، وذلك لأمور، منها:

أولاً: أن الإبل هى من أنفَس أموال العرب وكرائمها حيث تفاخروا بجمالها وتكاثروا بامتلاكها، وقد يرى البعض أن الفيل فيه من العجب ما يضاهى البعير لكن الله ﷻ ذكر الإبل دون الأفيال لأن الأفيال لم تكن

---

(١) سورة الإنسان / من الآية
(٢) راجع مفاتيح الغيب ١٤٢/٣١ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٤/٢٠ .

موجودة فى بلاد العرب، وليس لهم بها معرفة؛ ولذا خافوا من جيش أبرهة وهابوه لما جعل الفيل فى مقدمة جيشه، ونزلت سورة من القرآن باسمه، فضلاً عن أن البعير يُؤكل لحمه ويُشرب لبنه ويُستخدَم وبره وهو ما لا يتوافر فى الفيل.

ثانياً: اجتمعت فى الإبل قوة الخلقة وسهولة الانقياد قال ابن كثير: (فإنها خَلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة،وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف)[1] قال القرطبى: (ثم ذكر الإبل أولاً؛ لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيمٍ من خلقه قد سخرها الله للصغير، يقوده، وينيخه، وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهوبارك؛ فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره. فأراهم عظيماً منخلقه، مسخَّراً لصغير من خلقه ليدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته .

ثالثاً: وإذا نظرنا إلى أوجه الإعجاز الإلهي في خلق الإبل، والتي جعلت القرآن الكريم يدعونا إلى النظر في عظمة هذا الخلق البديع نجد أن قدرة الله ﷻ وحكمته تتجلى في كل جزء من أجزاء جسم الجمل، والتي تتمثل فيما يلي:

١- خُفُّ الجمل الموجود في نهاية القدم مخلوق بصورة بديعة، حيث يتألف من أصبعين اثنتين لكل منهما ظفر مفلطح كبير، وتحتهما وسادة عريضة من جلد لحمي؛ تُيَسِّر للجمل السير السهل على الأرض الصخرية الزلقة أو الرمال المتحركة دون أن تغوص القدم فيها، والتي تتميز بها طبيعة الصحارى والجبال، خاصة وأن الجمال تحمل أوزاناً ثقيلة إلى جانب وزن جسمها الضخم، والوبر الموجود على الخف يساعد الجمل على تحمل حرارة الأرض الرملية، كما أن أخفاف البعير كلها مواد عازلة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٨٧/٨.

للكهرباء تحميه من الصواعق الكهربائية التي تحدث بين السحب، وارتفاع الجمل يصل إلى نحو المترين من عند الكتفين، ويرجع ذلك إلى طول أرجلها التي تبعد جسمها عن سطح الأرض لتتقي حرارتها.

٢- وجه الجمل طويل بارز، وأنفه يشبه الشق، يفتحه الجمل ويغلقه حسب ظروفه، وهذا يساعده على منع دخول الرمال في أنفه عند أكله لطعام موجود على الرمال. كما أن شفة البعير العليا غليظة حساسة ومشقوقة إلى نصفين ليتمكن من تحريكهما ورفعهما إلى أعلى ليتحاشى أذى النباتات الشوكية عندما يتناولها فلا تلحق به ضررًا.

٣- وعينا الجمل تنفتحان بزاوية مائلة تغطيها رموش طويلة وتستقران داخل تجويف قوي، ولعينيه أجفان طويلة جدًا، وبهذه الصفات يستطيع الجمل مقاومة العواصف الرملية.

٤- ومن عجائب خلق الله في الجمل أن الأنف ينفتح وينغلق متى شاء البعير، وفتحته محسوبة بمقدار، وهو عبارة عن مصفاة هواء من النوع الممتاز الدائم، كما أن في أنفه جهازًا عجيبًا يسمى جهاز التيار العكسي الذي يساعده على الاقتصاد الشديد في ضياع ماء البدن أثناء التنفس، حيث يتفرد الجمل بأن الغشاء المخاطي في أنفه جاذبٌ للرطوبة، فالهواء الذي يدخل أنف الجمل جافًا يتشبّع بالرطوبة التي يهبها له غشاء الأنف، حتى إذا مرّ بالأنف وهو خارج عاد غشاء الأنف فاجتذب جلّ ما فيه من ماء بحيث لا يضيع من ماء جسمه إلا النزر اليسير، وكلما اشتد القيظ (شدة الحر) ازداد جذب غشاء الأنف للرطوبة واقتصاده في الماء.

٥- أما سنام الجمل فهو مستودع ضخم للشحم يفيده وقت الحاجة، وهو كتلة من أنسجة دهنية ومياه مُستقلبة (متحولة) عن مواد أخرى، وبذلك يكون السنام مستودعًا للماء والغذاء معًا!!ومن حكمة خلق الله في الإبل أن جعل احتياطي الدهون في الإبل كبيراً للغاية يفوق أيحيوان آخر، ويكفي

دليل على ذلك أن نقارن بين الجمل والخروف المشهور بإليته الضخمة المملوءة بالشحم، فعلى حين نجد الخروف يختزن زهاء ١١كجم من الدهن في إليته، نجد أنالجمل يختزن ما يفوق ذلك المقدار بأكثر من عشرة أضعاف (أي نحو ١٢٠ كجم)، وهي كمية كبيرة بلا شك يستفيد منها الجمل بتمثيلها وتحويلها إلى ماء وطاقة وثاني أكسيد الكربون.

ولذا يتميز الجمل بقدرة هائلة على البقاء بدون ماء لفترة طويلة؛حتى أنه يستطيع أن يقضي حوالي شهراً ونصف بدون ماء يشربه، ولكن آثار العطش الشديد تصيبه بالهزال وتفقده الكثير من وزنه، وبالرغم من هذا فإنهيمضي في حياته صلداً لا تخور قواه إلى أن يجد الماء العذب أو المالح فيعب منهعباً حتى يطفئ ظمأه كما أن الدم يحتوى على أنزيم البومين بنسبة أكبر مما توجد عندبقية الكائنات وهذا الإنزيم يزيد في مقاومة الجمل للعطش وتعزى قدرة الجمل الخارقةعلى تجرع محاليل الأملاح المركزة إلى استعداد خاص في كليته لإخراج تلك الأملاح فيبول شديد التركيز بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم.

ومن العجيب أيضاً أن الجمل لا يقتصد في الماء فحسب، لكنه يولد الماء أيضًا!، فقد زوده الخالق سبحانه بجهاز لتوليد الماء، حيث تتفكك الشحوم المتراكمة في سنام الجمل إلى محاصيل نهائية، من أهمها الهيدروجين الذي لا يلبث أن يتحد بالأوكسجين الآتي مع هواء التنفس فيؤلفان "الماء" الذي يحتاجه الجمل.

٦- رقبة الجمل الطويلة ليست عبئًا عليه، فهي تتحرك وتلتف في كل اتجاه بكل سهولة ويسر، وتساعد الجمل على الوصول إلى أغصان الشجر المرتفعة، وتمكنه من الأعشاب والحشائش على سطح الأرض، ويضع رأسه على جسمه عندما تشتد الرياح ليتقي شدتها وما تحمله من تراب وغبار.

٧- الإبل تتعايش مع ارتفاع أو انخفاض درجة الحرارة فلديها منظم بيولوجي للحرارة يساعدها في السيطرة على درجة الحرارة والبقاء على قيد الحياة رغم التذبذب الشديد في مستوى بلازما الدم، ففي الشتاء يكثر الوبر ويتلبد على جسمه فيقيه ويحميه من البرد، وفي الصيف يسقط الوبر لتتم عملية التبريد بالتعرق، فالعرق يخرج من مسام الجسم بدقة محسوبة، ويتحكم الجمل في درجة حرارة جسمه حسب ظروف الجو مما يمكنه من العيش في الصحراء وتحمل تقلبات الجو المختلفة.

٨- والجمل ليس له مرارة مما يساعده على تناول كميات كبيرة من الغذاء ولساعات طويلة، وهذه الخاصية تساعده على تكوين كميات كبيرة من احتياجات الشحوم والدهون، وبصفة خاصة في السنام لتساعده على تحمل الظروف الشاقة في مواسم الجفاف والمجاعة.

٩- وإذا نظرنا إلى الجمل باعتباره وسيلة للسفر والترحال وحمل الأثقال والأمتعة، سنجد أن الجمل هو الحيوان الوحيد الذي يستقر عليه الهودج أو المحمل، لأن جسم الجمل في المشي شبه مستقر لكونه يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف ولا تتحرك سوى قوائمه بحركة متوازية، ويمتص الجسم ضربات الأرجل على الأرض فلا يحس الراكب إلا بالتمايل فقط، لذلك تسهل إقامة الهودج على الجمل، ولا يمكن هودجة الحصان أو البغل.

١٠- أضف إلى ذلك إلى أن الجمل وحين يبرك الجمل للراحة أو يناخ ليعد للرحيل يعتمد جسمه الثقيل على وسائد من جلدقوي سميك على مفاصل أرجله، ويرتكز بمعظم ثقله على كله، حتى أنه لو جثم به فوقحيوان أو إنسان طحنه طحناًو هذه الوسائد إحدى معجزات الخالق التي أنعم بهاعلى هذا الحيوان العجيب، حيث إنها تهيئه لأن يبرك فوق الرمال الخشنة الشديدة الحرارة التي كثيراً ما لا يجد الجمل سواها مفترشاً له فلا يبالى بها ولا يصيبيه منها أذى، والجمل الوليد يخرج من بطن أمه مزوداً

بهذه الوسائد المتغلظة، فهي شيء ثابت موروث وليست من قبيل ما يظهر بأقدام الناس من الحفاء أو لبس الأحذية الضيقة.

١١- مقارنة بين قدرات الإبل والإنسان:

ولعل في المقارنةبين بعض قدرات الإبل والإنسان ما يزيد الأمر إيضاحاً بالنسبة لنموذج الإبل الفريد في الإعجاز فقد أكدت تجارب العلماء أن الإبل التي تتناول غذاءً جافاً يابساً يمكنها أن تتحمل قسوة الظمأ في هجير الصيف لمدة أسبوعين أو أكثر، ولكن آثار هذا العطش الشديد سوف تصيبها بالهزال لدرجة أنها قد تفقد ربع وزنها تقريباً في خلال هذه الفترة الزمنية؛ ولكي ندرك مدى هذه المقدرة الخارقة نقارنها بمقدرة الإنسانالذي لا يمكنه أن يحيا في مثل تلك الظروف أكثر من يوم واحد أو يومين؛ فالإنسان إذا فقد نحو ٥% من وزنه ماء فقد صوابه حكمه على الأمور، وإذا زادت هذه النسبة إلى ١٠% صُمَّت أذناه وخلط وهذى وفقد إحساسه بالألم (وهذا من رحمة الله به ولطفه فيقضائهأما إذا تجاوز الفقد ١٢% من وزنه ماء فإنه يفقد قدرته على البلع وتستحيل عليه النجاة حتى إذا وجد الماء إلا بمساعدة منقذيه .

وعند إنقاذ إنسان أشرف على الهلاك من الظمأ ينبغي على منقذيه أن يسقوه الماء ببطء شديد تجنباً لآثار التغير المفاجئ في نسبة الماء بالدم؛ أما الجمل الظمآن إذا ما وجد الماء يستطيع أن يعب منه عباً دون مساعدة أحد ليستعيد في دقائق معدودات ما فقد من وزنه في أيام الظمأ .

وثمة ميزة أخرى للإبل على الإنسان، فإن الجمل الظمآن يستطيعأن يطفئ ظمأه من أي نوع وجد من الماء حتى وإن كان ماء البحر أو ماء في مستنقع شديد الملوحة أو المرارة، وذلك بسبب استعداد خاص في كليتيه لإخراج تلك الأملاح في بول شديد التركيز بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده على الدم، أما الإنسان الظمآن فإنه أية محاولة لإنقاذه

بشرب الماء المالح تكون أقرب إلى تعجيل نهايته، وأعجب من هذا كله أن الجمل إذا وضع في ظروف بالغة القسوة من هجير الصحراء اللافح فإنه سوف يستهلك ماءً كثيراً في صورة عرق وبول وبخار ماء مع هواء الزفير حتى يفقد نحو ربع وزنه دون ضجر أو شكوى . والعجيب في هذا أن معظم هذا الماء الذي فقده استمده من أنسجة جسمه ولم يستنفذ من ماء دمه إلا الجزء الأقل، وبذلك يستمر الدم سائلاً جارياً موزعاً للحرارة ومبدداً لها من سطح جسمه، ومن ثم ترتفع درجة حرارته ارتفاعاً فجائياً لا تتحملها أجهزته، وخاصة دماغه، وفي هذايكون حتفه.

وكل ما ذكره العلم الحديث غيض من فيض وقليل من كثير فى جوانب القدرة الإلهية والإعجاز الربانى فى خلق الإبل، وقد صدق الله ﷻ حين قال: **﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلعِلمِ إِلَّا قَلِيلا (٨٥)﴾**[١].

المسألة السادسة: ما الدرس المستفاد للدعاة إلى الله ﷻ من قوله: ﴿فَذَكِّر إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّر (٢١) لَّستَ عَلَيهِم بِمُصَيطِرٍ (٢٢) ﴾ ؟

الجواب: هذا أمر من الله ﷻ لكل الدعاة إليه – متمثلين فى شخص سيد الدعاة ﷺ أن يثبتوا على درب الدعوة وتذكير الناس بالله ﷻ وتعليمهم شريعته، وهذا دورهم فعليهم الدعوة وليس عليهم إدراك النتائج ولا إدخال نور الهداية إلى القلوب، فإن هداية القلوب بيد خالقها، ولذا فيجب على الداعية ألا يحزن وألا ييئس إذا لم تنجح دعوته مع بعض الناس؛ وليجرب مع غيرهم عسى الله أن يفتح به قلوباً غلفاً وأعيناً عمياً وآذانا صماً .

وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات قد نزلت قبل نزول آيات القتال، فلما نزلت آيات القتال نسختها، لكن الإمام الزركشى صاحب البرهان رد على هذه الأقوال، فقال: (يتبين لنا ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف؛ وليست كذلك، بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما

---

(١) سورة الإسراء / من الآية ٨٥ .

لعلة توجب ذلك الحكم؛ ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ؛ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً)[١].

ثم قال: (وهو سبحانه وتعالى حكيم أنزل على نبيه ﷺ حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفة بمن تبعه ورحمة، إذ لو وجب لأورث حرجاً ومشقةً، فلما أعز الله الإسلام وأظهره ونصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحالة من مطالبة الكفار بالإسلام أو بأداء الجزية إن كانوا أهل كتاب أو الإسلام، أو القتل إن لم يكونوا أهل كتاب، ويعود هذان الحكمان – أعني المسألة عند الضعف والمسايفة عند القوة – بعود سببهما وليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسالمة بل كل منهما يجب امتثاله في وقته)[٢].

والمراد أن هذه الآيات ليست منسوخة، فإن نسخها يعنى إبطال حكمها إلى يوم القيامة، فحكمها ما زال موجوداً ويصلح للأخذ به فى مثل الظرف والحالة التى نزلت فيها هذه الآيات؛ ألا وهى حالة الضعف وتسلط الكفار على المسلمين .

———————————————

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢ / ٤٣ .
(٢) المرجع السابق ٢ / ٤٣ .

﴿سورة الأعلى﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: فى قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾ وصِف الربُ فى هذه الآيات بأربعة أوصاف ... فما هى ؟

الجواب: وصفت هذه الآيات الكريمات الرب ﷻ بصفات عظيمة تدل على عظيم قدرته وكمال ملكه ألا وهى :

أولاً: أنه الرب الأعلى؛ فلفظ ﴿**ٱلۡأَعۡلَى**﴾ اسمٌ يُفِيد الزيادةَ في صفة العلو؛ أي: الارتفاع، والارتفاع معدودٌ في عُرف الناس من الكمال، فلا يُنسَب العلو بدون تقييد إلا إلى شيءٍ غير مذموم في العرف، ولذلك إذا لم يذكر مع وصف الأعلى مفضَّل عليه أفاد التفضيل المُطلَق، كما في وصفه – تعالى – هنا، فهو ﷻ الأعلى بإطلاق .

ثانياً: ﴿**ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ**﴾ أى خلق المخلوقات فسواها أى أتقنها وأحسن خلقها، وهذا كلام إما أن يراد به خلق الإنسان على الخصوص، أو خلق الكائنات على العموم، فإن أراد به الإنسان على وجه الخصوص فيكون معنى التسوية هنا: خلق الإنسان مستوياً القامة، معتدلاً ،قادراً على القيام، والسير على قدمين، منتصب الظهر، معتدل القامة، عكس غيره من الكائنات فكلها تسير على أربع من غير اعتدال ولا قدرة على القيام، وإن كان الكلام على العموم أى جميع الحيوانات قال: (إن المراد إنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات، وحواس)[١] .

ثالثاً :﴿**وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ**﴾ قال الفخر الرازى عن هذه الآية: (يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدَّر السموات، والكواكب، والعناصر، والمعادن، والنبات، والحيوان، والإنسان، بمقدار

---

(١) مفاتيح الغيب ٣١ / ١٢٦ .

مخصوص من الجثة والعِظَم، وقدَّر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة، ومن الصفات، والألوان، والطعوم، والروائح، والأوضاع، والحسن، والقبح، والسعادة، والشقاوة، والهداية، والضلالة، مقداراً معلوماً على ما قال:﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)**﴾[١]، وتفصيل هذه الجملة مما لا يفي بشرحه المجلدات بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين) [٢] .

وفى مجموع أقوال المفسرين ما يدل على قدرة الله ﷻ فى أن قدَّر أرزاق الخلائق ثم هداها للحصول عليها والوصول إليها، ولذا قيل: (قيل: قدَّر الأرزاق، وهدى لاكتساب الأرزاق والمعاش)[٣] .

رابعاً :﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾ وهو مثل ساقه الله ﷻ لبيان قدرتهوعظيم صنعه، قال صاحب التبيان فى الآية الكريمة: (وفيه قولان:أحدهما: ﴿ **وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)**﴾ أحوى أي: أخضر غض يضرب إلى السواد من شدة الخضرة والري، فجعله بعد خضرته غثاء أي يابساً، والغثاء ما يبس من النبت فحملته الأودية والمياه، والقول الثانى: ﴿**فَجَعَلَهُ غُثَاءً**﴾ أي يابساً، ﴿**أَحْوَىٰ**﴾ أسود من قدمه واحتراقه ، أي فكذلك يميتكم بعد الحياة)[٤].

فالله ﷻ قد ساق هذا المثل لبيان قدرته على إماتة الأحياء ثم بعثهم كما يحدث مع المرعى الأخضر اليانع الذى يتحول حاله إلى اليبس والجفاف .

المسألة الثانية: ما معنى قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وهل يجوز أن ينسى الرسول ﷺ كباقى البشر ؟

والجواب: إن النسيان من الرسول ﷺ لشئ من القرآن الكريم على نوعين: **أَحَدهمَا:** نِسْيَانه الّذِي يَتَذَكّرهُ عَنْ قُرْبٍ، وَذَلِكَ قَائِم بِالطِّبَاعِ

(١) سورة الحجر / الآية ٢١ .
(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ١٢٧ .
(٣) معالم التنزيل ٨ / ٤٠٠ .
(٤) التبيان فى تفسير غريب القرآن ص ٤٥٩، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، دار الصحابة للتراث بطنطا – القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م.

الْبَشَرِيَّة، وَعَلَيْهِ يَدُلّ قَوْله ﷺ فِي حَدِيث اِبْن مَسْعُود ﷺ فِي السَّهْو (إِنَّمَا أَنَا بَشْر مِثْلكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ)، **وَالثَّانِي:** أَنْ يَرْفَعهُ اللَّه عَنْ قَلْبه عَلَى إِرَادَة نَسْخ تِلَاوَته، وَهُوَ الْمُشَار إِلَيْهِ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْله ﷻ :**﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾**.

وعلى هذا فإن النسيان الفطرى البشرى قد يقع منه ﷺ وهذا لا حرج فيه لأنه لا يمس الدعوة ولا يخل بما أمره الله ﷻ بإبلاغه، أما ما أُمِر بإبلاغه للناس فأهل السنة على أنه لا يلحقه شئ من النسيان بل هو محفوظ بحفظ الله منه؛ إلا أن يكون شيئاً قد أراد الله ﷻ نسخه وهو المراد فى هذه الآية الكريمة .

وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآية أيضاً قد نزلت تطمئن الرسول ﷺ بثبوت القرآن فى قلبه وعدم ضياع شئ منه أو تفلته، لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فكان حريصاً كل الحرص على تتبع الوحى من جبريل – عليه السلام – فكانت هذه الآية وعد من الله ﷻ لرسوله ﷺ أنه يقرئه القرآن ولا ينساه الرسول، وكان الرسول ﷺ يتعجل إذا جاء جبريل– عليه السلام – يُلقي عليه الوحي فقال الله ﷻ له: **﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ (١٩)﴾**[1] فصار النبي ﷺ ينصت، حتى ينتهي جبريل من قراءة الوحي ثم يقرأه؛ وقد اطمأن إلى عدم ضياع شئ منه .

المسألة الثالثة: ما الدرس المستفاد للدعاة من قوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ (٩)﴾ ؟

الجواب: تنصح الآية الكريمة الدعاة إلى الله أن يُذَكِروا الناس إن وجدوا للتذكرة والنصيحة فائدة ستعود على المنصوح، وكأنها تدعونا إلى التصرف وفق منهج فقه الواقع ومتغيرات الحياة والأحوال، وأهمية مراعاة قاعدة المفاسد والمصالح المترتبة على التذكرة والنصيحة، لأن مدار كثير من الأعمال الدعوية مبنى على هذه القاعدة .

(١) سورة القيامة / الآيات من ١٦– ١٩ .

فمتى تغلب جانب المفسدة وكان من النصيحة الضرر فالامتناع عنها هو الأوجب، لأن الله تعالى أمرنا بأن نذكر إن كان فى التذكير منفعة، وبمفهوم المخالفة إن لم تنفع التذكرة فالأوجب تركها.

المسألة الرابعة: علام يعود الضمير (ها) فى قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلأَشقَى(١١)﴾ ؟

الجواب: تتحدث الآية عن الاستفادة من الذكرى واتباع النصيحة، فهذا الطريق سيبتعد عنه الأشقى أى الكافر لأنه أشقى من الفاسق، فالكافر يتجنب الذكرى وينفر منها .

المسألة الخامسة: لم وصِفت النار بالكبرى ؟

الجواب: وصف الله ﷻنار جهنم بأنها الكبرى حتى لا يتوهم متوهم أن نار الآخرة مثل نار الدنيا، بل هى النار الكبرى إذا قورنت بغيرها من نيران الدنيا، وقد صدق فيها قول من لا ينطق عن الهوى ﷺ: **(ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم)**[1]، فالنار الكبرى هى نار جهنم، والنار الصغرى هى نار الدنيا .

وقال الزمخشرى: ﴿ٱلنَّارَ ٱلكُبرَىٰ(١٢)﴾ هى: "السفلى من أطباق النار")[2]؛ أى أن النار الكبرى هى درجة من درجات جهنم، فالنار دركات .... أعاذنا الله منها .

المسألة السادسة: علام يعود اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ فى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾؟

الجواب: أشارت الآية إلى أن بعض ما ورد فى هذه السورة الكريمة قد ذُكر من قبل فيما نزل على الرسل السابقين إبراهيم وموسى، قال الفخر الرازى: (والإشارة بكلمة ﴿هَٰذَا﴾ إلى مجموع قوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦)**

---

(١) صحيح البخارى ٣ / ١١٩١ ، ورقمه ٣٠٩٢ .
(٢) الكشاف ٧٤١/٤ .

وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)﴾، فإن ما قبل ذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤)﴾، ليس مما ثبت معناه في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام) [١]. وفى ذلك دليل على أن بعض ما ورد فى القرآن قد نزل على بعض الرسل السابقين، ولذا أورد الإمام السيوطى فى كتابه (الإتقان فى علوم القرآن) أنواعاً من علوم القرآن الكريم ذكر فى النوع الخامس عشر (ما أنزل منه على بعض الأنبياء وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ)، وقد ساق فى هذا النوع ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: (إنه – يعني – النبي ﷺ لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥)﴾[٢]، وحرزاً للأميين... الحديث)[٣].

(وأخرج ابن الضريس وغيره عن كعب قال: فُتِحَت التوراةُ: بـــ ﴿ٱلحَمدُ للَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلأَرضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعدِلُونَ (١)﴾[٤] وختمت: بـــ ﴿وَقُلِ ٱلحَمدُ للَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيك فِي ٱلمُلكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُ وَلِيّ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكبِيرَۢا (١١١)﴾[٥])[٦]. أما وصفه للصحف بالأولى فليس المراد منه أن هذه الصحف هى أول ما نزل، بل المراد بالأولية هنا أسبقية هذه الصحف للقرآن فى وقت النزول، أى أنها نزلت قبله لكنها ليست أولى كلام الله نزولاً فقد روي أن بعض الرسل قبل إبراهيم أنزلت عليهم صحف، فهو كوصف (عاد) بـــ﴿ٱلأُولَىٰ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهلَكَ عَادًا ٱلأُولَى(٥٠)﴾[٧].

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٥٧/٣٠ .
(٢) سورة الأحزاب / الآية ٤٥ .
(٣) صحيح البخارى ٤ / ١٨٣١ ، ورقمه ٤٥٥٨ .
(٤) سورة الأنعام/ الآية ١ .
(٥) سورة الإسراء / الآية ١١١ .
(٦) الإتقان فى علوم القرآن١/١٤٤، عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة سنة ١٣٩٤ه، ١٩٧٤م .
(٧) سورة النجم / الآية ٥٠ .

﴿سورة الطارق﴾

وفيها سبع مسائل :

المسألة الأولى: ما المراد بالطارق فى قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ(١)﴾؟

والجواب: إن هذا السؤال قد أجاب الله ﷻ عنه فيما جاء بعد ذلك من آيات فقال ﷻ: ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ (٢)**﴾ فأجاب أن الطارق هو ﴿**ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ (٣)**﴾، وعلى هذا فمعنى الطارق: (النجم؛ سُمي بذلك: لأنه يَطرُق – أي يطلُع – ليلاً، وكلُّ من أتاك ليلاً فقد طَرَقك، والثاقب: المضئ)[(١)] .

فائدة لا بد منها :

وهنا فائدة لا بد من التوقف عندها ألا وهى إن من شروط المفسر الحق أن يكون حافظاً للقرآن، ملماً به، عارفاً بمعانيه؛ لأن من أولى خطوات التفسير أن يبحث المفسر عن معنى الآية فى القرآن نفسه، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، (فما جاء مجملاً فى موضع جاء مبيناً فى موضع آخر، وقد تأتى الآية مطلقة أو عامة ثم ينزل ما يقيدها أو يخصصها؛ وهذا هو الذى يسمى: بتفسير القرآن بالقرآن)[(٢)]، لعل من أبرز ما يبين ذلك تفسير القرآن وبيانه للكلمات التى تلقاها آدم – عليه السلام – من ربه فلما قالها تاب الله عليه، وهى المذكورة فى سورة البقرة: ﴿**فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)**﴾[(٣)]، فإن هذه الكلمات جاءت مبهمة فى سورة البقرة ، أما سورة الأعراف فقد بيَّنت هذه الكلمات وذكرتها بنصها وذلك فى قوله ﷻ: ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٢٣)**﴾[(٤)]؛ وتفسير القرآن

---

(١) غريب القرآن ١/ ٥٢٣، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨م.
(٢) مباحث فى علوم القرآن ص٣٤٦، مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، ط٣، ٢٠٠٠م.
(٣) سورة البقرة / الآية ٣٧.
(٤) سورة الأعراف / الآية ٢٣.

بالقرآن هو أول ما يجب على المفسر اتباعه، فإن لم يجد المفسر ما أراد تفسيره فى القرآن الكريم بحث عنه فى السنة المطهرة، فإن لم يجد فى السُنَّة بحث عن التفسير فيما ورد من أقوال الصحابة الكرام ﭫ فإنهم أعلم هذه الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ .

المسألة الثانية: ما الحافظ الذى أشارت إليه الآية: ﴿إِن كُلُّ نَفس لَّمَّا عَلَيهَا حَافِظ (٤)﴾ ؟

والجواب: فإن المراد بالحافظ الملائكة، كما روي عن ابن عباس: **﴿إِن كُلُّ نَفس لَّمَّا عَلَيهَا حَافِظ (٤)﴾**: إلا عليها حافظ من الملائكة، وإسناده صحيح كما قال ابن حجر في فتح الباري.

وفي التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ومعناه عند الجمهور: أن كل نفسٍ من بني آدم عليها حافظ؛ يكتب أعمالها، يعني: الملائكة الحفظة)[1] .

ولا مانع من إطلاق الحفظ على الملائكة، فقد قال الله ﷻ في شأنهم: **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾** [2]، وقال الله ﷻ: **﴿وَإِنَّ عَلَيكُمۡ لَحَٰفِظِينَ (١٠)﴾**[3] وقال الله ﷻ: **﴿وَهُوَ ٱلقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيكُمۡ حَفَظَةً﴾**[4]، وقد ذكر ابن كثير في التفسير: **(**أنهم أربعة بالليل، وأربعة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الحسنات والسيئات، واثنان من ورائه وأمامه يحرسانه**)**[5] .

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: **(**قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه، وقال علي ﭬ: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة، وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك يحفظه في نومه

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ، ٣ / ٣٠٧ .
(٢) سورة الرعد / من الآية ١١.
(٣) سورة الإنفطار / الآية ١٠.
(٤) سورة الأنعام / من الآية ٦١.
(٥) تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٤٣٧ .

ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال له: وراءك إلا شيئاً أذن الله فيه فيصيبه)[1] .

المسألة الثالثة: ما معنى الدافق والصلب والترائب التى وردت فى قوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّآء دَافِقِ (٦) يَخرُجُ مِنۢ بَينِ ٱلصُّلبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧)﴾؟

الجواب: وصفت الآية الكريمة أصل خلق الإنسان من الماء الدافق وهو ماء الرجل "المنى" وهو ماء دافق أى متدفق قال الطاهر بن عاشور: (ومعنى دافق خارج بقوة وسرعة والأشهر أنه يقال على نطفة الرجل)[2]، والدفق أيضاً هو الصب، يقال: دفقت الماء أى صببته، ووصِف ماء الرجل بالدافق بمعنى المدفوق لأنه يُصَب فى رحم المرأة، وقيل إن المراد ليس ماء الرجل بل ماء الرجل وماء المرأة معاً، قال الثعلبى: (وأراد ﴿**مِن مَّآء**﴾: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الولد مخلوق منهما، ولكنه جعله ماء واحداً لامتزاجهما)[3].

أما ﴿**ٱلصُّلبِ وَٱلتَّرَآئِبِ(٧)**﴾ فالصلب هو الظهر، وهو عظم الفقار المتصل فى وسط الظهر، أما الترائب فهى جمع مفردها: تريبة، وقد اختلف العلماء فى تحديد الترائب اختلافاً كبيراً، (فقال ابن عباس: موضع القلادة، وعن الوالي عنه: بين ثدي المرأة، وعن العوفي عنه: يعني بالترائب اليدين والرجلين والعينين، وبه قال الضحاك وعن ابن عليّة عن أبي رجاء قال: سئل عكرمة عن الترائب فقال: هذه ووضع يده على صدره بين ثدييه. سعيد بن جبير: الجيد، ابن زيد: الصدر، مجاهد: ما بين المنكبين والصدر، سفيان: فوق الثديين، يمان: أسفل من التراقي، قتادة: النحر جعفر بن سعيد: الأضلاع التي أسفل الصلب، ليث عن معمر بن

---

(١) جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن بن فرج بن رجب، ص١٨٦، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ .

(٢) – التحرير والتنوير ، ٣٠ / ٢٣٣ .

(٣) – الكشف والبيان ١٠/ ١٧٩ .

أبي حبيبة المدني قال: عصارة القلبومنه يكون الولد، والمشهور من كلام العرب أنهما عظام النحر والصدر، وواحدتها تربية)[١].

قال الخازن صاحب التفسير: (قيل إن المني، يخرج من جميع أعضاء الإنسان، وأكثر ما يخرج من الدماغ فينصب في عِرقٍ في ظهر الرجل، وينزل في عروق كثيرة من مقدم بدن المرأة، وهي الترائب فلهذا السبب خصَّ الله تعالى، هذين العضوين بالذِكر) [٢] .

المسألة الرابعة: ما الدلالة الإيمانية فى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ (٩)﴾؟

والجواب: تشير الآية الكريمة إلى ما يجب أن يحذر منه كل عاقل، ألا وهو انكشاف الستر وظهور الخفى من الأعمال والأقوال والنيات يوم العرض على الله ﷻ، فهو يوم عظيم تظهر فيه كل خفايا العبد على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، قال الماوردى: (أن تبتلى بظهور السرائر في الآخرة بعد استتارها في الدنيا)[٣] .

فهذا هو اليوم العظيم، يوم أن تنكشف الخفايا وتعلن البلايا ولا يملك المرء من أمر نفسه شيئاً فلا قوة من ذاته تعينه ولا ناصر خارجى ينصره، والمستور من ستره الله بستره، قال ابن عمر ؓ: (يبدي الله يوم القيامة كل سرّ منها، فيكون زيناً في الوجوه وشيناً في الوجوه، يعني من أدّاها كان وجهه مشرقاً، ومن ضيعها كان وجهه مغبراً)[٤] .

فعلى العاقل أن يستعد لهذا اليوم العظيم بإصلاح دخيلته، وإخلاص نيته، ومراقبة ربه فى السر والعلن، والمداومة على إصلاح سريرته كما يُظهر للناس حسن ظاهره، نسأل الله تعالى أن يسترنا بستره الجميل وألا يفضحنا بين خلقه ولا بين يديه .

---

(١) المرجع السابق ١٠/ ١٧٩ .
(٢) لباب التأويل فى معانى التنزيل ٧ / ٢٣٣ .
(٣) النكت والعيون ٦ / ٢٤٧ .
(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦ / ٤٨١.

المسألة الخامسة: ما الإعجاز فى وصف السماء بذات الرجع، والأرض بذات الصدع ؟

الجواب: وصف الله ﷻ السماء بصفة الرجع ووصف الأرض بصفة الصدع فقال: ﴿**وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ (١١) وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ (١)**﴾ وعندما نتأمل هذين الوصفين نجد فيهما دقة بالغة وإعجازاً قرآنياً عجيباً على النحو الذى سنراه :

أولاً: وصف السماء بالرجع :

الرجع من الرجوع وهو العودة إلى نقطة البداية، معنى هذا أن هناك شيئاً يخرج من السماء ثم يعود إليها، ولذا وصِفت بأنها ذات الرجع، والناظر فى كتب تفاسير القدامى يجد أنهم قد فهموا رجع السماء وحددوه بالمطر، فالمطر ينزل من السماء فى البحار ثم يتبخر جزء من ماء البحر ويصعد إلى السماء فيكوِّن السحاب الذى ينزل منه المطر ثانية فيتبخر الماء ويعود وهكذا فى حركة رجع مستمرة من السماء وإليها، فلم يفهم المفسرون من هذا الوصف إلا أحد معاني الرجع، وهو إرجاع المياه التي تم تبخيرها من على سطح الأرض في صورة أمطار تهطل على مناطق متفرقة.

ولكن اللفظ القرآني لم يقل: ذات المطر، بل قال: ﴿**ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ (١١)**﴾ ويُفهَم منه أن السماء تقوم بإرجاع أمور أخرى غير المطر، وأن دلالات الرجع يجب عدم حصرها فى هذا الإطار الضيق وهو رجع المطر، وفي العقود المتأخرة من القرن العشرين كشف العلم عن صور أخرى لرجع السماء، فمن ذلك :

١- الرجع الاهتزازي للهواء (الأصوات وصداها):

تحتوي الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض (نطاق التغيرات الجوية) على ٧٥ % من كتلة ذلك الغلاف، ويتكون أساساً من غاز النيتروجين (٧٨ % حجماً)، والأوكسجين (٢١.٩٥ % حجماً)، وآثار

خفيفة من بخار الماء، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون، وبعض هباءات الغبار، وآثار أقل تركيزاً من الإيدروجين، الأرجون، الهيليوم، وبعض مركبات الكبريت.

وكل من التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية لهذا النطاق يعتبر من الضرورات الأساس للحياة الأرضية، ومنها القدرة على السمع، فلولم يكن لنطاق الرجع هذه الكثافة الغازية المحددة ما أمكن للاهتزازات المحدثة للأصوات وصداها أن تُسمع.

فعندما تهتز أحبالنا الصوتية تحدث اهتزازاتها ضغوطاً في الهواء تنتشر على هيئة أمواج تتحرك في الهواء في كل الاتجاهات من حولنا، فتصطدم بالجوامد وترتد على هيئة صدى الصوت أو تتلقاها طبلة الأذن لأفراد آخرين فتحدث بها من الاهتزازات والارتدادات ما يمكنهم من سماعها بوضوح، ولولا التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية المحددة لذلك النطاق ما سمع بعضنا بعضًا، ولاستحالت الحياة؛ وذلك لأن الصوت لا ينتقل في الفراغ لعدم وجود جزيئات الهواء القادرة على نقل الموجات الصوتية، وعندما تصطدم الموجات الصوتية بأجسام أعلى كثافة من الهواء، فإنها ترتد على هيئة صدى للصوت الذي له العديد من التطبيقات العملية.

والرجع الاهتزازي للهواء على هيئة الأصوات وصداها هو أول صورة من صور رجع السماء، ولولاه ما سمع بعضنا بعضًا وما استقامت الحياة على الأرض.

٢- الرجع المائي (المطر):

يغطي الماء أكثر قليلاً من ٧١ % من المساحة الكلية للكرة الأرضية، وهذا الماء اندفع كله أصلاً من داخل الأرض عبر ثورات البراكين، وتكثف في الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية والتي تتميز ببرودتها الشديدة، فعاد إلى الأرض ليجري أنهاراً على سطحها، ويفيض إلى

منخفضاتها مكوناً البحار والمحيطات، ثم بدأ هذا الماء في حركة دائبة بين الأرض والطبقات الدنيا من الغلاف الغازي حفظته من التعفن ومن الضياع إلى طبقات الجو العليا، وتعرف هذه الدورة باسم (دورة الماء حول الأرض).

وماء الأرض يتبخر منه سنوياً ٣٨٠.٠٠٠ كيلومتر مكعب أغلبها (٣٢٠.٠٠٠ كم٣) يتبخر من أسطح المحيطات والبحار، والباقي (٦٠.٠٠٠ كم٣) يتبخر من سطح اليابسة، وهذا البخار تدفعه الرياح إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وتحمله السحب حيث يتكثف ويعود إلى الأرض مطراً أو ثلجاً أو بَرَداً، وبدرجة أقل على هيئة ندى أو ضباب.

وحينما ترجع أبخرة الماء من الجو إلى الأرض بعد تكثفها يجري قسم منها في مختلف أنواع المجاري المائية على اليابسة، وتصب هذه بدورها في البحار والمحيطات، كما يترشح جزء منها خلال طبقات الأرض ذات المسامية النفاذية ليكون مخزون الماء تحت سطح الأرض، وهناك جزء يعاود تبخره إلى الجو مرة أخرى.

وماء المطر يسقط على المحيطات والبحار بمعدل ٢٨٤.٠٠٠ كيلومتر مكعب في السنة، وعلى اليابسة بمعدل ٩٦.٠٠٠ كيلومتر مكعب في السنة، وذلك في دورة معجزة في كمالها ودقتها، ومن صور ذلك أن ما يتبخر من أسطح المحيطات والبحار في السنة يفوق ما يسقط فوقها بمعدل ٣٦.٠٠٠ كيلومتر مكعب، وأن ما يسقط من مطر على اليابسة سنويّاً يفوق ما يتبخر منها بنفس المعدل (٣٦.٠٠٠كم٣)، ولما كان الفارق في الحالتين متساوياً تماماً فإنه يفيض من اليابسة إلى البحار والمحيطات ليحفظ منسوب الماء فيها عند مستوى ثابت في الفترة الزمنية الواحدة.

هذه الدورة المعجزة للماء حول الأرض هي الصورة الثانية من صور رجع السماء، ولولاها لفسد كل ماء الأرض الذي يحيا ويموت فيه بلايين

الكائنات في كل لحظة، ولتعرض كوكبنا لحرارة قاتلة بالنهار، ولبرودة شديدة بالليل.

٣- الرجع الحراري إلى الأرض وعنها إلى الفضاء بواسطة السحب:

يصل إلى الأرض من الشمس في كل لحظة شروق كميات هائلة من طاقة الشمس، ويعمل الغلاف الغازي للأرض كدرع واقية لنا من حرارة الشمس أثناء النهار؛ لأن ذراته وجزيئاته تمتص وتشتت وتعيد إشعاع أطوال موجات محددة من الأشعة الشمسية في كل الاتجاهات بعيداً عن الأرض، كما يعمل النطاق الأسفل منه (نطاق الرجع) كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت ويردها إلى الأرض.

ومن الأشعة الشمسية القادمة إلى الأرض يمتص ويشتت ويعاد إشعاع حوالي ٥٣ % منها بواسطة الغلاف الغازي للأرض، وتمتص صخور وتربة الأرض حوالي ٤٧ % منها، ولولا هذا الرجع الحراري إلى الخارج لأحرقت أشعة الشمس كل صور الحياة على الأرض، ولبخرت الماء، وخلخلت الهواء.

وعلى النقيض من ذلك فإن السحب التي تردّ عنّا ويلات حرارة الشمس في نهار الصيف هي التي ترد إلينا (٩٨ %) من أشعة الدفء بمجرد غروب الشمس، فصخور الأرض تدفأ أثناء النهار بحرارة الشمس بامتصاص حوالي ٤٧% من أشعتها فتصل درجة حرارتها إلى ١٥ درجة مئوية في المتوسط، وبمجرد غياب الشمس تبدأ صخور الأرض في إعادة إشعاع حرارتها على هيئة موجات من الأشعة تحت الحمراء تمتصها جزيئات كل من بخار الماء وثاني أكسيد الكربون فتدفئ الغلاف الغازي للأرض، كما تعمل السحب على إرجاع غالبية الموجات الطويلة التي ترتفع إليها من الأرض (٩٨%) مرة أخرى إلى سطح الأرض وبذلك تحفظ الحياة الأرضية من التجمد بعد غياب الشمس.

ولو لم يكن للأرض غلاف غازي لأحرقتها حرارة الشمس بالنهار، ولولا السحب المتكونة في الجزء السفلي من غلاف الأرض الغازي ما رجع إلينا الدفء المنبعث من صخور الأرض بعد تعرضها لحرارة الشمس، ولتشتتت هذه الحرارة إلى فسحة الكون، وتجمدت الأرض وما عليها من صور الحياة في نصف الكرة المظلم بمجرد غياب الشمس. وهذا الرجع الحراري بصورتيه إلى الخارج وإلى الداخل مما يحقق صفة الرجع لسماء الأرض.

٤- رجع الغازات والأبخرة والغبار المرتفع من سطح الأرض:

عندما تثور البراكين فإنها تدفع بملايين الأطنان من الغازات والأبخرة والأتربة إلى جو الأرض الذي سرعان ما يرجع غالبية ذلك إلى الأرض، كذلك يؤدي تكون المنخفضات والمرتفعات الجوية إلى دفع الهواء في حركة أفقية ينشأ عنها الرياح، والغالبية العظمى من المنخفضات الجوية تتحرك مع حركة الأرض -أي من الغرب إلى الشرق- بسرعات تتراوح بين٢٠ و٣٠ كيلومترًا في الساعة، وعندما تمر المنخفضات الجوية فوق اليابسة تحتكّ بها فتبطؤ حركتها قليلاً وتحمل بشيء من الغبار الذي تأخذه من سطح الأرض، وإذا صادف المنخفض الجوي في طريقه سلاسل جبلية معترضة فإنه يصطدم بها مما يعين على إبطاء سرعتها وعلى عود الهواء إلى أعلى، ولما كان ضغط الهواء يتناقص بالارتفاع إلى واحد من ألف من الضغط الجوي العادي -أي عند سطح البحر- إذا وصلنا إلى ارتفاع ٤٨ كيلومتراً فوق ذلك المستوى، وإلى واحد من مئة ألف من الضغط الجوي إذا وصلنا إلى ارتفاع ألف كيلومتر، فإن قدرة الهواء على الاحتفاظ بالغبار المحمول من سطح الأرض تضعف باستمرار مما يؤدي إلى رجوعه إلى الأرض وإعادة توزيعه على سطحها بحكمة بالغة، وتعين على ذلك الجاذبية الأرضية.

٥- الرجع الخارجي للأشعة فوق البنفسجية بواسطة طبقة الأوزون:

تقوم طبقة الأوزون في قاعدة نطاق التطبق بامتصاص وتحويل الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون (O_3)، وترد نسباً كبيرة منها إلى خارج ذلك النطاق، وبذلك تحمي الحياة على الأرض من أخطار تلك الأشعة المهلكة التي تحرق كلاً من النبات والحيوان والإنسان، وتتسبب في العديد من الأمراض من مثل سرطانات الجلد وإصابات العيون وغيرها، ويمكن أن تؤدي إلى تبخير ماء الأرض بالكامل.

٦- رجع الموجات الراديوية بواسطة النطاق المتأين:

في النطاق المتأين -بين١٠٠ و٤٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر- تمتص الفوتونات النشيطة القادمة مع أشعة الشمس من مثل الأشعة السينية، فتؤدي إلى رفع درجة الحرارة وزيادة التأين، ونظراً لانتشار الإليكترونات الطليقة في هذا النطاق فإنها تعكس الإشارات الراديوية القادمة مع أشعة الشمس إلى خارج نطاق الأرض، كما تعكس موجات الراديو المبثوثة من فوق سطح الأرض وتردها إليها فتيسر عمليات البث الإذاعي والاتصالات الراديوية، وكلها تمثل صوراً مختلفة من الرجع.

٧- رجع الأشعة الكونية بواسطة كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض:

يمطر الغلاف الغازي للأرض بوابل من الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الكون، فتردها إلى الخارج كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض، فلا يصل إلى سطح الأرض منها شيء، ولكنها تؤدي إلى تكون أشعة ثانوية قد يصل بعضها إلى سطح الأرض فتؤدي إلى عدد من ظواهر التوهج والإضاءة في ظلمة الليل من مثل ظاهرة الفجر القطبي.

والأشعة الكونية بأنواعها المختلفة تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض، والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين وذلك لعجزها عن عبور مجال الأرض المغناطيسي، ويؤدي ذلك إلى رد غالبية الأشعة الكونية القادمة إلى خارج نطاق الغلاف الغازي للأرض، وما يمكن أن يفلت منها ترده أحزمة الإشعاع، وهذه صورة من صور الرجع لم تعرف إلا بعد ريادة الفضاء في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

٨- إذا اعتبرنا السماء بمعنى الكون وما فيه من نجوم ومجرات وأجرام سماوية مختلفة، فإن كل شيء في الكون يرجع إلى ما كان عليه، هذا ما تسلكه الأجرام السماوية في حركتها الدورية في أفلاكها الخاصة.

وعلى ذلك فإن وصف السماء بأنها (ذات الرجع) في القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين يجمع كل هذه الصور التي نعرفها اليوم، وربما العديد من الصور التي لم نعرفها بعد، وكل هذا في كلمة واحدة وهي (الرجع)، وهذه الكلمة الجامعة هي شهادة صدق بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمداً ﷺ الذي تلقى هذا الوحي الحق هو خاتم أنبياء الله ورسله، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلّماً من قبل خالق السماوات والأرض .

كما أن المتأمل فى الوصف بالرجع يجد جمال الوصف ودقته، فلم يقل:"ذات المطر" فيغلق المجال أمام صور أخرى كثيرة لرجع السماء بخلاف المطر؛ بل عبَّر بالرجع ليفهم منه القدماء ما يتناسب مع مداركهم وإمكاناتهم العلمية، ثم يترك الباب مفتوحاً أمام الأجيال التالية لهم ليكتشفوا المزيد من صور الرجع على النحو الذى ذكرناه آنفاً، وما زال الباب مفتوحاً أمام الأجيال القادمة ليضيفوا ما يكتشفونه إلى معجزة رجع السماء التى عبَّر عنها القرآن الكريم أحسن تعبير بما يصلح لكل زمان ومكان .

ثانياً : وصف الأرض بالصدع :

فسَّر القدماء وصف الأرض بالصدع بأقوال منها: أنه صدع الأرض عن النبات، أو صدع الطرقات فيها، أو صدعها عن الموتى يوم البعث والنشور، أو نحو ذلك ، لكن دلالة الصدع أوسع من ذلك حيث قال العلم الحديث ما عجز القدماء عن اكتشافه، وبيَّن أن أخص صفات الأرض التى تجعلها صالحة لحياة البشر هى صفة الصدع فيها ــ فهى صفة ملازمة للأرض على النحو الذى سنراه :

قوله ﷻ: ﴿**وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ (١٢)**﴾ في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

من المعاني الصحيحة التي فهمها الأولون من القسم القرآني بالأرض ذات الصدع معنى انصداعها عن النبات، أي انشقاقها عنه، ولكن لما كانت لفظة الأرض قد جاءت في القرآن الكريم بمعني التربة التي تغطي صخور اليابسة، وبمعني كتل اليابسة التي نحيا عليها، وبمعني كوكب الأرض كوحدة فلكية محددة، فإن القسم القرآني بالأرض ذات الصدع لابد وأن تكون له دلالة في كل معنى من معاني كلمة الأرض كما نجده في الشرح التالي:

أولاً: انصداع التربة عن النبات:

الصدع لغة هو كسر في الأرض تتحرك الأرض على جانبي مستواه حركة أفقية، أو رأسية أو مائلة؛ وتربة الأرض تتكون عادة من معادن الصلصال المختلطة أو غير المختلطة بالرمل، وهي معادن دقيقة الحبيبات (أقطارها أقل من٠.٠٠٤ من المليمتر) وتتركب أساساً من سيليكات الألومنيوم على هيئة رقاقات متبادلة من كل من السيليكا (ثاني أكسيد السيليكون)، والألومينا (ثالث أكسيد الألومنيوم، مع عناصر أخرى كثيرة، ويحمل كل راق على سطحه شحنة كهربائية موجبة أو سالبة على حسب نوع الصلصال المركب منه.

والصلصال من المعادن الغروية، والمواد الغروية لها قدرة الانتشار في غيرها من المواد نظراً لدقة حبيباتها، كما أن لها القدرة على تشرب الماء والالتصاق بأيونات العناصر، ولذلك فإنه عند نزول الماء على التربة أو عند ريِّها بكميات مناسبة من الماء فإن ذلك يؤدي إلى انتفاشها وزيادة حجمها، فتهتز حبيباتها، وتربو إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق لتفسح طريقاً سهلاً لكل من الجذير المندفع إلى أسفل، والسويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة إلى أعلى حتى تتمكن من اختراق التربة بسلام.

وتظهر على سطح الأرض مستمرة في النمو لتغطي باقي أجزاء النبات. ولولا خاصية انصداع التربة عند نزول الماء عليها أو ريّها ما أنبتت الأرض على الإطلاق، ومن هنا كان ذلك وجهاً من أوجه القسم بالأرض ذات الصدع لأهميته البالغة في إعمار الأرض وجعلها صالحة للحياة.

ثانياً: تصدع صخور اليابسة:

نتيجة لتعرض صخور قشرة الأرض للإجهاد بالشد أو بالتضاغط تتكسر تلك الصخور بواسطة مجموعات من الفواصل المتوازية والمتقاطعة على هيئة شقوق في قشرة الأرض، تمزق صخورها إلى كتل متجاورة دون حدوث قدر ملحوظ من الحركة على جوانب مستويات تلك الشقوق.

كذلك تحدث الفواصل نتيجة لعمليات التعرية التي تقوم بإزاحة كميات كبيرة من الصخور الظاهرة على سطح الأرض، بما يعين على تخفيف الضغط على الصخور الموجودة أسفل منها وبالتالي تخفيف شدة الإجهاد الذي كانت تعاني منه تلك الصخور فتستجيب بالتمدد فتتشقق على هيئة كسور تفصل أجزاء الصخور إلى كتل متجاورة دون حدوث حركة ملحوظة عبر تلك الفواصل.

وغالبية فواصل الأرض تقع في مجموعات متوازية ومتقاطعة في اتجاهين أو أكثر، وإن كان بعضها قد لا يكون له اتجاه محدد وأغلبها قليل العمق. وتحدث فواصل قشرة الأرض كذلك نتيجة لتبرد الصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض قريباً من سطحها أو إلى سطحها على هيئة متداخلات نارية أو طفوح بركانية.

أما صدوع الأرض فهي كسور في قشرتها، يتم عبرها تحرك صخورها على جانبي مستوى الصدع حركة أفقية، أو رأسية، أو مائلة بدرجة ملحوظة، وتتراوح أبعاد تلك الصدوع تبايناً كبيرا، فمنها مالا يرى بالعين المجردة، ولا تكاد الحركة عبر مستواه تدرك، ومنها ما يمتد لعشرات الكيلومترات، وتبلغ الحركة عبر مستواه مبلغاً عظيما.

ومن هذه الصدوع ما يتكون نتيجة لشد صخور الأرض في اتجاهين متعاكسين، ومنها ما يتكون نتيجة للتضاغط في اتجاهين متقابلين، كما أن منها ما يتكون نتيجة انزلاق كتل الصخور عبر بعضها البعض. وتحرك صدوع الأرض النشطة يحدث عدداً من الهزات الأرضية، أما الصدوع القديمة فقد أصبح أغلبها خاملاً بلا حراك.

ولصدوع الأرض أهمية بالغة لأنها تمثل ممرات طبيعية بين باطن الأرض وسطحها، تتحرك عبرها الأبخرة والغازات المحملة بالثروات المعدنية، كما تتحرك المتداخلات النارية والطفوح البركانية المحملة كذلك بمختلف الصخور والمعادن الاقتصادية المهمة وبالعناصر اللازمة لتجديد صخور وتربة سطح الأرض.

والصدوع تلعب أدواراً مهمة في تكوين كل من النتوءات والخسوف الأرضية، والينابيع المائية، وبعض المكامن البترولية، كما تعين عمليات التعرية المختلفة في شق الفجاج والسبل، وفي تكوين الأودية والمجاري المائية، وفي جميع عمليات التعرية وتسوية سطح الأرض، وما يستتبعه

ذلك من تكوين كل من التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من الثروات الأرضية. وكما تكون الصدوع عاملاً من عوامل الهدم على سطح الأرض فإنها قد تكون عاملاً من عوامل البناء، فتبني الجبال والتلال والهضاب، كما تبني الأحواض، والأغوار، والخسوف الأرضية.

ثالثاً: تصدع الأرض ككوكب بواسطة أودية الخسف:

على الرغم من التعرف على عدد من أودية الخسف (الصدوع العملاقة) على سطح الأرض منذ زمن بعيد إلا أن العلماء قد اكتشفوا في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الأودية الخسيفة (الصدوع العملاقة) التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة، ويشبهها العلماء باللحام على كرة التنس.

وتمتد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات في جميع الاتجاهات بأعماق تتراوح بين ٦٥ ــ٧٠ كيلومتراً تحت قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها، وبين ١٠٠ــ ١٥٠ كيلومتراً تحت القارات، ممزقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتطفو هذه الألواح الصخرية فوق نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق لدن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة، وتنطلق فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، حيث تبرد وتعاود النزول إلى أسفل فتدفع معها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة عن بعضها البعض في إحدى حوافها، ومصطدمة مع بعضها البعض عند الحواف المقابلة، ومنزلقة عبر بعضها البعض عند بقية الحواف.

وينتج عن هذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرض عدد من الظواهر الأرضية المهمة التي منها اتساع قيعان البحار والمحيطات، وتجدد صخورها باستمرار عند حواف التباعد، وتكون سلاسل من جبال

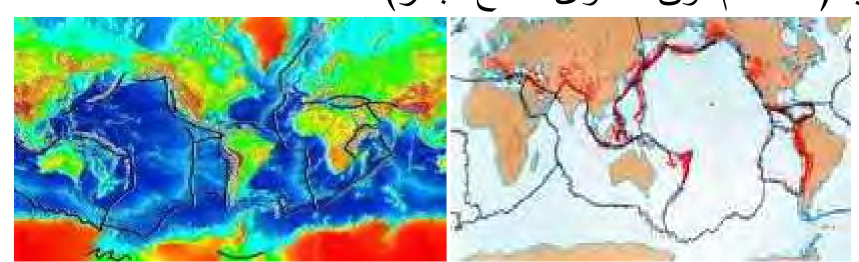
أواسط المحيطات ومن الجزر البركانية، ومنها تكون السلاسل الجبلية عند حواف التصادم حيث يستهلك قاع المحيط تحت كتلتي القارتين المقابلتين له، وتصاحب العمليتان بالهزات الأرضية وبكم هائل من الطفوح البركانية، ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من٦٤٠٠٠ كيلومتر، وهي تتكون أساساً من الصخور البركانية المختلطة بقليل من الرواسب البحرية، وتحيط بالصدوع العملاقة. ومع تجدد صعود الطفوح البركانية عبر هذا الصدع العملاق (الوادي الخسيف) في وسط سلسلة الجبال البحرية يتجدد قاع المحيط بأحزمة حديثة من الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الوادي الخسيف، ويهبط قاع المحيط بنصف معدل اتساع قاعه عند كل من شاطئيه، وبذلك تكون أحدث صخور قاع المحيط حول محوره الوسطي، وأقدمها عند هبوط قاع المحيط تحت كتل القارتين المحيطتين به. وهذه الحركة لألواح الغلاف الصخري للأرض كانت سبباً في زحف القارات، وتجمعها وتفتتها بصورة دورية، فيما يعرف باسم دورة القارات والمحيطات، وفيها قد تنقسم قارة ببحر طولي مثل البحر الأحمر إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان عن بعضهما البعض باتساع قاع البحر الفاصل بينهما حتى يتحول إلى محيط، كما قد يستهلك قاع محيط بالكامل تحت إحدى القارات بدفع كتلة أرضية له تحت تلك القارة حتى يصطدما مكونين أعلى سلاسل جبلية على سطح الأرض، كما حدث في اصطدام الهند بالقارة الآسيوية، وتكون سلسلة جبال الهمالايا، وبها قمة (إفرست) أعلى قمة جبلية على سطح الأرض.

وهذه الصدوع العملاقة (الأودية الخسيفة) التي تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين ٦٥ ـــ١٥٠ كيلومترا، وبطول يقدر بعشرات الآلاف من الكيلومترات في كل الاتجاهات هي مراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة أو مصطدمة أو منزلقة

عبر بعضها البعض. وهذه الصدوع العملاقة تعمل كممرات طبيعية للحرارة المختزنة في داخل الأرض والناتجة عن تحلل العناصر المشعة، ولولاها لانفجرت الأرض. وعبر هذه الصدوع العملاقة تندفع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية على هيئة طفوح بركانية تثري سطح الأرض بالعديد من الصخور والمعادن النافعة، وتجدد شباب التربة الزراعية، وتكون مراكز مهمة لاستغلال الحرارة الأرضية. وعبر هذه الصدوع العملاقة وما صاحبها من فوهات البراكين انطلقت الغازات والأبخرة التي كونت غلافي الأرض المائي والغازي، ولا تزال تنطلق لتجددهما، وخلال تلك العملية تفقد الأرض من كتلتها إلى فسحة السماء بعضاً من مادتها، وطاقتها تتناسب مع ما تفقده الشمس من كتلتها على هيئة طاقة حتى تظل المسافة بين الأرض والشمس ثابتة، لا تنقص فتحرقنا أشعة الشمس، أو تبتلعنا، ودرجة حرارة لهيبها ١٥مليون درجة مئوية، ولا تزيد فيتجمد وتتجمد الحياة من حولنا، أو تنفلت من عقال جاذبيتها فتضيع في فسحة الكون الشاسع، ليس هذا فقط، بل إن الغلاف الصخري للأرض قد تكون أيضاً عبر تلك الصدوع العملاقة، وذلك لأن الكثير من الشواهد الأرضية تشير إلى أن الغلاف الصخري الأول للأرض كان مكوناً من صخور البازلت الشبيهة بصخور قيعان البحار والمحيطات الحالية، وبالصخور المندفعة عبر الصدوع التي تمزقها، وإن الأرض كانت مغطاة بالمياه على هيئة محيط غامر واحد، وبواسطة النشاط البركاني فوق قاع هذا المحيط الغامر تكونت أولى المرتفعات فوق قاعه على هيئة عدد من السلاسل الجبلية في وسطه، ارتفعت قممها لتكون عدداً من الجزر البركانية. ومع تحرك تلك الجزر البركانية تصادمت مع بعضها البعض لتكون نوى عدد من القارات التي نمت بتصادمها مع بعضها لتكون قارة واحدة عرفت باسم القارة الأم Mother Continent orPangaea التي ما لبثت أن تفتتت بفعل ديناميكية الأرض وصدوعها العملاقة إلى القارات السبع الحالية التي ظلت تتباعد عن بعضها حتى وصلت إلى مواقعها الحالية.

وعبر صدوع الأرض العملاقة تكونت القشرة القارية بتركيبها الذي تغلب عليه الصخور الجرانيتية، وأثريت تلك القشرة ولا تزال تثرى بمختلف العناصر والمركبات على هيئة العديد من المعادن والركازات ذات القيمة الاقتصادية، وتكونت السلاسل الجبلية التي تثبت بأوتادها كتل القارات في قيعان البحار والمحيطات، أو تثبت قارتين ببعضهما البعض بعد استهلاك قاع المحيط الفاصل بينهما تحت إحداهما، وثارت البراكين ورجفت الأرض بالزلازل، وتحركت دورات الماء والصخور وعوامل التعرية، وتكونت التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما تختزنه من الثروات الأرضية، وأصبحت الأرض صالحة لعمرانها بالحياة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها (من مثل البحر الأحمر) توجد أيضاً على اليابسة وتعمل على تكوين بحار طولية شبيهة بالبحر الأحمر لتفتيت اليابسة إلى عدد أكبر من القارات وأشباه القارات، وتحاط تلك الصدوع القارية العملاقة بعدد من الجبال البركانية العالية من مثل جبل آرارات في شرق تركيا (٥١٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان فيزوف في خليج نابلي بإيطاليا (١٣٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كيليمنجارو في تنجانيقا (٥٩٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كينيا في جمهورية كينيا (٥١٠٠م فوق مستوى سطح البحر).



صورتان توضحان مجموعة من الصدوع التي تحيط بالأرض والتي تشكل باتصالها صدعاً واحداً وهذا يطابق ما أخبر القرآن الكريم عنه

وجه الإعجاز: تعتبر الصدوع التي تقطع القشرة الصخرية الخارجيـــة من الأرض لعشرات الآلاف من الكيلومترات، وفي جميـــع الاتجاهـــات، ولأعماق تصل إلى ما بين ٦٥ إلى ١٥٠ كم من أبرز علامـــات الكـــرة الأرضية، ولم تكتشف هذه الصدوع إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وتـــم شرحها من خلال نظرية الألواح التكتونية التي تمت صياغتها في أواخـــر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي.

فسبحان الذي وصف الأرض من قبل ألف وأربعمائة سنة بأنها ذات صدع، لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين ٦٥ــ١٥٠ كيلومترا، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل ببعضها البعض وكأنها صدع واحد. وسبحان الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة تفخيماً لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهاراً للعلماء، وأشدها لزوماً لجعل الأرض كوكباً صالحاً للحياة وللعمران، لأنه بدونها لم يكن ممكناً للأرض أن تكون صالحة لذلك، فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض، ولا يزالان يتجددان، وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولي للأرض فتكونت القارات والسلاسل الجبلية، والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وتزحزحت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات وثارت البراكين لتخرج قدراً من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تتكون تلك الصدوع العملاقة، وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مع هذه الثورات البركانية، ونشطت ديناميكية الأرض، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبال.

وهنا نرى في صدوع الأرض أبعاداً ثلاثة: بعد لا يتعدى بضعة ملليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعد آخر في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعد ثالث في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساساً في قيعان المحيطات. كما توجد في بعض أجزاء اليابسة على هيئة أغوار سحيقة تتراوح أعماقها بين٦٥ كيلومترا، و١٥٠ كيلومتراً، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة على هيئة صدع واحد، ونرى أهمية كل بعد من هذه الأبعاد في تهيئة الأرض للعمران. ومن هنا كان القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة، والعلم الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحقيقة إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين، ولم يكن لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام بتلك الحقيقة الأرضية، أو إدراك لشيء من جوانبها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لها قبل ألف وأربعمائة من السنين غير الله الخالق.

وهذا السبق القرآني بالإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية وإلى غيرها من الحقائق الكونية هو ما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم، الذي أوحي إليه القرآن، كان دوماً موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض .

المسألة السادسة: هل يوصف ربنا بالكيد كما فى قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيدا (١٥) وَأَكِيدُ كَيدا (١٦)﴾؟

والجواب : أنه لا يجوز أن يوصف الله ﷻ بالكيد، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم ، وإنما يطلق في مقابل فعل العباد ؛ لأنه في غير المقابلة لا يليق بالله ﷻ، وفي معرض المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة ، والكيد أصله المعاجلة للشيء بقوة وهذا ما أجمع عليه السلف.

وكيد الكفار كما قال الشنقيطى: (إنهم يكيدون للإسلام والمسلمين، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) أما كيد الله ﷻلهم (والله يكيد لهم بالاستدراج حتى يأتي موعد إهلاكهم، وقد وقع تحقيقه في بدر:إذ خرجوا محادة لله ولرسوله، وفي خيلائهم ومفاخرتهم، وكيد الله لهم : أن قلل المؤمنين في أعينهم، حتى طمعوا في القتال، وأمطر أرض المعركة،وهم في أرض سبخة، والمسلمون في أرض رملية فكان زلقاً عليهم وثباتاً للمؤمنين، ثم أنزل ملائكته لقتالهم . والله تعالى أعلم)[١] .

ولا بد من التنبيه على أن أسماء الله ﷻ توقيفية فلا مجال للاجتهاد فيها، أو إضافة أسماء إليها من غيردليل من القرآن الكريم أوالسنة المطهرة، فيجب الوقوف في أسماء الله ﷻ وصفاته على ما جاءت به نصوص القرآن والسنة لا نزيد على ذلك ولا ننقص منه، فلا نسمي أو نصف اللهﷻبمالم يسم أو يصف به نفسه في كتابه أوعلى لسان رسوله ﷺ وذلك لأنه لا طريق إلى معرفة أسماء الله ﷻ وصفاته إلا من طريق واحد هو طريق الخبر، أي : القرآن الكريم والسنة المطهرة .

المسألة السابعة: ما معنى رويدا فى قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا (١٧)﴾؟

الجواب: أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بأن يُنظِرهم ولا يتعجل عليهم، ولا يسأل الله تعجيل إهلاكهم، وأن يرضى بما يدبره في أمورهم، قال ابن عجيبة: (لا تدع بهلاكهم، ولا تُشغَل بالانتقام منهم، بل اشتغل بالله يكفِك أمرهم)[٢]، ﴿**أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا (١٧)**﴾ أى أمهلهم قليلاً ، وقد حدث هذا الإمهال ثم أخذهم الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر فى غزوة بدر فقتل الله ﷻفيها سبعين من أشرافهم، وأسر المسلمون منهم سبعين .

---

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ، ٨ / ٤٩٧ .

(٢) البحر المديد ٨ / ٤٣٥ .

﴿سورة البروج﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأول : بم أقسم الله ﷻ وعلام أقسم فى هذه السورة ؟

والجواب : أقسم ربنا فى هذه السورة بثلاثة أشياء ألا وهى :

القسم الأول: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، قال ابن كثير: **(**يقسم الله ﷻ بالسماء وبروجها وهى النجوم العظام**)**[1]، واختار ابن جرير أن تكون البروج هى منازل الشمس والقمر فقال: (والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة ، ومن ذلك قول الله ﷻ **﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾** وهي منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجا، فمسير القمر في كل برج منها يومان وثلث، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ثم يستتر ليلتين، ومسير الشمس في كل برج منها شهر) [2] ولعل ابن جرير يعنى بها مطالع الشمس والقمر، وقيل إنها الأقسام الاثنا عشر من الفلك كالحمل والثور إلى آخرها ....

وأقوال العلماء فى البروج كلها تدور حول هذا المعنى .

القسم الثانى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ(٢)﴾ أشهر أقوال المفسرين فى بيان المراد باليوم الموعود أنه يوم القيامة، وهو اليوم العظيم الذى وعِد به الناس للقيام والسؤال بين يدى جبار السموات والأراضين.

القسم الثالث: ﴿وَشَاهِد وَمَشۡهُود(٣٢)﴾ تعددت أقوال المفسرين فى تحديد ما الشاهد والمشهود، أما (الشاهد) فله معنيان: الأول: قد يطلق على الحاضر، تقول: "شهد فلان الحرب" أى حضرها، والثاني: يطلق على الناظر أوالرائي، تقول مثلاً: "شهدت الحادثة "، أي: رأيتها.

فمن معاني الشهادة: الحضور، ومن معانيها: الرؤية، ومن هنا تعددت أقوال المفسرين فمن العلماء من قال: المراد بـــ (الشاهد): الحاضر، ومنهم من قال المراد بـــ (الشاهد): الرائي والناظر.

---

(1) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٦٣ .
(2) جامع البيان فى تأويل آى القرآن ٢٤ / ٣٣٢ .

فما الشاهد على تأويل الشاهد بالحاضر؟ للعلماء في ذلك أقوال:

القول الأول: أن (الشاهد): كل الخلائق، والمشهود: يوم القيامة، فالمعنى على هذا التأويل: أن الله يقسم بالناس أو بالخلائق التي ستتشهد موقف الحساب، (فالشاهد) أي: الحاضر وهم الخلائق، و(المشهود): هو يوم القيامة.

القول الثاني: أن (الشاهد) هم الذين يصلون الجمع، يعني: هم الحضور الذين يحضرون صلاةالجمع،و(المشهود): هو يوم الجمعة.

القول الثالث: أن (الشاهد): هم الحجيج الذين يشهدون عرفات، و (المشهود): هو جبل عرفة.

القول الرابع: أن (الشاهد): هم الحجيج، والمشهود: يوم النحر.

فهذه بعض الأقوال في تفسير (الشاهد) بمعنى: الحاضر.

أما قول من ذهب إلى تفسير (الشاهد): بمعنى: الرائي والناظر، أو بمعنى أوسع: (الشاهد): الذي تقوم به الشهادة، وتثبت به الدعاوى، فقد تعددت أقوالهم على النحو التالي:

القول الأول: إن (الشاهد) أي: الشاهد على الخلائق والذي تقوم به الدعاوى، فـــ (الشاهد) هو الله، و(المشهود): هو التوحيد، واستدل لهذا القول بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُم**﴾[1] .

والقول الثاني: إن الشاهد: هو محمد ﷺ، والمشهود: الخلائق أيضاً مشهود عليهم، والذي يشهد للقول الثاني قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيد وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدا (٤١)**﴾[2] .

القول الثالث: إن (الشاهد): هم الأنبياء عموماً، والمشهود عليهم: أممهم.

القول الرابع: إن (الشاهد): أمة محمد ﷺ، وتشهد على سائر الأمم؛ لقول النبي ﷺ: (أنتم شهداء الله في الأرض)، أو (يُدعَى نوح يوم القيامة،

---

(١) سورة الأنعام / من الآية ١٩.
(٢) سورة النساء / آية ٤١ .

فيقال: يا نوح! هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقول قومه: ما جاءنا من نذير، فيقال لنوح: من يشهد لك يا نوح؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته) .

هذه بعض الأقوال في تفسير (الشاهد) و(المشهود)، واختار قوم من أهل العلم العموم، فقالوا: كل ما يصلح أن يطلق عليه شاهد فهو شاهد، وكل ما يصلح أن يطلق عليه مشهود فهو مشهود، وهذا اختيار ابن جرير الطبري رحمه الله ﷻ، فعلى ذلك: يدخل في لفظ (الشاهد) الحجيج الذين يشهدون الحج، والمصلون الذين يشهدون الجمع، والمصلون الذين يشهدون الأعياد، ويدخل في لفظ (الشاهد) الشاهد الذي تثبت به الدعاوى، وعموم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأمة محمد ﷺ، وهذا المسلك يسلكه ابن جرير الطبري رحمه الله ﷻ في مواطن متعددة، فتجده دائماً يجنح إلى القول بالعموم وهو الأولى طالما أمكن الجمع بين الأقوال دون تعارض بينها، وهو ما ينبئك عن فصاحة القرآن واتساع معانيه .

لكن بعد استعراض أقوال العلماء المتنوعة فى الشاهد والمشهود ينبغي لك أن تعلم أن أعظم الشاهدين هو الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدا (٧٩)**﴾[1]، فالله ﷻ من تكلم عنده كمن أسرَّ، ومن ظهر كمن اختفى، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وطوبى لعبد خاف الله ﷻ واتقاه، وعلم أن الله ﷻ هو خير الشاهدين، فما أقفل على نفسه باباً إلا وتذكر عظمة الجبار ﷻ وأن الله ﷻ مطلع عليه، لا تخفى عليه من عباده خافية.

كل ما سبق هو ما أقسم به الله ﷻ، فما المُقسَم عليه ؟

من العلماء من قال: إن جواب القسم هو قوله تعالى: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ**﴾ أى لُعِنوا، وأصحاب الأخدود هم الذين قتلوا المؤمنين، وحفروا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها عقاباً لهم على إيمانهم كما سيأتى .

---

(١) سورة النساء / من الآية ٧٩ .

ومن المعلوم أن كلمة (القتل) كثيراً ما تأتى فى القرآن بمعنى (اللعن) لا بمعنى القتل المعروف، كما فى هذه الآية، ونظيره فى قوله تعالى: ﴿**قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ**(١٠)﴾[١] والخراصون هم الكذابون وهم ملعونون، ومثله قوله تعالى فى سورة (عبس) متحدثاً عن الإنسان الكافر الذى أشرك بالله ﷻ فاستحق أن يكون ملعوناً مطروداً من رحمته ﷻ: ﴿**قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ** ١٧﴾[٢] فالإنسان هنا هو الكافر فهو ملعون بسبب كفره؛ وعلى هذا القول بأن جواب القسم هو ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ**﴾ فيكون الله ﷻ قد أقسم على أن أصحاب الأخدود ملعونون.

بينما يرى بعض العلماء أن جواب القسم ليس هذا، بل جاء متأخراً فى أواخر السورة الكريمة، وهو قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** (١٢)﴾ فيكون الله ﷻ قد أقسم بالسماء وبروجها، وباليوم الموعود، وبالشاهد والمشهود على أن بطشه ﷻ بطش شديد، فعقابه أليم وأخذته للظالمين مفزعة مرهبة ، وربنا الذى وصف نفسه بالغفور الودود هو الذى وصف بطشه بالشديد حتى يعيش المؤمن بين حالتى الخوف والرجاء فلا يجترئ على انتهاك حدود الله ولا يقنط من رحمته .

المسألة الثانية: ما قصة أصحاب الأخدود التى أوردتها السورة الكريمة ؟

الجواب : تعددت أقوال العلماء في أصحاب هذه القصة؛ ومن يكونون على أقوال لعلّ من أظهرها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث صهيب بن سنان –رضي الله عنه–أن رسول الله – ﷺ– قال : (كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبُرقال للملك:"إني قد كبرت فابعث إليَّ غلاماً أعلمه السحر"، فبعث إليه غلاماً يُعلِّمُه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال:"إذا خشيت

(١) سورة الذاريات / آية ١٠ .
(٢) سورة عبس / آية ١٧ .

الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر"، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: "اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟" فأخذ حجراً فقال:"اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس"، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب:"أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبتَلى، فإن ابتُليت فلا تدل عليَّ" وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك – كان قد عمي– فأتاه بهدايا كثيرة فقال:"ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني"، فقال:" إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك"، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: "مَن رد عليك بصرك ؟" قال:" ربي"، قال: "ولك رب غيري ؟"، قال:"ربي وربك الله"، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام، فجئ بالغلام، فقال له الملك: "أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل" فقال: "إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله"، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجئ بالراهب فقيل له: "ارجع عن دينك"، فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار على مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جئ بجليس الملك فقيل له: "ارجع عن دينك" فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جئ بالغلام فقيل له:"ارجع عن دينك" فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: "اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه"، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: "اللهم اكفنيهم بما شئت"، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: "ما فعل أصحابك ؟" قال: "كفانيهم الله"، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: "اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه" فذهبوا به فقال: "اللهم اكفنيهم بما شئت"،

فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك:"ما فعل أصحابك ؟" قال: "كفانيهم الله"، فقال للملك: "إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به"، قال: "وما هو ؟" قال: "تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني" فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال:"باسم الله رب الغلام"، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: "آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام".

فأتى الملك فقيل له: "أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس"، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخُدَّت وأضرم النيران، وقال: "من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له اقتحم"، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام:"يا أمه اصبري، فإنك على الحق") [١].

فمن العلماء من اعتبر هذا الحديث الصحيح هو قصة أصحاب الأخدود التى تحدثت عنها سورة البروج، ومنهم من يرى أن العبرة بمضمون القصة لا في تحديد أشخاصها؛ ولذا أبهم القرآن الأسماء والأشخاص والزمان والمكان في هذه الحادثة الشنيعة التى قُتِل فيها أهل الإيمان حرقاً فى الأخاديد، فما دفعهم هذا العذاب الشديد وما عاينوه من الموت الأكيد إلى التخلى عن التمسك بدينهم والثبات عليه حتى الممات، وهى قصة متكررة متشابهة فى أحداثها فى كثير من الأزمنة والأمكنة؛ حين يتسلط الكفار المجرمون على بلاد المسلمين ويبذلون جهدهم لصد المسلمين عن دينهم، ودفعهم –بشتى صنوف الأذى والعذاب– للتخلى عن توحيدهم لله رب العالمين .

---

(١) صحيح مسلم ، ٢٢٩٩/٤ ، كتاب "الزهد والرقائق" ، ورقم الحديث: " ٣٠٠٥ " .

المسألة الثالثة: ما المراد بقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ (١٣)﴾ ؟

الجواب: قال الشنقيطي: (قيل: يبدئ الخلق ويعيده، كالزرع والنبات والإنسان، بالمولد والموت، ثم بالبعث)[١]، وعلاقة ذلك بقصة أصحاب الأخدود أنها بمثابة تهديد من الله ﷻ للكفرة الظلمة أنهم سيعودون إلى اللهﷻ كما بدأهم، وفيها تصبير للمؤمنين المضطهدين أنهم سيرجعون إلى من بدأهم فيجازيهم أفضل جزاء على صبرهم .

وقيل في معنى البدء والإعادة أن المقصود بهما بدء العذاب وإعادته على الكفار، قال ابن عباس: (إن أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحماً ثم يعيدهم خلقاً جديداً ، فذاك هو المراد من قوله:﴿ **إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ (١٣)**﴾)[٢]، وفيه تهديد من الله ﷻ للظلمة والجبارين، وبيان أن عذاب الله ﷻ واقع بهم يوم الدين .

المسألة الرابعة: ما معنى اسم الله الغفور والودود ؟

الجواب: اسم الله (الغفور) على وزن فعول، وفعول احدى صيغ المبالغة الخمسة التي تدل على عظيم المغفرة وسعتها، قال الفخر الرازي: (قالت المعتزلة : هو الغفور لمن تاب ، وقال أصحابنا : إنه غفور مطلقاً لمن تاب ولمن لم يتب لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ**﴾[٣] ولأن غفران التائب واجب، وأداء الواجب لا يوجب التمدح، والآية مذكورة في معرض التمدح) [٤].

أما اسم الله (الودود) فمأخوذ من الود، قال الزجاج: (هذا يجوز أن يكون فعولاً بمعنى فاعل، ويجوز أن يكون فعولاً بمعنى مفعول) وعلى هذا فإذا كان الودود فعولاً بمعنى فاعل كان المعنى أن الله ﷻ يتودد إلى خلقه بإنعامه عليهم، ولطفه بهم، وتسيير مصالحهم، وقضاء حوائجهم، وإذا

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ٨ / ٤٨٧ .
(٢) مفاتيح الغيب ١ / ٤٧١٥.
(٣) سورة النساء / من الآية ٤٨.
(٤) مفاتيح الغيب ١ / ٤٧١٥.

كان الودود فعولاً بمعنى مفعول فيكون المعنى أن عباده يحبونه ويتوددون إليه ﷻلما يرونه من كريم عطائه الذى لا ينفد، ورحمته التى لا حدود لها، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّا لِّلَّهِۗ**﴾[1].

وفى السورة لطيفة يحسن الوقوف عليها:

ألا وهى العلاقة بين أول السورة وآخرها؛ فالمتدبر المتأمل فى بداية السورة التى أقسم الله ﷻ فيها بالسماء وبروجها وهى العالية المرتفعة فوق الناس لا يستطيع أحد منهم أن يصل إليها بيديه، ولا أن يُغيِّر فيها شيئاً مهما حاول أو أوتى من قوة، ثم تأتى خاتمة السورة لتتكلم عن القرآن المجيد وحفظه، فى قوله ﷻ: ﴿**بَلۡ هُوَ قُرۡءَان مَّجِيد(٢١) فِي لَوۡح مَّحفُوظِۭ (٢٢)**﴾ ليجد بين افتتاح السورة بالقسم بالسماء وخاتمتها بذكر القرآن المجيد صلة بديعة وعلاقة وثيقة كما سيأتى إيضاحه :

السماء لا تستطيع يد بشر أن تصل إليها ولا أن تمسها بسوء، وكذا القرآن المجيد محفوظ من التحريف والضياع، والسماء مرفوعة فوق الرؤوس عالية عن الناس، وكذا القرآن الكريم فى علوه وارتفاعه، كما أن القرآن الكريم نزل من السماء، أضف إلى ذلك أن السماء فيها الشمس والقمر وفيهما النور أو انعكاسه الذى ينير للناس ظلمة ليلهم البهيم، وكذا القرآن العظيم الذى يضئ لهم طريقهم ويحفظهم من ظلمة الفتن وشرور الشيطان، كما أن الناس يهتدون بالنجوم فى السماء كى لا يضلوا الطريق، والقرآن المجيد كتاب هداية لهم يدلهم على طريق الراحة والرضوان والنعيم المقيم فى الجنة ... والله تعالى أعلى وأعلم .

ـــ

(١) سورة البقرة / من الآية ١٦٥.

﴿سورة الانشقاق﴾

وفيها عشر مسائل :

المسألة الأولى: قال الله ﷻ :﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١)﴾هل انشقت السماء أم لم تنشق بعد.؟ وإذا كانت لم تنشق فلم عبرت الآية عنها بالفعل الماضى الذى يدل على انتهاء وقوع الحدث ؟

الجواب: إن هذا الانشقاق سيكون يوم القيامة، وقد عبَّرت الآية عن الانشقاق بصيغة الماضى **﴿ٱنشَقَّتۡ﴾** الذى يدل على وقوع الانشقاق وانتهائه مع أنه لم يقع بعد لأنه سيكون يوم القيامة، للدلالة على تحقق وقوعه لأنه إخبار من الله ﷻ فكأنه قد وقع وحدث وانتهى، وله أمثلة فى القرآن الكريم كثيرة، ومنه قوله ﷻ :**﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾**[1]، فأمر الله ﷻ لم يأت بعد بدليل قوله: **﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾**، ولكن الله ﷻ عبَّر عنه بأنه قد أتى لتحقق وقوعه، لأن أمر الله ﷻ لا ولن يتخلف .

المسألة الثانية: ما معنى قوله ﷻ :﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٢)﴾؟

الجواب: **﴿وَأَذِنَتۡ﴾**هنا بمعنى استمعت وأطاعت، ففي (التبيان فى تفسير غريب القرآن): (**﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾** سمعت لربها، وحُقَّ لها أن تسمع)[2]، وفي تفسير ابن كثير: (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا أي: استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق، **﴿وَحُقَّتۡ (٢)﴾**: أي: وحق لها أن تطيع أمره، لأنه العظيم الذي لا يُمانَع ولا يُغالَب، بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء، وهذا هو المروي عن السلف، فقد روى ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: **﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾** أي: أطاعت، ومن طريق سعيد بن جبير: **﴿وَحُقَّتۡ (٢)﴾**أي حق لها أن تطيع)[3].

---

(١) سورة النحل / من الآية ١.
(٢) التبيان فى تفسير غريب القرآن ، ص ٤٥٦ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ، ٨ / ٣٥٦ .

وفيه دليل على أن كل الكون خاضع للملك، متذلل له، قد امتلأ خوفاً وخشية منه ﷻ .

المسألة الثالثة: ما دلالة حرف الجر (إلى) فى قوله قوله ﷻ :﴿يآأَيُّهَا ٱلإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحا فَمُلَٰقِيهِ (٦)﴾؟

الجواب: حرف الجر (إلى) يفيد انتهاء الغاية، فإذا قلت: (سافرت من السويس إلى القاهرة) فحرف الجر (من) هنا لابتداء الغاية أى بداية السفر، وحرف الجر (إلى) لانتهاء الغاية أى أن سفرى ستنتهى غايته إلى القاهرة، وفى هذه الآية **﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾** دلالة على أن الكدح والتعب ومشقة التكاليف ستنتهى عند لقاء الله ﷻ وبلوغ الغاية بدخول الجنة وعندئذ تتوقف التكاليف وتنتهى مشقة الطاعات، ليبدأ الثواب الأبدى والنعيم السرمدى الذى لا تعب فيه ولا نصب، فقد انتهى الكدح فى الدنيا ليأتى الثواب فى الآخرة، قال الفخر الرازى : (في هذا التفسير نكتة لطيفة وذلك لأنها تقتضي أن الإنسان لا ينفك في هذه الحياة الدنيوية من أولها إلى آخرها عن الكدح والمشقة والتعب؛ ولما كانت كلمة (إلى) لانتهاء الغاية فهي تدل على وجوب انتهاء الكدح والمشقة بانتهاء هذه الحياة، وأن يكون الحاصل بعد هذه الدنيا محض السعادة والرحمة، وذلك معقول، فإن نسبة الآخرة إلى الدنيا كنسبة الدنيا إلى رحم الأم، فكما صح أن يُقال:"يا أيها الجنين إنك كادح إلى أن تنفصل من الرحم" فكان ما بعد الانفصال عن الرحم بالنسبة إلى ما قبله خالصاً عن الكدح والظلمة، فنرجوا من فضل الله أن يكون الحال فيما بعد الموت كذلك) (١)، وقد صدق من قال: (إن مشقة الطاعة ستنتهى ويبقى نعيمها، ولذة المعصية ستنتهى ويبقى عذابها)، فالواجبعلى العاقل أن يصبر على جوع الصيام وتعب القيام وصدالنفس عن الفواحش والمنكرات فى الدنيا ؛ ليُفتَح له باب النعيم فى الآخرة، وما الشجاعة إلا صبر ساعة .

---

(١) مفاتيح الغيب ٣١ / ٩٦ .

المسألة الرابعة: ما الذى ألقته الأرض وتخلت عنه فى قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّت(٣) وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ (٤)﴾ ؟

الجواب: إذا كان يوم القيامة فإن الأرض تلقى ما فى بطنها من الموتى والكنوز وتخرج ذلك على ظهرها وتخلى ما في باطنها فلا يبقى فى بطنها شئ، قال الماوردى: (أنها ألقت ما استودعت وتخلت مما استُحفِظت، لأن الله استودعها عباده أحياء وأمواتاً، واستحفظها بلاده مزارع وأقواتاً) [١] .

المسألة الخامسة: كيف يكون الحساب اليسير يوم القيامة ؟

الجواب: الحساب والعرض على الله ﷻ يختلف باختلاف أحوال العباد، وهو على نوعين:

حساب عرض، وحساب نقاش، فأما حساب العرض فهو الحساب اليسير وفيه لا يناقش الله ﷻ العبد وإنما (تُعرَض أعمال العبد عليه ويعرف أن الطاعة منها هذه والمعصية هذه ثم يُثَاب على الطاعة ويتجاوز عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير؛ لأنه لا شدة على صاحبه ولا مناقشة ولا يقال له: لم فعلت هذا؟ ولا يُطَالب بالعذر فيه ولا بالحجة عليه؛ فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذراً ولا حجة فيفتضح، ثم إنه عند هذا الحساب اليسير يرجع إلى أهله مسروراً، فائزاً بالثواب، آمناً من العذاب، والمراد من أهله: أهل الجنة من الحور العين، أو من زوجاته وذرياته إذا كانوا مؤمنين)[٢]، ففي الصحيح عن صفوان بن محرز المازني، قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر ﵄ آخذ بيده؛ إذ عرض رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إن الله يُدْنِي المؤمن فيضع عليه كنفَه، ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أيْ ربِّ، حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هَلَك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرُها لك اليوم، فيُعطَى كتاب حسناته،

---

(١) النكت والعيون ٦ / ٢٣٥ .
(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ٩٦ .

وأما الكافر والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿**هَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٨)**﴾[١])[٢]، وهذا ليس لكل الناس؛ إنما للمؤمنين فقط. أما النوع الثانى وهو حساب النقاش فصاحبه هالك لا محالة؛ ففيه مطالبة العبد بنتائج النعم، قال تعالى: ﴿**وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ (٢٠)**﴾[٣]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا، وفيه: (فيلقى العبد فيقول: أي فُلْ، ألم أُكرمْك، وأسوِّدْك، وأزوِّجْك، وأسخِّرْ لك الخيل والإبل، وأذَرْك ترأسُ وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننتَ أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني، فيقول: أي فُلْ، ألم أكرمْك، وأسوِّدْك، وأزوجْك، وأسخِّر لك الخيل والإبل، وأذرْك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب، آمنتُ بك، وبكتابك، وبرسلك، وصلَّيت، وصُمْت، وتصدَّقت، ويُثني بخير ما استطاع، فيقول: ها هنا إذًا، قال: ثم يقال له: الآن نبعثُ شاهِدَنا عليك، ويتفكَّر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليَّ؟! فيُختَم على فِيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي؛ فتنطق فخِذُه ولحمُه وعظامه بعمله؛ وذلك ليُعذِرَ من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه)[٤].

المسألة السادسة: وصفت الآيات من أوتى كتابه وراء ظهره بأربع صفات: اثنتين منها فى الدنيا، واثنتين فى الآخرة .. فما هذه الصفات ؟

الجواب: قال الله ﷻ: ﴿**وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ (١٠) فَسَوۡفَ**

(١) سورة هود / من الآية ١٨ .
(٢) صحيح البخاري ٢ / ٨٦٢ ، ورقمه ٢٣٠٩ .
(٣) سورة الأحقاف / الآية ٢٠ .
(٤) صحيح مسلم ، ٤ / ٢٢٧٩ ، ورقمه ٢٩٦٨ .

يَدۡعُواْ ثُبُورا (١١) وَيَصلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهلِهِۦ مَسرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤)﴾ فوصفت هذه الآيات حال من أخذ كتابه من وراء ظهره فخاب حاله، وخسر مآله ولا تعارض بين الآيات التى صرحت بأخذ الكتاب للفجار بشمائلهم وهنا أخذه من راء ظهورهم لأن الكافر قد يأخذه بشماله من وراء ظهره، أو يأخذه بشماله فيضعه وراء ظهره ليخفيه كحال من يخفى خيبته ويدارى جريمته، والله المستعان .

وهذا الخاسر الخائب سيدعو على نفسه بالثبور أى الهلاك والموت، كما قال ربنا ﷻ: ﴿**إِنَّآ أَنذَرنَٰكُمۡ عَذَابا قَرِيبا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلكَافِرُ يَٰلَيتَنِي كُنتُ تُرَٰبا (٤٠)**﴾(١) ثم يدخل النار السعير فيحترق فيها ويصطلى بحرِّها، ثم وصفت هذه الآيات حال هذا الخاسر فى دنياه الفانية بأنه كان مسروراً سعيداً فى أهله، آمناً بين قومه، لا يخاف حساباً ولا نشوراً؛ ومن أمِن الله فى الدنيا أخافه الله يوم القيامة، ومن خاف الله العظيم فى الدنيا آمنه الرب الرحيم يوم القيامة؛ فإن الله ﷻ برحمته لا يجمع على عبده خوفين ولا أمنين، ثم إنه ظن أنه لن يرجع إلى ربه ويحور إليه، فيلقى جزاءه ويأخذ حسابه، ولو تيقن بالبعث وآمن بالحساب ما فرط فى دينه ولا قصر فى طاعة مولاه .

المسألة السابعة: بم أقسم الله ﷻ فى السورة وعلام أقسم ؟

الجواب: أقسم ربنا ﷻ ﴿**بِٱلشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨)**﴾ وقد أقسم بهذه الأشياء على ﴿**لَتَركَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَق (١٩)**﴾.

فأما أول ما أقسم به ربنا فى هذه السورة فهو الشفق (والمراد بالشفق شفقان: شفق أحمر، وشفق أبيض، والشفق هو الحمرة التي تكون في اتجاه غروب الشمس مستعرضة في السماء وهي التي بها يدخل وقت العشاء،

(١) سورة النبأ / الآية ٤٠

قال النبي ﷺ: (وقت العشاء ما لم يغب الشفق) فالمراد بالشفق هنا الشفق الأحمر، أما الشفق الأبيض فقد يمتد إلى منتصف الليل أو إلى قريب الفجر، فالشفق المعول عليه في الحديث في انتهاء وقت المغرب هو الإحمرار الذي يكون في اتجاه غروب الشمس وإذا اختفى هذا الإحمرار دخل وقت صلاة العشاء) .

أما القسم الثانى فقد أقسم ربنا ﷻ بالليل وما وسق أى بالليل وما جمعه وضمه واحتواه تحت جنح الظلام، ومعلوم أن ظلمة الليل تحوى كل المخاوف والشرور؛ ففى ظلام الليل يجتمع الأشرار، وتُحاك مكائد الفجار وتنتشر فيه الشياطين، وتسعى فيه الهوام والحيات، ولهذا استُعيذ بالله من شر الغاسق إذا وقب – وقد تقدم فى سورة الفلق – وقد قال رسول الله ﷺ: (إذا كان جنح الليل أو أمسيتم فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ)[1]. ثم أقسم ربنا ﷻ بالقمر إذا اتسق أى صار متسقاً تاماً كاملاً وهذا إنما يكون فى منتصف الشهر الهجرى وهى المعروفة بالليالى البيض والتى يُسَنُّ فيها الصيام؛ وذلك فى ليالى الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر .

هذا ما أقسم به ربنا لكن ما الذى أقسم عليه ؟

أقسم ربنا بما سبق على ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**(١٩)﴾والمراد بالطبق هنا الحال، وركوب الطبق بعد الطبق أى تبدل الأحوال وتغير الظروف، وفى قراءة ابن كثير وحمزة والكسائى وخلف بالفتح (لتركَبَنَّ) فيكون المقصود بذلك الخطاب هو رسول الله ﷺ حيث أقسم ربنا على أن حال نبيه سيتغير من حال إلى حال؛ فهو فى مكة مستضعف وحيد، قليل الناصر والأتباع؛ ثم سيصير حاله فى المدينة قوياً ،كثير الأصحاب مرهوب الجانب، أو لتعلون منزلة بعد منزلة، وشرفاً بعد شرف وقربة إلى الله ﷻ بعد قُربَة،أو أن القسم يشير إلى معراجه ﷺ وصعوده السموات

(١) صحيح البخارى ، ٣ / ١٢٠٣ ، ورقمه ٣١٢٨ .

سماء بعد سماء .

وقرأ الباقون بالضم ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ فالمخاطب به الناس جماعات وفرادى، لتدل الآية على أن الأصل فى الإنسان تقلب أحواله وعدم ثبوته على حال واحدٍ ، فقد كان جنيناً فوليداً فصغيراً فبالغاً فشاباً يافعاً فرجلاً عاقلاً فكهلاً فشيخاً فعجوزاً هرماً ، تتقلب به دنياه ما بين حال الفقر والغنى، والصحة والمرض، والسعادة والحزن، والضحك والبكاء، والشغل والفراغ، والجوع والشبع، والرى والظمأ، والنوم واليقظة، والاجتماع والانفراد، والراحة والتعب والعزة والذلة، والأنس والوحشة، إلى آخر هذه الأحوال التى لا تكاد تنتهى لتثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام إرادة القوى العزيز .

المسألة الثامنة: ما الدرس المستفاد من قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَعلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣)﴾؟

الجواب: أن الله ﷻ أعلم بما يضمرونه فى أنفسهم ويخفونه فى دخائل صدورهم، وفى الآية درس للمؤمن فى وجوب مراقبة الله ﷻ فى سره وعلانيته، وإخلاص قلبه لخالقه، ومراقبه سريرته التى لا يطلع عليها إلا من يعلم السر وأخفى، لأن الله ﷻ يعلم ما وعاه قلبه وانطوى عليه فؤاده .

المسألة التاسعة: ﴿فَبَشِّرهُم﴾ البشارة تكون للأمر السار فكيف تكون البشارة هنا لهم بالعذاب الأليم ؟

الجواب: فى قوله ﷻ: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)﴾ والأصل فى البشارة أن تكون فى الإخبار عن الأمر السار وما يُبهج القلب ويُدخل عليه الفرح والسرور، ولكن الآية جاءت تُبشر الكافرين بعذاب أليم، وهو لون من ألوان السخرية فى الأسلوب والاستهزاء بهم، والضغط على مشاعرهم وأحاسيسهم، وهو نوع من أنواع العذاب النفسى، حيث يأتى كلمة فبشرهم فينتبهون فى انتظار أن يقرع الخبر السار مسامعهم، فإذا البشارة التى انتظروها إنما هى العذاب الأليم .

المسألة العاشرة: كيف يكون الأجر غير ممنون، فى قوله ﷻ: ﴿لَهُمْ أَجرٌ غَيرُ مَمنُونِۢ (٢٥)﴾؟

الجواب: أن الأجر يكون غير ممنون بتحقق أمرين :

الأول: عدم انقطاعه واستمراره، والثانى: عدم منة صاحب الأجر لمن يعطيه، وكلا الأمرين من الله واقع، فثوابه لا ينقطع ولا ينتهى، وأجره لا منة فيه ولا تمنن .

﴿سورة المطففين﴾

وفيها ثمانى مسائل :

المسألة الأولى: من هم المطففون الذين تحدثت عنهم السورة الكريمة ؟

الجواب: إن أفضل تفسير للمطففين أن نفسره بما فسره القرآن الكريم ويدخل هذا تحت باب (تفسير القرآن بالقرآن) وهو أعلى درجات التفسير، والتطفيف هو التنقيص، وعندما ننظر فى الآيات بعدها نجدها تصف المطففين بصفات، فهم :

﴿**إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ(٢)**﴾ أى إذا أرادوا أخذ ما لهم أخذوه بزيادة، فهم فى حال الوزن لهم يزنون بالزيادة فيظلمون الناس، وإذا اشتروا من شخص طالبوه بأن يزيد فى الميزان ليأخذوا أكثر من حقهم .

﴿**وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ (٣)**﴾ أى إذا أرادوا أداء ما عليهم أدوه منقوصاً غير مستوفٍ، ففى حال الوزن للناس يخسرون الميزان ولا يرجحونه .

ولعل من أفضل ما ترشدنا إليه الآية هو مبدأ الحقوق والواجبات، فطلب الحق الذى لك وإهمال الواجب الذى عليك هو عين التطفيف، فالمطففون ليسوا فى مجال الوزن والتجارة فحسب، بل إن مفهوم الآيات أشمل وأوسع ليشمل كل معاملة فيها الحقوق والواجبات، فالزوج الذى يطلب حقوقه كاملة من زوجه ولا يؤدى ما عليه من واجبات تجاهها هو من المطففين، والوالد الذى يطالب أبناءه ببره وأداء حقه ثم هو يهمل واجبات أبوته تجاه أبنائه هو من المطففين، وكذا المدير فى إدارته الذى يسعى لنيل كافة حقوقه من عماله ثم يغمطهم حقوقهم ولا يوفيهم جزاءهم هو من المطففين، وهكذا يمكن أن تتسع دائرة المطففين ولا تقتصر على

من يبخس حق الناس فى ميزان التجارة ويستوفى الوزن لنفسه فحسب، بل تشمل الدائرة كل من له حق وعليه واجب، حيث يجب على الجميع كما يطالبون بحقوقهم كاملة أن يؤدوا واجباتهم غير منقوصة، ليأخذ كل ذى حق حقه، فيعم السلام وتنتشر المحبة والوئام وهذا مراد القرآن وغايته .

المسألة الثانية: ما الدرس الإيمانى المستفاد من قوله ﷻ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ(٥)﴾؟

الجواب: تُشعِرُك الآيتان أن هؤلاء المطففين ما فعلوا هذا الجرم ولا اجترؤا على أكل حقوق الناس إلا لأنهم نسوا يوم البعث والوقوف بين يدى الله ﷻ؛ ولذا كان من أعظم ما يمنع به الإنسان نفسه من الوقوع فى الزلل أن يجعل يوم البعث والوقوف بين يدى الله ﷻ ماثلاً نصب عينيه؛ فيكون ذلك له رادعاً عن الوقوع فى المعاصى، ومن ثم فقد حثنا رسول الله ﷺ على الإكثار من ذكر هاذم اللذات وهو الموت، فلا يُذكر الموت فى سعة إلا ضيقها ولا فى ضيق إلا وسعه ... والله المستعان .

المسألة الثالثة: ما كتاب الفجار ؟ وما كتاب الأبرار ؟ وأين يكونان ؟

الجواب: كتاب الفجار هو ذلك الكتاب الذى كُتِبت فيه أعمال الكافرين، وكتاب الأبرارهو الكتاب الذى كُتِبت فيه أعمال الأبرار المتقين، وقد وصفت الآيات كتاب الفجار بأنه فى سجيل، وورد فى تفسير سجيل أقوال عدة كلها تدور حول الخسارة والسفال والنار وقد رجح نفر من العلماء – منهم فضيلة شيخنا أبى عبد الله مصطفى العدوى – أن يكون المراد من سجيل سجن في الأرض السابعة السفلى، ودل على ذلك حديث النبي ﷺ فى مصنف ابن أبى شيبة في قصة نزع روح المؤمن وروح الكافر (أن روح الكافر تصعد فلا تفتح لها أبواب السماء ويقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى)[١]، فهو سجن في الأرض السابعة السفلى .

---

(١) المصنف فى الآحاديث والآثار، أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبى شيبة، ٣ / ٥٤ ، ورقمه ١٢٠٥٩، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩ه .

أما كتاب الأبرار فهو فى عليين على عكس كتاب الفجار الموضوع فى سجين، وعليون من العلو والارتفاع وهو مستقر كتب الأبرار في السماء السابعة بنص حديث البراء السابق (اكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء السابعة)[1] ثم هو مع رفعة مكانه وعلو شأنه يشهده ويراه ويطلع عليه المقربون وهم الملائكة المقربون من الله ﷻ، وفي قوله ﷻ: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ(٢١)﴾ حث للعبد على أن يُحسن عمله لأن كتاب أعمال المؤمن فى عليين ينظر إليه الملائكة المقربون فى السماء، ولو علم العبد أن سريرته وعلانيته ستعرضان على إخوانه من أهل الدنيا لاجتهد فى إصلاحهما فما بالك إذا كانت أعمالك ستعرض على الملائكة المقربين؛ يطلعون على ما فيها من أفعال، ويقرأون ما فيها من أقوال، فالأحرى بالعبد أن يستحى من الله ﷻ حق الحياء، ثم يستحى من الملائكة المقربين التى لا تعصى الله تعالى ولا تفعل إلا ما يرضيه .

المسألة الرابعة: ما الران الذى ورد فى قوله ﷻ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (١٤)﴾ ؟

الجواب: الران هو أثر المعاصى فى القلب وهو سواد يعترى القلب ويغشاه فكلما فعل العبد معصية نكت فى قلبه نكتة سوداء فإذا تكرر الذنب بعد الذنب تكررت النكات السوداء فغطت القلب وصارت حاجزاً ومانعاً لنور الإيمان أن يصل إلى القلب، فإذا استمع إلى القرآن والموعظة لم يجد لذلك أثراً فى قلبه، لكن العبد إذا استغفر وتاب مُحيت أثر هذه المعاصى من قلبه، ولذا فإن للمعاصى أثر فى موت القلب، وللاستغفار أثر فى حياة القلوب. وقد أخبر النبي ﷺ: (إذا أذنب العبد ذنباً نكتت على قلبه نكتة سوداء فإن تاب وأقلع محيت، وإن عاد وأصر نكتت نكتة أخرى سوداء حتى يغطى القلب كله، ثم قال: هذا هو الران الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (١٤)﴾).

---

(١) هذا جزء من الحديث السابق .

المسألة الخامسة: قال الله: ﴿يُسقَوۡنَ مِن رَّحِيق مَّخۡتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسك وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ (٢٧) عَينا يَشرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾ وصفت هذه الآيات شراب الأبرار بصفات.. فما هى ؟

الجواب: الرحيق هو الخمر وهو شراب من بين أشربة الجنة الكثيرة، وقد وصفته الآيات بأنه مختوم قيل: إن كؤوس الخمر التى أُعِدت للأبرار مختوم بأختام من مسك فلا يفكها إلا من أراد الشرب منها، قال القرطبى: (وقيل: مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يفك ختامها الأبرار)[1]، وهذا الختم تكريم لهذه الأوانى حتى لا يمسها غيرهم، وقد بلغ من ترفهم ونعيمهم أن جُعِلت هذه الأختام من مسك .

وقيل: بل المختوم هنا بمعنى المخلوط فهذا الرحيق مخلوط بالمسك، قال ابن كثير: (وقال ابن مسعود في قوله تعالى ﴿**خِتَٰمُهُۥ مِسك**﴾أي خلطه مسك، وقال ابن عباس: طيب اللّه لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك)[2]. وقيل: بل المعنى أن آخر الشراب وخاتمته رائحة المسك، على خلاف خمر الدنيا الخبيثة الطعم والرائحة، وقد صارت هذه الجملة مضرب المثل فى حُسن ختام الأمور، فيقال: "ختامه مسك" .

ثم إن هذا الرحيق ﴿**وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ**﴾ يقال: امتزج الشئ بغيره إذا اختلط به، والمعنى أن هذا الرحيق أى الخمر مخلوط بشئ من التسنيم، والتسنيم هو اسم عين راقية قد أعدها الله للمقربين؛ يشربون منها خالصة صافية، ويؤخذ منها فيخلط فى شراب غيرهم من أهل الجنة، ولذا قال الله عنها:﴿**عَينا يَشرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢٨)**﴾ أى أن عين التسنيم، (عين يُمزَج بها الرحيق لأصحاب اليمين، وأما المقرّبونفيشربونها صِرْفًا)[3]، ومعنى صِرفاً أى خالصة غير مختلطة بغيرها .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم ، ١٩ / ٢٦٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ٨ / ٣٥٣ .
(٣) تفسير الطبرى ، ٢٤ / ٣٠٠ .

﴿**وَفِي ذَٰلِكَ**﴾ أي: وفى ذلك النعيم ﴿**فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ**﴾ أي: فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله ﷻوثوابه العظيم .

المسألة السادسة: ما الدرس المستفاد من قوله ﷻ :﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾؟

الجواب: إن الآية الكريمة تفتح باب المنافسة فى ميدان الطاعة، والمنافسة فى الإقبال على الله ﷻ، فهذا هو باب التنافس الحقيقى الذى يجب أن يسعى إليه المؤمن، فينظر إلى من هو أعلى منه فى الدين، ويحرص على منافسته ومزاحمته على أبواب المساجد، وحلق العلم، وميادين الإنفاق، ومجالات الخير، على عكس ما عليه حال أغلب الناس اليوم؛ فمجال المقارنة والمنافسة عندهم فى أمور الدنيا، حتى صار الحال فى بعض دول الإسلام أن كتبوا هذه الآية الكريمة: ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ**﴾ على أبواب ميادين الرياضة وستادات كرة القدم، فجعلوا المنافسة فى هذا المجال، وحولوا اهتمام الشباب المسلم من التنافس فى ميادين العلم والجهاد إلى بذل الجهد وإفراغ الطاقة وفتح باب التعصب من أجل كرة من الجلد تتقاذفها أرجلهم وتلعب بعقولهم، وما هذا – والله – إلا من البعد عن تدبر كتاب ربنا وتنكب طريقه وإبعاد شباب الأمة عن المسارعة فى أبواب الخير وميادين الثواب .

المسألة السابعة: وصفت الآيات إجرام المجرمين فى الدنيا بأربع صفات ... فما هى ؟

الجواب: وصفت الآيات المجرمين فى الدنيا فى تعاملهم مع المؤمنين بأنهم: ﴿**كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (٢٩)**﴾ أى كانوا فى الدنيا يأخذون من المؤمنين مادة للتندر والسخرية والضحك والاستهزاء .

﴿**وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ (٣٠)**﴾ أى: يغمز بعضهم لبعض بإشارات أيديهم وحركات وجوههم؛كفعل أهل البطالة وسوء الأدب؛ فى محاولة منهم لاستجداء الضحك من التافهين وإحراج المؤمنين .

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١)﴾ أى: إذا عاد هؤلاء المجرمين إلى بيوتهم وأصحابهم رجعوا وهم فى حالة من الابتهاج والفرح بما فعلوه مع المؤمنين، وهو ما يوضح موت الضمير عندهم، وخبث أنفسهم، وانعدام مبدأ محاسبة النفس ومراجعة الأخلاق .

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢)﴾ ومن العجب أن يتكلم هؤلاء الضالون المجرمون عن الهداية والضلال وينسبون أهل الإيمان إلى الضلال ويبرئون أنفسهم منه، وتلك عادة المجرمين منذ بدء الدعوة إلى الله وإرسال الرسل من لدن نوح – عليه السلام – إلى يومنا هذا منذ أن سخر مشركو قوم نوح منه ومن مؤمنى قومه، وقالوا ما حكاه القرآن الكريم عنهم:﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾[1] وتستمر حملة السخرية من المؤمنين، والحط من أقدارهم، والاستهزاء بتمسكهم بدينهم حتى يومنا هذا، والناظر إلى أصحاب الأفكار الغربية من العلمانيين ومن سار على دربهم من بعض الإعلاميين وممن يسمون أنفسهم أهل النخبة والفكر فى كثير من مجتمعاتنا العربية لا يجد لهم هماً إلا السخرية من تمسك المسلم بدينه وسنة نبيه ﷺ فيسخرون ممن أعفى لحيته، أو قصَّر ثوبه، أو حمل السواك فى جيبه، أو لبست النقاب واتشحت بالسواد، ويعتبرون هذا من باب التخلف والرجعية، فى الوقت الذى تجدهم يصفقون لكل وارد من بلاد الغرب مهما خالف قواعد الدين وأصول الأخلاق ... والله المستعان .

فلتحذر – أخى الحبيب – من أن تقع فى هذا الذنب العظيم ولتحرص على إحياء سنة نبيك ﷺ مهما قابلتك عواصف السخرية وصيحات الاستنكار، ولتكن من الغرباء المعتصمين بالكتاب والسنة فى متاهات الفتن حتى يجمعنا ربنا مع نبينا ﷺ على الحوض .

---

(١) سورة هود / من الآية ٢٧ .

المسألة الثامنة: كيف كانت عقوبة الكافرين فى الآخرة ؟

الجواب: لما كان الجزاء من جنس العمل، فقد عاقب الله المجرمين الساخرين والمستهزئين من المؤمنين فى الدنيا بأن أدخلهم النار، وأدخل المؤمنين الجنة، جالسين على الآرائك، متكئين فيها، ينظرون إلى الكفار وهم فى النار يُعذبون، فيضحكون منهم، ويتذكرون نعمة الله عليهم وانتقامه لهم .

قال الله ﷻ: ﴿**هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (٣٦)**﴾، قال السعدى – رحمه الله – : (أي: هل جوزوا من جنس عملهم ؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال، نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم)[١] .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ٩١٦/١- ٩١٧ .

﴿سورة الانفطار﴾

وفيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: ما علامات القيامة التى ذكرتها السورة الكريمة ؟

الجواب: ذكرت السورة فى افتتاحها أربعةأشراط لقيام الساعة وبدء القيامة، اثنتين منه علوية، واثنتين سفلية فأما العلوية فهما: الأولى والثانية، وأما السفلية فهما: الثالثة والرابعة ...

فالأولى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ (١)﴾ والانفطار هو الانشقاق؛ ولكن هل بينهما فرق من حيث المعنى ؟

أغلب المفسرين على أنهما بمعنى واحد، فالانشقاق فُسِر بالانفطار وكذا الانفطار بالانشقاق؛ فانفطرت أى انشقت، وهذا ما اختاره ابن جرير، وابن عاشور، وغيرهم من المفسرين، قال ابن عاشور: (والظاهر أن هذا الانفطار هو المعبر عنه بالانشقاق أيضاً في سورة الانشقاق؛ وهو حدث يكون قبل يوم البعث، وأنه من أشراط الساعة، لأنه يحصل عند إفساد النظام الذي أقام الله عليه حركات الكواكب وحركة الأرض؛ وذلك يقتضيه قرنه بانتثار الكواكب وتفجر البحار وتبعثر القبور)[١]، بيد أن البعض يوجد بينهما فرقاً دقيقاً ، فقد قال الراغب في "مفردات القرآن" في مادة فطر: (أصل الفَطْر: الشق طولاً)[٢]، ومعنى كلامه: أن بين الفطر والشق عموماً وخصوصاً مطلقاً: فكل فطر شقٌ، وليس كل شقٍ فطراً، لأن الفطر هو الشق الذي يكون بالطول، والشق يكون على أي جهة، وقيل إن الانفطار يقع أولاً فى السماء ثم يتبعه الانشقاق، ويُستدل على ذلك بتقدم سورة الانفطار فى ترتيب المصحف على سورة الانشقاق. والله أعلى وأعلم ...

والثانية: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ (٢)﴾: وهذا مترتب على انفطار

---

(١) التحرير والتنوير ، ٣٠ / ١٥١ .
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الحسين بن محمد الراغب الأصفهانى ، ٢ / ١٩٨ .

السماء وما يحدث فيها من شقوق وتصدعات؛ فتنتثر الكواكب أى: تسقط متفرقة؛ لأن الانتثار هو السقوط مع التفرق .

أما الثالثة: ﴿**وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣)**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: (فجَّر الله بعضها فى بعض)[١] فإذا فُجِّرت اختلطت فتداخل المالح مع العذب، وزالت تلك الحدود والحواجز بينها، قال الفخر الرازى: (ينفذ بعض البحار في البعض بارتفاع الحاجز الذي جعله الله برزخاً، وحينئذ يصير الكل بحراً واحداً، وإنما يرتفع ذلك الحاجز لتزلزل الأرض وتصدعها)[٢] .

والرابعة: ﴿**وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَت (٤)**﴾ أى أثيرت وقُلِب أسفلها أعلاها وباطنها ظاهرها، فتخرج أثقالها بسبب هذه البعثرة، وأثقالها: إما الأموات تخرج من قبورها، وإما الكنوز تخرج من بطونها، وذلك لأن من أشراط الساعة أن تخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها ثم يكون بعد ذلك خروج الموتى. قال الفخر الرازى فى ترتيب هذه العلامات هذا الترتيب المتقن الدقيق: (فائدة هذا الترتيب واعلم أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا وانقطاع التكاليف، والسماء كالسقف والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف وذلك هو قوله: ﴿**إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١)**﴾ ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب وذلك هو قوله:﴿**وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢)**﴾ ثم إنه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض وهو قوله ﴿**وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ(٣)**﴾ ثم إنه جل جلاله يخرب آخر الأمر الأرض التي هي البناء وذلك هو قوله: ﴿**وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)**﴾ فإنه إشارة إلى قلب الأرض ظهراً لبطن وبطناً لظهر)[٣] .

المسألة الثانية: ما الوقفة الإيمانية فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦)﴾؟

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٥٨٢ .
(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ٧١ .
(٣) المرجع السابق ٣١ / ٧١ .

الجواب: هذه الآية لها وقع شديد فى نفس المؤمن اللوامة على وجه الخصوص؛ إذ فيها تذكير للعبد بإحسان الله له ثم عقوق العبد وجرأته على سيده ومولاه، نعم ... ما غرك أيها العبد الفقير الضعيف بربك وسيدك الغنى القدير، أتعصيه وهو القادر عليك ؟ أتستتر بالمعاصى وهو معك أينما كنت ؟ أتحارب شريعته وتهاجم ملته ورزقك وحياتك وأنفاسك بين يديه ؟ سل نفسك: ما غرك ؟ حلمه عليك وأنت تُعَاديه ؟ ستره لك وأنت تجاهر بمعاصيه ؟ رزقه إياك وأنت تضيع الصلاة تلو الصلاة ... ما غرك أيها الضعيف مع قوته ؟ ما غرك أيها الفقير مع غناه ؟ ما غرك أيها البعيد مع قربه ؟

ولما قيل للفضيل بن عياض: "لو أقامك الله يوم القيامة فقال: ما غرك بربك الكريم ماذا كنت تقول ؟ قال: "أقول غرنى ستورك المرخاة " ، وقال يحيى بن معاذ : "لو أقامني بين يديه فقال ما غرك بي ؟ فأقول: غرني بك بِرُّك بي سالفاً وآنفاً، وقال أبو بكر الوراق "لو قال لي: ما غرك بربك الكريم، لقلت: "غرني كرم الكريم" .

ومن أجمل ما قرأت فى هذه الآية قول بعضهم: "إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه يلقنعبده الإجابة حتى يقول :غرني كرم الكريم". فيا أكرم الأكرمين ما أوسع رحمتك وأكرم سترك وأجمل عفوك، وأنت أهل البر والإحسان فالخير فيك مأمول والجود منك موصول ... اللهم كما سترتنا فى الدنيا بجميل عفوك مع قبح معاصينا؛ فاسترنا يوم العرض عليك فإن الكريم إذا ستر لا يفضح، والجواد إذا منح لا يقطع .

المسألة الثالثة: امتن الله ﷻ على الإنسان فى خلقته ... فما وجه المنة فى ذلك ؟

والجواب: إن الله ﷻ قد هيأ الإنسان فى خلقته ليكون خليفته فى هذا الكون، وسيداً لسائر المخلوقات على ظهر الأرض، فخلقه فى أحسن

طريقة وأعدل هيئة، فكل الحيوانات منكوسة الوجه لأسفل، وتمشى على أربعة أرجل، أما الإنسان فقد أكرمه الله ﷻ بحسن الخلقة واستواء القامة والسير باعتدال، (وقال عطاء عن ابن عباس: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية)[1].

----

(١) تفسير السراج المنير ٣٦٢/٤ .

﴿سورة التكوير﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: ما علامات الساعة التى بدأت بها السورة الكريمة ؟

الجواب: ذكرت سورة التكوير اثنتى عشرة علامة من علامات الساعة ست منها فى الدنيا وهى الست الأوَّل، وست فى الآخرة وهى الست الأُخَر... وتفصيل هذه العلامات كما يلى :

الأولى: ﴿إِذَا ٱلشَّمسُ كُوِّرَتۡ (١)﴾: وقد تعددت أقوال المفسرين فى بيان معنى التكوير على أقوال عدة بلغت قرابة عشرة أقوال، فمنها : لف بعضها على بعض فانطمس نورها، وقيل: ألقيت في البحر، وقيل: دخلت في العرش، وقيل: اضمحلت، وقيل: نكست، وقيل غير ذلك، لكن الملاحظ أن كل هذه الأقوال تدور حول انتهاء دور الشمس ودخول الاختلال على نظامها الدقيق، قال الشنقيطى: (والذي يشهد له القرآن أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها، لأن الله تعالى جعل لها أجلاً مسمى، ومعنى ذلك أنها تنتهي إليه على الوجه الذي يعلمه سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً**﴾ فمفهومه: أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها) [١] .

ولعل أقرب الأقوال المنقولة في ذلك هو القول بأن تكوير الشمس بمعنى نُكِست أي رُدَّت إلى حيث أتت ، كما هو معروف من طلوعها من مغربها إذا كانت الساعة، وعليه فتجتمع مع القمر.

الثانية :﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ (٢)﴾أى تساقطت على الأرض وذهب نورها، قال البغوى: (قال الكلبي وعطاء:تمطر السماء يومئذٍ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع)[٢] .

الثالثة: ﴿وَإِذَا ٱلجِبَالُ سُيِّرَتۡ (٣)﴾ أى تحركت من أماكنها، وزحزحت عن مواضعها، فصارت كأنها السحاب فى السير.

---

(١) أضواء البيان ٨ / ٤٣٧.

(٢) معالم التنزيل ، ٨ / ٣٤٦ .

الرابعة : ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ (٤)﴾ العشار هى النوق التى أتى على حملها عشرة أشهر، (جمع عشراء مثل نفساء ، وهي أحب أموال العرب إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع اللحم والظهر واللبن الوبر)[1] وأما تعطيلها فهو إهمالها وعدم الاهتمام بها والإقبال عليها، وإنما خصت النوق العشار بالذكر لأنها كانت من أنفس أموال العرب، فإذا انشغل أصحابها عنها وأهملوها مع كرامتها عليهم دل هذا على عظم الأمر الذى نزل بهم فأشغلهم عن نفائس ممتلكاتهم وكرائم أموالهم .

الخامسة :﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ (٥)﴾ الوحش هو غير المستأنس من الدواب،وحشره أى جمعهبين يدى الملك الجليل يوم الدين، وإذا جُمعت الوحوش وهى غير مكلَّفة فكيف يُغفَل عن الإنس والجن المكلفين، ثم إن حشر الوحش لإحقاق العدل فيها ورد المظالم بينها دليل على العدل الربانى، فالشاة الجلحاء من غير قرون تأخذ حقها من الشاة القرناء التى اعتدت عليها استضعافاً لها، حتى يسأل العصفور قاتله لم قتلتنى ؟ فما بالك بالإنسان الذى يستحل دماء إخوانه وينتهك أعراضهم ولا يعتبر بالوقوف بين يدى الملك الحق .

كما أن جمع الوحش مع الإنس فى أرض المحشر فيه إشارة إلى أهوال يوم القيامة التى تشغل الناس والوحش مع ما بينهم من عداوة طبيعية أدت إلى أن يأكل بعضهم بعضاً فى الدنيا، لكنهم فى أرض المحشر يقفون متجاورين قد نزل بهم من الخطب العظيم، والخطر الجليل ما يشغل كل نفس عما حوله ... والله تعالى المستعان .

السادسة: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ (٦)﴾ قيل فى تسجير البحار أقوال منها: إن التسجير هو الاشتعال بالنار، فالبحار تشتعل ناراً، فإذا كانت البحار فى الدنيا مصدراً للماء فستتحول يوم القيامة مصدراً للنيران، وقيل

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٣٣٧/٨ .

التسجير هو التفجير، فالبحار ستنفجر يوم القيامة وليس بين القولين تعارض، قال البقاعى فى الآية: (فُجِّر بعضها إلى بعض حتى صارت بحراً واحداً، ومُلِئَت حتى كان ما فيها أكثر منها، وأُحمِئَت حتى كانت كالتنور التهاباً وتسعراً فكانت شراباً لأهل النار وعذاباً عليهم، ولا يكون هذا إلا وقد حصل من الحر ما يذيب الأكباد)[1]، وقيل: التسجير هو الاختلاط؛ فالبحار يوم القيامة يختلط عذبها بمالحها، ويمكن الجمع بين كل هذه المعانى بأن البحار إذا انفجرت زال ما بينها من برزخ وحدود فاختلط ماؤها العذب بالمالح ثم سُجِّرت واشتعلت فيها النيران .

السابعة: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ (٧)﴾ التزويج معناه الاقتران فالنفوس يوم القيامة ستقترن بأشكالها ومن على ملتها؛ فيُحشر أهل كل ملة معاً؛ فالفجار سيقترنون ببعضهم، وكذا الأبرار معاً، والمنافقون يحشرون مع بعضهم، وعباد الأوثان يحشرون مع أوثانهم، وعباد القمر يتبعون قمرهم، وعباد الصليب يسيرون وراء صلبانهم،ويُحشر المرء مع من أحب ... فاللهم إنا نُشهدك أنا نحب رسولك ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعلى، وسائر أصحاب النبى ﷺ فاحشرنا يارب فى زمرتهم وإن عجزت أعمالنا عن بلوغ غايتهم .

وقيل: بل تزويج النفوس واقترانها فى الآخرة إنما يكون بأن يجمع بين كل نفسٍ بشرية وقرينه الجنى الذى كان معه فى الدنيا يزين له المعاصى ويحبب إليه المنكرات، فيُجمعان معاً ثم يُطرحان فى النار .

الثامنة: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ (٨) بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ (٩)﴾ الموءودة هى البنت الصغيرة المقتولة، وكان العرب يدفنون بناتهم وهن أحياء مخافة الوقوع فى الأسر وجلب العار لأهاليهن، وقد سُمِّيت بالموءودة من الوأد وهو الثِقل لأنها كانت توضع فى حفرة، ويُرمى عليها التراب

(١) المرجع السابق ٣٣٧/٨ .

والحجارة حتى يئدها أى يثقل عليها فتموت مختنقة، فالوأد هو الثِقل ومنه قوله ﷻ فى آية الكرسى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ (١) أي لا يثقله حفظهما ولا يعجز ﷻ، فهذه الموءودة ستُسأل عن سبب قتلها، ومعلوم أن سؤالها ليس من أجل حسابها فهى لا ذنب لها، وإنما المقصود من سؤالها تقريع وتعنيف وتبكيت من قتلوها من غير ذنب ولا جريرة إلا الاعتراض على رزق الله لهم فى الذرية، ومن العجب أن تجد بعض المسلمين اليوم يكرهون أن يُرزقوا بالبنات؛ وربما نشبت الخلافات والأحزان فى بعض البيوت لأن المرأة لا تلد إلا بناتاً، وهذا فيه من الاعتراض على رزق الله ﷻ ما لا يخفى على عاقل، فضلاً عما فيه من الجهل بما فى القدر من الخير والشر، فما يدرى هذا المعترِض على رزق البنات علَّ منفعته تكون فى ابنته وهلاكه على يد ولده، ولعل الله ﷻ يودع فى البنت من الخير والرحمة والبركة ما لا يتوافر فى العصبة من الرجال، فهذه فاطمة بنت محمد وهى خيرٌ من ملء الأرض من مثل ابن نوح الكافر، وهى أنثى وهو ذكر لكنه من الكافرين وهى سيدة نساء العالمين.

التاسعة: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ (١٠)﴾ الصحف هنا هى صحائف أعمال العباد التى تكتبها الملائكة الحفظة فى الدنيا،وتُسجَّل فيها أعمال العباد من خير وشر، وهى فى الدنيا مطوية مكتومة لا يعلم دخائلها إلا علَّام الغيوب، فإذا كان يوم الدين نُشِرت هذه الصحف وأُعلنت، وصار المخبوء فيها معلناً، والمستور فيها مكشوفاً ، فكم من سوأة أخفاها صاحبها عن أعين البرايا ثم هى يوم العرض مشهودة، وكم من معصية تلبس بها صاحبها فى خفية عن أعين الناس ثم هى يوم الدين منشورة ، فمن هول هذا اليوم أنه يوم الحقائق الناصعة من غير تلوّن ولا تزييف ... والمستور من ستره الله بستره الجميل .

---

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٥٥ .

العاشرة: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ (١١)﴾ الكشط هو الإزالة، قال الفراء: (ومعنى "الكشط" رفعك شيئا عن شيء قد غطاه، كما يكشط الجلد عن السنام)[١]، وقال الفراء فى (معانى القرآن):

("كُشطت": أى نُزعت فطويت)[٢]، وهذا مصداق قوله ﷻ: **﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾**[٣] .

الحادية عشرة: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ (١٢)﴾ أي أوقدت فأضرمت للكفار وزيد في إحمائها، يقال: سعرت النار وأسعرتها، وقراءة العامة بالتخفيف من السعير، وقرأ نافع وابن ذكوان ورويس بالتشديد لأنها أوقدت مرة بعد مرة، قال قتادة: "سعَّرها غضب الله وخطايا بني آدم"[٤]، وفي الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة "[٥] ، وروي موقوفاً.

قال الفخر الرازى: (واحتج بهذه الآية من قال النار غير مخلوقة الآن؛ قالوا لأنها تدل على أن تسعيرها معلق بيوم القيامة)[٦]، وليس فى الآية دليل على قولهم لأن التسعير بالتشديد هو الإيقاد عليها مرة بعد مرة، والمراد أنها موجودة ومخلوقة ومشتعلة الآن؛ لكنها يوم القيامة تُسعَّر وتُحمَّى زيادة على ما كانت عليه .

الثانية عشرة: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ (١٣)﴾ أي أدنيت وقُرِّبت للمتقين وذلك لعظيم مكانتهم عند خالقهم، وقيل: ليست هى التى تُدنى، وإنما يُقرَّب إليها المتقون، وعند القرطبى: (قال الحسن: إنهم يقربون منها، لا أنها تزول عن موضعها)[٧]، وقد أحسن الفخر الرازى حين قال معقباً على

---

(١) معالم التنزيل ٨/ ٣٤٨ .
(٢) معانى القرآن للفراء ٣ / ٢٤١ .
(٣) سورة الأنبياء / من الآية ١٠٤ .
(٤) الكشف والبيان ، ١٠ / ١٤٠ .
(٥) الجامع الصحيح سنن الترمذى ، ٤ / ٧١٠ ، ورقمه ٢٥٩١ .
(٦) مفاتيح الغيب ٣١ / ٦٥ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٢٣٥ .

قوله ﷻ: ﴿**وَأُزْلِفَتِ ٱلجَنَّةُ لِلمُتَّقِينَ غَيرَ بَعِيدٍ (٣١)**﴾[1]حيث قال: (الجنة لا تُزَال ولا تُنقَل ولا المؤمن يؤمر في ذلك اليوم بالانتقال إليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب، فإن قيل فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأولى من إزلاف المؤمن من الجنة فما الفائدة في قوله:﴿**وَأُزلِفَتِ ٱلجَنَّةُ**﴾، نقول إكراماً للمؤمن كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقي أنه ممن يُمشَي إليه ويُدنَي منه) [2] .

وقيل: إن القرب هنا ليس قرباً مكانياً، بل هو قرب حصول دخول المؤمنين فيها، فقد اقترب أوان الجائزة، ودنا موعد الثواب الذى طالما اشتاقت إليه أرواح المؤمنين فى الدنيا، فحرموا أنفسهم من اللذات، وهجروا الشهوات انتظاراً لهذه اللحظة – لحظة أن يطأوا بأقدامهم أرض الجنة – وعندها ينتهى التعب لتبدأ الراحة الأبدية .

المسألة الثانية: بم أقسم ربنا فى هذه السورة المباركة؟ وعلام أقسم؟

الجواب: قال الله ﷻ: ﴿**فَلَآ أُقسِمُ بِٱلخُنَّسِ (١٥) ٱلجَوَارِ ٱلكُنَّسِ (١٦) وَٱلَّيلِ إِذَا عَسعَسَ (١٧) وَٱلصُّبحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)**﴾ فأقسم ربنا بالخنس وبالليل وبالصبح على أن هذا الكلام قول رسول كريم .

قال ﷻ: ﴿**فَلَآ أُقسِمُ بِٱلخُنَّسِ (١٥) ٱلجَوَارِ ٱلكُنَّسِ (١٦)**﴾ وهذا قسم من الله ﷻ بالنجوم، وقد وصفها بثلاث صفات، فهى خنس، جوار، كنس، فأما الخنس فهذه صفة لها من الخنس وهو الرجوع والتقهقر ومنه سُمِّى الشيطان خناساً، لأن المرء إذا استعاذ منه بالله ﷻ خنس أى رجع فى وسوسته وتقهقر عن قلب الإنسان، فالنجوم تخنس أى تختفى عن الأعين بالنهار قبل أن تظهر بالليل، وهى جوار من الجرى أى تجرى فى أفلاكها

---

(١) سورة ق / الآية ٣١ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٨ / ١٥٠ .

من غير توقف، ثم هى كُنَّس أى تغيب وتستتر في بيوتها، وهى مأخوذة من دخول الظباء أكناسها أى بيوتها وهى الكناس أى أغصان الأشجار.

ثم أقسم ربنا فقال: ﴿**وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ (١٧)**﴾ قيل: أقسم ربنا بالليل إذا أدبر، وقيل: بل هو الليل إذا أقبل، فلفظ عسعس من المشترك اللفظى ويعرفه أهل اللغة بأنه: "هو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة"، فعسعس يحمل اللفظ وضده فى وقت واحد، وهو بمعنى الإقبال والإدبار، قال المبرد: (هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحدٍ، وهو ابتداء الظلام في وله، وإدباره في آخره) [١].

وفى القسم الثالث قال: ﴿**وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)**﴾ أى الصبح إذا انتشر ضوؤه ، ومعنى التنفس خروج النفس من الجوف، وتنفس الصبح أى هبّ نسيمه اللطيفوفى الآية مجاز على قولين:

(الأول: أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له على المجاز، فقيل: تنفس الصبح، الثاني: أنه شبَّه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي خنس بحيث لا يتحرك ، فإذا تنفس وجد راحة، فها هنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس)[٢]

هذا ما أقسم به ربنا فأما ما أقسم عليه فهو قوله: ﴿**إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُول كَرِيم (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِين (٢٠) مُّطَاع ثَمَّ أَمِين (٢١)**﴾.

والرسول الكريم هنا ليس هو الرسول ﷺ بل هو أمين الوحى جبريل، على قول جمهور المفسرين فقد أقسم الله ﷻ على أن القرآن الكريم أوحى به جبريل للنبى، ولا يعنى أنه ﴿**إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُول كَرِيم (١٩)**﴾ أن هذا القرآن كلام جبريل، بدليل قوله:﴿**رَسُول**﴾ أى مرسل من غيره، (فبيَّن

(١) اللباب فى علوم الكتاب لأبى حفص عمر بن على بن عادل الدمشقى، ١٨٧/٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤١٩ هـ –١٩٩٨ م .
(٢) المرجع السابق ، ١٨٧/٢٠ .

بوصف الرسالة أنه ليس بقوله إلا لكونه مرسَلاً به ومبلِغاً له ، وأنه في الحقيقة قول من أرسله ، وصفه بما أفهمه الوصف مما يوجب حفظه من غير تحريف ما ولا تغيير أصلاً بوجه من الوجوه) [١]

ثم بينت الآيات كرامة هذا الملك الأمين ومكانته عند ربه فوصفته بأنه ﴿**كَرِيمٍ**﴾ أي انتفت عنه وجوه المذام كلها وثبتت له وجوه المحامد كلها، ﴿**ذِي قُوَّةٍ**﴾ أى قوى شديد القوة، وقد بلغ من قوته أنه رفع قرى قوم لوط إلى السماء بريشة من جناحه، ثم كفأها، قال الله ﷻ: ﴿**وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ(٥٣)**﴾[٢]، وأنه عظيم الخلقة إذا ظهر بصورته الحقيقية سد ما بين المشرق والمغرب، وقد أخبر رسولنا ﷺ أنه رآه وله ستمائة جناح، ومن المفسرين من وسَّع مدلول القوة فجعلها قوة الخِلقة، وقوة أداء طاعة الله ﷻ، وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف، وعلى القوة في معرفة الله ﷻ وفي مطالعة جلال الله ﷻ، وهذا هو الأولى .

ثم استكملت الآية وصفها لجبريل بأنه ﴿**عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)**﴾ أى لجبريل مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة، ثم هو مطاع عند الملائكة، فهو رئيسهم والمُقدَّم فيهم قال الله ﷻ: ﴿**مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)**﴾ فهو مسموع القول ذو وجاهة فى الملأ الأعلى، ﴿**ثَمَّ**﴾ وثمَّ هنا تعنى: هناك أى فى الملأ الأعلى عند الملائكة، فجبريل مطاع هناك فى الملأ الأعلى، قال أبو الليث السمرقندى: (ويقال: ﴿**مُّطَاعٍ**﴾ يعني طاعته على أهل السموات واجبة كطاعة محمد ﷺ على أهل الأرض) [٣]، ﴿**أَمِينٍ**﴾ وهو أمين على ما أرسله الله ﷻ به من الوحى لا يغير ولا يخون ولا يبدل، لا كما يقول بعض فرق الشيعة: إنه خان الرسالة، فنزل بها على محمد ﷺ وكان الأصل أن تكون لعلى بن أبى طالب، تعالى الله عما يقولون ويحرفون علواً كبيراً .

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٣٤٢/٨ .

(٢) سورة النجم / الآية ٥٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٣٩ .

المسألة الثالثة: بم وصفت السورة الرسول ﷺ ؟

الجواب: قال الله ﷻ: **﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)﴾**، وصاحبهم هو رسول الله ﷺ وقد وصفته الآية بأنه صاحبهم أى ليس غريباً عنهم، بل هو منهم، لازمهم أربعين سنة حتى نزلت عليه الرسالة، فهم يعرفون نسبه وحسبه وصدقه وأمانته فكيف يثنون على أخلاقه ثم يصفونه بأبشع الصفات ويرمونه بالسحر والكهانة والكذب؟ فنفت الآية عنه ما رماه به المشركون من جنون، ثم أثبتت له الآية أنه ﷺ قد رأى جبريل الذى يأتيه بالرسالة على هيئته الحقيقية التى خلقه الله عليها وله ستمائة جناح كما ثبت فى الصحيح، (وقد أثبتت هذه الآية رؤية الرسول ﷺ لجبريل – عليه السلام – مرة، مع أنه قد ثبت أنه رآه على هيئته الحقيقية مرتين، وذلك لأن المرة الثانية كانت فى رحلة الإسراء والمعراج، وَالظَّاهِر – وَاَللَّه أَعْلَم – أَنَّ هَذِهِ السُّورَة نَزَلَتْ قَبْل لَيْلَة الْإِسْرَاء لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُر فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الرُّؤْيَة وَهِيَ الْأُولَى، وَأَمَّا الثَّانِيَة وَهِيَ الْمَذْكُورَة فِي قَوْله تَعَالَى: **﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾** فَتِلْكَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ فِي سُورَة النَّجْم وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْد سُورَة الْإِسْرَاء [١]).

وهذه الرؤية كانت بلا شك ولا تخيل ولا غموض، بل هى رؤية واضحة، وصفتها الآية بقول الله: **﴿وَلَقَد رَءَاهُ بِٱلأُفُقِ ٱلمُبِينِ (٢٣)﴾** وهذا دليل على وضوح هذه الرؤية وعدم تلبسها بشئ،فقد كانت بالأفق، وقيل: إن الأفق هو مطلع الشمس، ولذا فهو مبين، أى: واضح ظاهر؛ لما فى هذا التوقيت من النور والضياء الذى يزيل ظلمة الليل وتتضح فيه رؤية الأشياء .

---

(١) بحر العلوم ٣ / ٥٣٠، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى، دار الفكر، بيروت .

ثم وصفته بأنه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ (٢٤)﴾ أى وما رسول الله ﷺ بضنين على الغيب، ومعنى ضنين: أى بخيل، وقرأ ابن مسعود "بظنين" بالظاء، وهكذا قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: "بظنين" يعني بمتهم، والباقون بالضاد يعني البخيل، ويكون المعنى فى القراءتين أن الرسول ﷺ ليس ببخيل بما أوحى به الله إليه، بل يبلغه كله للناس، ولا يكتم منه شيئاً، أما على المعنى الثانى للضنين وهو المتهم، فإن الرسول ﷺ مؤتمن وليس بمتهم لا عند الله ولا عند الناس، بل هو الصادق الأمين، قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ (٢٤)﴾ أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين، أي: بمتهم.

ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي: ببخيل، بل يبذله لكل أحد، قال قتادة: كان القرآن غيباً، فأنزله الله على محمد، فما ضَنّ به على الناس، بل بَلَّغه ونشره وبذله لكل من أراده) [١].

المسألة الرابعة: ما المراد بالمشيئة هنا فى قوله ﷻ :﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ(٢٩)﴾؟ وهل يصح الاستدلال بالآيتين على أن الإنسان مُجبَرٌ مُسيَّرٌ، وليس مُخيَّراً؟

الجواب: مثل هذه الآيات التى تحدثت عن المشيئة تحتاج إلى حذر عند التناول والتفسير، فبسبب الفهم الخاطئ لمثل هذه الآيات فى القرآن الكريم زلَّت كثير من الأقدام وحارت فيها عقول وأفهام، وانحرفت بسبب الخطأ فى فهمها فرق وأحزاب، فخرجت الجبرية الجهمية التى ترى أن الإنسان مُسيَّر فى مشيئته مُجبَر على أفعاله، وظهرت المعتزلة القدرية الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله، وكلا المذهبين منحرف عن جادة الاعتقاد السليم والدين القويم .

(١) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٣٩ .

فأهل السنة والجماعة يفرقون بين نوعين من المشيئة: مشيئة العبد، ومشيئة الرب، فيثبتون أن للعبد مشيئة لا كما ينفيها الجبرية، ودليل مشيئة العبد قوله ﷻ: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ (٢٨)﴾ فأثبت للعبد مشيئة وفعلاً، لكن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الرب، وهذا رد على المعتزلة القدرية فيكون المعنى: لولا أن الله ﷻ شاء أن تكون للعبد مشيئة ما كانت، ولو شاء العبد شيئاً لم يشاؤه الله لن يحدث، لأن مُلك الله لا يكون فيه إلا ما يشاؤه ﷻ، وعلى هذا فلا تنافي بين إثبات المشيئتين ، لأن مشيئة الله شاملة لمشيئة العبد. والدليل على ذلك، أن العبد إذا شاءوالرب لم يشأ، لم تقع مشيئة العبد، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ٢٩﴾ لكن يجب عدم إنكار أن العبد له مشيئة حقيقية، فليس مضطراً ولا مكرهاًولا مجبوراًعلى أفعاله الاختيارية بل يفعل ما يريد ويترك ما يريد بمحض اختياره وسبق إصراره، وهذا أمر يعلمه كل عاقل ويفرق بين أعماله الاضطرارية، وأعماله الاختيارية، وفى ذلك دليل على كمال عدل الله وعلمه ؛ لأن إثبات مشيئة الله العامة تدل على إثبات علمه لوقوع الأشياء وفق معلومه، وكونه سبحانه أعطى العبد مشيئة وفعلاً واختياراً رتَّب عليه الثواب والعقاب، يدل على كمال عدله. والله أعلم .

وأنقل هنا كلاماً قيِّماً قاله د. محمد راتب النابلسى فى محاضرة له فى هذا الباب: (الحقيقة أن مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله ﷻ مشيئة فحصٍ واختبار، الإنسان يختار، لكن الله ﷻ يتفحَّص اختياره، فإن كان صادقاً في اختياره، ودفع ثمن اختياره، يشاء الله له ما شاء من طلبٍ للخير، لئلا نقع في سوء فهمٍ لهذه الآية، ولئلا نفهمها فهماً جبرياً ما أراده الله.. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلا (٢٩) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّه إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيما (٣٠)﴾[١] .

---

(١) سورة الإنسان/ الآيتان ٢٩- ٣٠ .

تماماً كما لو قدَّم طالبٌ طلباً يختار في طلبه كلية الطب، إدارة الجامعة تفحصت الطلب، مجموعه قليل، ترفض هذا الطلب، مجموعة مناسب، تقبل هذا الطلب، مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله ﷻمشيئة فحصٍ واختبار، فمن كان صادقاً في اختياره ودفع ثمن اختياره، فالله ﷻ يحقق له مراده في دخول الجنة.

وهناك وقفة دقيقة فى هذه الآية: فلهذه الآية معنىً آخر وهو: أنه لولا أن مشيئة الله شاءت أن تشاءوا لما شئتم، أنت الآن مخير، وهذا الاختيار سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، هذه المشيئة التي تتمتع بها أيها الإنسان، لولا أن الله شاء لك أن تكون ذا مشيئة، لما كنت ذا مشيئة..**﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّه إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ علِيمًا حكِيما (٣٠)﴾**.

سورة ﴿عبس﴾

وفيها ثلاث عشرة مسألة:

المسألة الأولى: ما سبب نزول هذه السورة الكريمة ؟ وما دلالة هذا السبب ؟

الجواب: بدايةهذه السورة الكريمة نزلت – عند جمهور المفسرين – فى إعراض الرسول ﷺ عن عبد الله بن أم مكتوم ﵁ قال الواحدى: (هو ابن أم مكتوم، وذلك أنه أتى النبي ﷺ وهو يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، وعباس بن عبد المطلب، وأُبَياً وأمية ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم، فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدرى أنه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم،فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: "مرحباً بمن عاتبني فيه ربى)[1]، وهذا السبب مُجمَع عليه من قِبَل المفسرين .

لكن الأهم من ذلك هو دلالة هذا السبب وما يُستفاد منه، فمن ذلك:

- الدلالة على صدق هذا القرآن وأنه من عند الله وليس من عند الرسول ﷺ، إذ لا يُعقل أن يكون هذا القرآن من عند محمد فيأتى فيه بهذا الموقف ويُعاتب نفسه بنفسه، ويُعلن ذلك للناس.
- الدلالة على أمانة الرسول ﷺ فى تبليغ هذا القرآن للناس، وعدم كتمان أى حرف منه، ولو كتم الرسول ﷺ منه شيئاً ولم يبلغه للناس – كما يدعى الشيعة الروافض الجهلاء – لأخفى عن الناس مثل هذه الآيات التى فيها عتاب له ﷺ.

---

(١) أسباب النزول للواحدى ، ص ٢٩٧ .

- أن الرسول ﷺ بشر يجوز في حقه كل الصفات البشرية التي لا تقتضي نقصاً، وقد عبس في وجه الأعمى عبد الله بن أم مكتوم حين جاءه يسترشده، مقدّماً غيره عليه ظناً منه أن فى ذلك مصلحة للدعوة، فلما خالف الأولى عاتبه القرآن على ذلك .
- أن الإسلام أول من وضع وراعى حقوق هذه الطائفة التى يسميها العالم الغربى اليوم " ذوى الاحتياجات الخاصة"، وقد سبق الإسلام غيره لتقرير وإثبات هذه الحقوق لها، حتى أن القرآن الكريم يدل على ذلك بدلالة لطيفة ألا وهى عتاب الرسول ﷺ لأنه عبس فى وجه أعمى، الأصل أنه لن يرى هذا العبوس ولن يلاحظه إلا إذا كان مبصراً، لكن حتى هذا الأمر الذى لن يراه الأعمىطلب الإسلام مراعاته، فما بالك بمن يؤذى صاحب الإعاقة بكلمة جارحة أو تعليق ساخر أو شماتة مهينة أو انتقاص مزرٍ، فليس هذا من خلق الإسلام فى شئ .
- وإذا عاتب القرآن نبيه ﷺ لعبوسه فى وجه أعمى لن يراه، فإن كراهة العبوس والإعراض عن المبصر ستكون أشد، وفى ذلك درس لنا جميعاً فى التخلق بجميل الأخلاق، وطيب المقابلة، والحرص على التبسم فى وجوه إخواننا من المؤمنين خاصة عند المقابلة، والبشاشة عند المصافحة، والترحيب عند الزيارة، وكل هذا من حق المسلم على أخيه المسلم ومن بواعث الألفة وعوامل المحبة فى المجتمع الإسلامى، كما دلت على ذلك آيات القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ.
- وإن قال قائل كيف نجمع بين عبوس الرسول ﷺ فى وجه هذا الأعمى وبين مدح القرآن الكريم للرسول ﷺ بعظيم الخلق فى قوله تعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤)﴾**[١]، فيُجاب على ذلك:

---

(١) سورة القلم / الآية ٤ .

بأن الرسول ما أعرض عن الأعمى لكونه أعمى؛ بل فعل ذلك لما ظنه من مصلحة الدعوة طمعاً منه فى إسلام كبراء قريش علَّ الله أن يفتح بإسلامهم قلوب أتباعهم، ثم إنه من عظيم خلقه لم يأت بفعل يجرح فيه كرامة هذا السائل الأعمى؛ فلم يكلمه بكلمة تؤذيه، أو يوبخه ويعنفه بشئ يكرهه، بل غاية ما فعل ﷺ أنه عبس بوجهه وقطَّب جبينه، وهي حركة مرئية لا مسموعة، والحال: أن هذا أعمى لا يرى تلك الحركة، ولن يُضار منها لأن العبوس لا يراه إلا المبصرون فكأنهلم يلق إساءة منه؛ وبالرغم من ذلك فقد عوتب ﷺ من باب التسامي بأخلاقه إلى أعلى غاية وأقصى مدى،إلى حد اللحظ بالعين، والتقطيب بالجبين، ولو لمن لا يراه .

المسألة الثانية: ما الحكمة من ذكر الآية لوصف يكرهه الناس؟ ألا يدخل هذا فى باب التنابز بالألقاب؟

الجواب: إن ذكر الآية للفظ الأعمى لا يدخل فى باب التنابز بالألقاب، وذلك لأن ذكره فى هذا السياق ليس من أجل التنقص والاستهزاء بهذا الصحابى الجليل عبد الله بن أم مكتوم بل ورد ذكره لحِكمٍ، منها :

- بيان عذره وعدم تعمده مقاطعة الرسول وصرفه عما هو فيه من دعوة أشراف قومه، لأنه أعمى لم ير انشغال الرسول بما هو فيه، ولو رآه لربما انتظر حتى يفرغ .
- التأكيد على حسن خلقه ﷺ فهو لم يزجر الرجل أو يدفعه عنه بسوء القول وعنيف الفعل، بل اكتفى بأن عبس بوجهه بحيث لا يراه هذا الأعمى فلا يؤذيه هذا الفعل من الرسول ﷺ.
- ولعل ذكر هذا الوصف فيه من التهكم والتعريض بسادة قريش أصحاب الأعين المبصرة والقلوب التى أصابها العمى، فصدوا عن سبيل الهدى ولم يروه، بينما رأى هذا الرجل أعمى البصر

مبصر القلب نور الهدى وطريق الحق فجاء مسرعاً متلهفاً يطلب من الرسول أن يدله على طريق الحق، فما أعظمها من مفارقة بين مبصر العين أعمى القلب، وأعمى العين مبصر القلب .

المسألة الثالثة: كيف عقدت الآيات مقارنة بين فريقي الضلالة والهداية ؟

الجواب: أوضحت الآيات الفارق الكبير بين من أعرض واستغنى عن الهداية وبين من يسعى ويحرص عليها، فقال الله ﷻ واصفاً الفريق الأول: **﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ(٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧)﴾** أى يا محمد أنت تتصدى وتتعرض لمن استغنى عن الإيمان بسبب جاهه وماله وبنيه وتأمل أن يهديه الله ﷻ فتقبل عليه وهو مستغن عنك معرض عنك، ولا حرج عليك ولا إثم إذا لم يؤمن بك، فدورك هو الإبلاغ والهداية بيد الله ﷻ .

أما هذا الباحث عن الحقيقة: **﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾** فهو على نقيض الصنف الأول، فقد جاء يسعى إليك مجتهداً طالباً الهداية والرشاد، وهو خائف وجلٌ من الله ﷻ، فإذا بك تعرض عنه وتنصرف إلى غيره، **﴿كَلَّآ﴾** أى ليس الأمر كذلك، وما كان ينبغى أن يحدث ذلك منك فى حق هذا السائل الحريص على الهداية .

المسألة الرابعة: ما الصحف التى تحدثت عنها الآيات ؟

الجواب: قال الله ﷻ: **﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ (١٣) مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۢ (١٤) بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۭ بَرَرَةٖ (١٦)﴾** وقد اختلف العلماء فى المراد من هذه الصحف على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن المراد بها صحف اللوح المحفوظ، وعلى هذا فتأتى الصفات بعدها تابعة لهذا المعنى، فهى صحف مرفوعة عالية، قال الشوكانى: (إنها رفيعة القدر عند الله، وقيل مرفوعة في السماء السابعة)[1]

---

(١) فتح القدير ٥/ ٥٤٠ .

مطهرة لأنها فى الملأ الأعلى لا يمسها إلا الملائكة المطهرون، وهم السفرة أى (الكتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ، قال الفراء: السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ﷻ ورسوله، من السفارة وهو السعي بين القوم وأنشد :

فما أدع السفارة بين قومي * ولا أمشي بغير أب نسيب)** [١]

فوصفتهم الآيات بأنهم سفرة؛ أى جعلهم الله ﷻ سفراء بينهم وبين رسله .

ثم أكملت الآيات وصف هؤلاء الملائكة الأطهار؛ فهم كرام أى: كرام عند ربهم بترك المعاصى، والمداومة على الطاعة، وبررة جمع بار أى: أتقياء مطيعون صادقون فى إيمانهم .

أما القول الثانى: فى تفسير الصحف المكرمة فهى كتب الرسل السابقين التى أوحى الله بها إليهم، كصحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل، وتكون هذه الأوصاف هى أوصاف هذه الكتب، وفيها تذكرة أى: أن هذه الكتب قد جاء فى أصولها مثل ما جاء فى القرآن من دعوة للتوحيد والأخلاق .

والقول الثالث: إن الصحف المطهرة هى القرآن الكريم وفى الآية إشارة إلى أن القرآن سيتم جمعه فى صحف مكتوبة، وكتابة القرآن فى الصحف وإن وجدت فى حياة الرسول ﷺ إلا أنها كانت مفرقة غير مجموعة، ثم تم جمع القرآن الكريم كاملاً فى مصحف واحد فى عهد الخليفة الراشد الصديق أبى بكر ﷺ فالقرآن مجموع فى صحف مكرمة، لأنها نزلت من كريم، وكرامة الكتاب من كرامة صاحبه، ألا ترى بلقيس وقد وصفت رسالة سليمان لها بأنها كتاب كريم، مرفوعة عن العبث والتحريف، مرفوعة القدر عند الله ثم عند الناس، مطهرة فلا يمسها إلا المطهرون ويحرم مسها على الحائض والجنب والنفساء، ثم امتدحت

(١) المرجع السابق ٥ / ٥٤٠ .

الآيات كتاب الوحى وحفاظه وقراءه فهم السفرة (قال أبو عبيدة: سفرة :كتبة، واحدهم سافر وهي لغة كنانة) [1]، وقيل: هم أصحاب الرسول ﷺ، قال ابن العربى المالكى فى الأحكام: (لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ سفرة، كراماًبررة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربوا المرادين بها، بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم) [2] .

المسألة الخامسة: ما المعنى المراد من القتل فى قوله: ﴿قُتِلَ ٱلإِنسَٰنُ مَآ أَكفَرَهُ (١٧)﴾؟

الجواب: ذكرنا من قبل أن لفظ (القتل) كثيراً ما يأتى فى القرآن الكريم بمعنى اللعن، وقد ورد هذا فى أكثر من موضع، كما سبق ذكره فى سورة البروج، فى قوله ﷻ: **﴿قُتِلَ أَصحَٰبُ ٱلأُخدُودِ(٤)﴾**[3]، وفى هذا الموضع فإن الإنسان المقصود هنا ليس جنس الإنسان؛ بل هو الإنسان الكفور، بدليل قوله: **﴿مَا أَكفَرَهُ(١٧)﴾** فالمعنى: لُعِن الإنسان الكافر، ما أشد كفره، أو ما الذى دفعه للكفر مع أن نعم الله ﷻ عليه ظاهرة لا ينكرها إلا مكابر؟

وعلى هذا... ففى قوله: **﴿مَا أَكفَرَهُ(١٧)﴾** معنيان :

الأول: أن يكون الأسلوب أسلوباً بلاغياً يدل على شدة كفر الإنسان وعناده مع شدة ضعفه وعجزه، كما تقول ما أحلى طعم العسل، أو ما أشد سواد الليل، أو نحو ذلك مما يُعرف عند أهل البلاغة بأسلوب التعجب

أما المعنى الثانى: فيكون أسلوب استفهام، أى ما الذى جعل هذا الإنسان مع إحسان الله ﷻ له يكفر بخالقه المتفضل عليه بالإنعام؟، ونظيره قوله تعالى ﷻ: **﴿يَأَيُّهَا ٱلإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلكَرِيمِ (٦)﴾**[4] .

---

(١) التبيان فى تفسير غريب القرآن ص ٤٤٩ .
(٢) أحكام القرآن ٨ / ٣٢ .
(٣) سورة البروج / الآية ٤ .
(٤) سورة الانفطار / الآية ٦ .

وفى الآية استشعار بحلم الله ﷻ على عباده – خاصة الكافرين منهم – فمع أنهم يستحقون اللعن والطرد من رحمة الله؛ إلا أن الله ﷻحليم بهم يمهلهم ولا يعجل لهم العقوبة، وفى الحديث: (ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نداً ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم) [(١)] .

المسألة السادسة: ما العلاقة بين قوله: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا أَكۡفَرَهُۥ(١٧)﴾، وبين: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨)﴾؟

الجواب: المتأمل لترتيب هاتين الآيتين يجد العلاقة بينهما واضحة، فالثانية تذكير لهذا الإنسان المتغطرس بقوته المفتون بسلطانه بأصل خلقته، ومراحل نموه، وضعفه وعجزه، فهو يتقلب فى رحمة خالقه، ويعيش فى إحسانه منذ اللحظة الأولى من نشأته، فإذا خرج إلى هذه الدنيا واشتد ساعده قابل النعمة بالجحود، والعطاء بالإنكار فكفر بربه وقد خلقه .

المسألة السابعة: ما معنى التقدير فى قوله: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ(١٩)﴾؟

الجواب: أصل التقدير الضبط والإتقان ووضع الشئ فى موضعه، وهذا ملحوظ من أول مرحلة من مراحل خلق الإنسان حتى المحطة الأخيرة من حياته، فالله ﷻ قدَّر مراحل خلق الإنسان وتطور نموه من نطفة، فعلقة فمضغة، ثم يبدأ تكوين العظام، ثم تُكسى العظام، لحماً، ثم يولد، ويكون طفلاً، ففتى، فشاباً ،ثم كهلاً، فشيخاً فهرماً، وكلها مراحل يسلم بعضها بعضاً فى غاية السلاسة وتمام الانضباط .

وهناك تقدير آخر معلوم مشاهد فى ضبط أعضاء الإنسان وترتيبها على النحو الذى يُحسِّن خلقته ويعينه على معيشته، ويميزه عن غيره من سائر الوحش والبهائم، كتسوية العينين فى مكانهما اللائق بهما، وكذا الفم،

---

(١) صحيح مسلم ٤ / ٢١٦٠، ورقمه (٢٨٠٤) ، من حديث عبد الله بن قيس .

والأذنين، واعتدال القامة، وحسن الخلقة، إلى غير ذلك من الأمور المشاهدة التى لو حدث فى أي منها خلل لظهر فى الإنسان التشويه والنقصان، قال البقاعى: (﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي هيأه لما يصلح من الأعضاء الظاهرة والباطنة والأشكال والأطوارإلى أن صلح لذلك) [1] .

المسألة الثامنة: ما المراد من قوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)﴾؟

الجواب: للعلماء فى المراد من السبيل فى الآية السابقة أقوال، منها:

أولاً : السبيل هو طريق خروج الإنسان من رحم أمه، فقد يسر الله ﷻ للجنين سبيل الخروج من رحم أمه وهو مروى عن جماعة منهم ابن عباس قال: (خروجه من بطن أمه يسره له)[2] .

ثانياً: وقيل المراد بالسبيل هو قوله ﷻ: **﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾** وهو طريقالخير وطريق الشر، وهو قول مجاهد، ورجحه ابن كثير فى تفسيره [3].

ثالثاً: أو أن السبيل هنا هو معرفة الإنسان – بما حباه الله ﷻ من عقل – ما ينفعه فيُقبل عليه، وما يضره فيبتعد عنه، وهو فى ذلك مدفوع إلى منافعه منذ ولادته بفطرته، ثم بعقله وخبراته فى مراحل حياته المتتابعة بعد ذلك، وهذا من تيسير الله ﷻ له .

ويمكن الجمع بين كل هذه المعانى فكلها ممكنة إذ لا تعارض بينها، وهو ما يبين اتساع اللفظ القرآنى وتعدد معانيه .

أما فيما يتعلق بقوله ﷻ: **﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)﴾**، فهى منة عظيمة من الله ﷻ على عباده أن علمهم كيف يقبرون – أى يدفنون – موتاهم، وقد حدث هذا فى القصة المعروفة فى حادثة قتل قابيل لأخيه هابيل، ثم ما كان من إرسال الله ﷻ للغراب الذى قتل أخاه فحفر له فى الأرض،

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢١ / ٢٦١ .
(٢) تفسير الطبرى ٢٤ / ٢٢٤ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٢٢ .

ووراه الثرى، وابن آدم ينظر إليه حتى انتهى، فقلدَّه، وحفر قبراً وارى فيه جثمان أخيه المقتول، ولولا هذا لظل الميت مطروحاً على ظاهر الأرض حتى ينتن جسده وتخرج رائحته، لكن إكرام الله ﷻ للإنسان بأن يسر له سبيل دفن الموتى وعلَّمه ذلك منذ نشأة الخليقة بما يحفظ على الموتى كرامتهم وييسر سبيل الحياة على ظاهر الأرض للأحياء وفى باطنها مستقر للأموات .

المسألة التاسعة: ما الحكمة من تنوع استعمال الآيات لحرفى العطف "ثم ، والفاء "فى الآيات السابقة؟

والجواب :إن استعمال الآيات لحرفى العطف (ثم) التى تفيد التريث تارة، و(الفاء) التى تفيد السرعة تارة أخرى، هو استعمال ينسجم مع المرحلة الزمنية والفترة الوقتية التى تفصل بين كل مرحلة وأخرى .

فعند حديث القرآن عن خلق الإنسان من نطفة مخلوقة فقدَّر لهذه النطفة أقدارها، وما يصلحها على وجه السرعة فجاءت الفاء قال: ﴿**فَقَدَّرَهُۥ**﴾، ومكث هذا الجنين فى بطن أمه حتى حان موعد خروجه ثم يسر الله تعالى له سبيل الخروج من بطن أمه بعد مكثه فى بطنها تسعة أشهر فجاء بحرف (ثم) ﴿**ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ**﴾، لأن الأمر على التراخى، ثم عاش الإنسان عمره الذى قد يطول عشرات السنين لتحين لحظة الرحيل التى عبرت عنها الآيات بحرف (ثم) ﴿**ثُمَّ أَمَاتَهُۥ**﴾ لأن الفترة طويلة بين تيسير الخروج له من بطن أمه حتى موته، لكنه لما مات احتاج إلى سرعة دفنه ومواراة جثمانه، فجاء حرف العطف (الفاء) ﴿**فَأَقۡبَرَهُۥ**﴾، ليفيد سرعة هذه المرحلة ما بين موته حتى دفنه فى قبره، ليمكث فى قبره ما شاء الله له أن يمكث، وفترة المكث فى القبر فترة طويلة فقد يقضى المرء فى قبره الآف السنين، حتى يأتى أمر الله تعالى بالبعث والنشور، فاستعملت الآيات حرف العطف (ثم) ﴿**ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ**﴾، لإفادة البعد ما بين نزول الميت فى قبره حتى خروجه منه للعرض والنشور والحساب، فما أروع هذا الاستعمال وأبلغه ودقته فى موضعه .

المسألة العاشرة: عدَّدت الآيات ثمانية من أنواع نبات الأرض ... فما هى ؟

الجواب: قال الله ﷻ ممتناً على عباده بعظيم فضله وجزيل نعمائه: **﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً (٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْباً (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (٣١)﴾**.

هذه الأصناف الثمانية مما تخرجه الأرض الواحدة التى تُسقى بماء واحد، فيخرج منها الحب، والزيتون، والقضب والنخل، والحدائق، والفاكهة، والأب .

فأما الحَب فهى كلمة شاملة لسائر أنواع الحبوب، قال الزمخشرى: (هو كل ما حُصِد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما) [١] .

والعنب فاكهة معروفة حلو مذاقها، عظيم فائدتها، والعرب تجففه فيكون زبيباً تدخره لقوتها، قال عنه ابن القيم: (قد ذكر الله سبحانه العِنَبَ فى ستة مواضع مِن كتابه فى جملة نعمه التى أنعم بها على عباده فى هذه الدار وفى الجَنَّة، وهو من أفضلِ الفواكه وأكثرِها منافعَ، وهو يُؤكل رطباً ويابساً، وأخضرَ ويانعاً، وهو فاكهةٌ مع الفواكه، وقوتٌ مع الأقواتِ، وأُدمٌ مع الإدام، ودواءٌ مع الأدوية، وشرابٌ مع الأشربة) [٢]،كما عدّه ابن القيم أحد ملوك الفاكهة الثلاثة: (العنب، والرطب، والتين) [٣].

والقضب قال ابن قتيبة: (الْقَضْبُ) القَتُّ، يُقال: سميَ بذلك: لأنه يُقْضَبُ مرَّة بعد مرة؛ أي يُقطع)[٤] والقت كما عرَّفه بعض المعاصرين بأنه البرسيم، ويمكن حمله على كل المزروعات التى يقطعها المزارع ثم تنمو ثانية، قال الشيخ مساعد الطيار: (وأن حمل تفسير السلف على المثال لا

---

(١) الكشاف ٤ / ٧٠٤ .

(٢) زاد المعاد ٤ / ٣٤٠ .

(٣) انظر المرجع السابق ٤ / ٣٤٠ .

(٤) غريب القرآن ١/ ٥١٤، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، سنة ١٣٩٨هـ،١٩٧٨م.

التعيين في هذا الوضع، فإن القضب يطلق على ما يقضب من النبات؛ أي ك يقطع ثم ينمو، ويشمل ذلك أصنافاً كثيرة تشبه العلف في هذا الوصف؛ كالجرجير والكراث والنعناع، وغيرها، والله أعلم) [١].

والزيتون: وهو معروف مشهورة فوائده، ويعصر منه الزيت، والنخل جمع النخلة ومنها يجمع الرطب، والحدائق جمع حديقة، والفرق بين الحديقة والبستان، أن الحديقة تُسمى بهذا الاسم إذا كان لها سور، فإن لم يكن لها سور سميت بستاناً، (قال الكلبي: وكل شي أُحِيطَ عَلَيْهِ مِنْ نَخِيلٍ أَوْ شَجَرٍ فَهُوَ حَدِيقَةٌ، وَمَا لَمْ يُحَطْ عَلَيْهِ فَلَيْسَ بِحَدِيقَةٍ) [٢]، وقد وصفها الله تعالى بالغُلب، وفى لغة العرب أن الرجل الأغلب هو غليظ الرقبة، ويُسمى الأسد بالأغلب لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً، فهذه الحدائق أشجارها غليظة الجذوع، ضخمة الأغصان، عالية طوال، والفاكهة ما يتفكه به الإنسان من شتى أنواع الفواكه وثمار الأشجار، وأما الأَبُّ فقد اختلف المفسرون فى بيانه قال القرطبى: (هو ما تأكله البهائم من العشب، قال ابن عباس والحسن: الأَبُّ: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، ما يأكله الآدميون هو الحصيد، ومنه قول الشاعر في مدح النبي ﷺ:

له دعوة ميمونة ريحها الصبا * بها ينبت الله الحصيدة والأبا)** [٣]

المسألة الحادية عشرة: لم سُمى يوم القيامة بالصاخة ؟

الجواب: الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة، (والصخ الضرب بالحديد على الحديد، وبالعصا الصّلبة على شىء مصمت، فيسمع إذ ذاك صوت شديد والمراد هنا بالصاخة هو المراد بالقارعة فى سورتها، وهى الطامة الكبرى، ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذي يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض، ومن ثمّ سميت صاخة وقارعة) [٤].

---

(١) تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار، د. مساعد بن سالم الطيار، ص٥٦، دار ابن الجوزى، الطبعة الثامنة، ١٤٣٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٢٢٢ .

(٣) المرجع السابق ١٩ / ٢٢٢ .

(٤) تفسير المراغى ٣٠ / ٤٩ ، أحمد مصطفى المراغى ، مطبعة مصطفىالحلبي ،القاهرة .

وقال ابن قتيبة: (صخت تصخ صخاً، أي تصم، ويقال: رجل أصخ وأصلخ؛ إذا كان لا يسمع) [١]، فهى تدل على الصوت الشديد المرتفع الذى يصخ الآذان، وحكى الفخر الرازى أن المفسرين يرون المقصود بها (صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة) ، لأنها تصخ وتصدم الآذان بشدتها فلا يبقى أحد من الخلائق على كثرتهم إلا ويصل صوتها لأذنيه .

وللصاخة معنى آخر ألا وهو الإنصات والاستماع بتركيز واهتمام وهو وجه ذكره صاحب (الكشاف)، فقال: (يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً، لأن الناس يصخون لها أي: يستمعون) [٢] وليس بين المعنيين – الصوت الشديد والإنصات – تعارض، إذا إن الخلائق تنصت للصوت المرتفع، فتأتى نفخة القيامة شديدة مرتفعة، عالية مدوية فتنصت لها الآذان، وتخشع لها القلوب، وتفزع لهولها العقول.

المسألة الثانية عشرة: ما الحكمة فى ترتيب الآيات لفرار المرء يوم القيامة من أخيه أولاً ثم أمه وأبيه ثم صاحبته وبنيه ؟

الجواب: جاء ترتيب فرار المرء يوم القيامة بهذا الترتيب من الأخ فالوالدين ثم الزوجة والأولاد للتعبير عما يصيب المرء يوم القيامة من هول يشغله عن كل أحد مهما كانت قرابته فى الدنيا وعظيم تعلقه به، وبدأت الآيات بذكر الأقرب فالأكثر قرباً، فالأخ وقد كان عوناً له فى الدنيا، ثم يزداد الهلع فيفر من والديه وكان يحرص على خدمتهما ورعايتهما، ثم زوجه وقد كان يبذل نفسه فى الدنيا للدفاع عنها، فأولاده وهم فلذات أكباده وقد كان فى الدنيا يفديهم بماله وروحه، ولا يغمض له جفن إن مسهم ضرر مهما قلَّ، واليوم يفر من هؤلاء جميعاً لما نزل به من الكرب والهم .

قال شيخ الإسلام فى (مجموع الفتاوى) لما سئل عن حكمة ابتداء الآية بفرار المرء من أخيه، ومن عادة العرب أن تبدأ بالأهم؟ فأجاب السائل

---

(١) المرجع السابق ١٩ / ٢٢٢ .
(٢) الكشاف ٤ / ٧٠٦ .

بقوله: (قلت: إن الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبه، فتارة يقتضي الابتداء بالأعلى وتارة بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى، لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئاً بعد شيء، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائلة، فإنه يُعلَم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد، ولما حصل للمستمع استشعار الشدة مفصلة، فابتدئ بنفي الأبعد منتقلاً منه إلى الأقرب، فقيل أولاً:﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤﴾فعُلِم أن ثم شدة توجب ذلك، وقد يجوز أن يفر من غيره ويجوز أن لا يفر، فقيل: **﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥)﴾** فعُلِم أن الشدة أكبر من ذلك بحيث توجب الفرار من الأبوين، ثم قيل: **﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾** فعُلِم أنها طامة بحيث توجب الفرار) [١].

وذهب بعض المفسرين إلى أن فرار المرء من قرابته المذكورة إنما يكون خوفاً منه من مساءلتهم لتقصيره فى حقهم قال الزمخشرى: (وقيل: يفرّ منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات، يقول الأخ: لم تواسني بمالك، والأبوان: قصرت في بِرِنا، والصاحبة: أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت، والبنون: لم تعلمنا ولم ترشدنا .

وقيل: أوّل من يفرّ من أخيه: هابيل؛ ومن أبويه: إبراهيم؛ ومن صاحبته: نوح ولوط؛ ومن ابنه نوح) [٢].

المسألة الثالثة عشرة: كيف قارنت الآيات بين وجوه المؤمنين ووجوه الفاجرين يوم الدين ؟

الجواب: أوردت الآيات وصفاً لوجوه أهل الإيمان والطاعة يوم القيامة وكذا وصفاً لوجوه الكفر والفجور، بما يسهل على القارئ وضوح الفرق بين أهل الحق وأهل الباطل، فبضدها تتميز الأشياء فأهل الإيمان وجوههم مسفرة، وهو من أسفر الصبح إذا ظهر نوره، فوجوههم يعلوها النور

(١) مجموع الفتاوى ١٦ / ٧٤ .
(٢) الكشاف ٤ / ٧٠٦ .

والبهاء، فما سر هذا النور؟ تعددت أقوال المفسرين فى بيان سر نور وجوه المتقين، فقال بعضهم: "من قيام الليل"، فمن قام فى ظلمة الليل ونصب قدميه بين يدى مولاه والناس رقود كوفئ بالنور فى وجهه والبِشر فى محياه، وهذا ملحوظ فى دنيا الناس بما يرونه من نور الطاعة على وجوه الصالحين، فمن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقد سئل الحسن البصري: "ما بال المتهجدين بالليل منأحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلو بالرحمن فألبسهم من نوره"، وقال سعيد بن المسيب: "إن الرجل ليصلي بالليل، فيجعل اللهفي وجه نوراًيحبه عليه كل مسلم، فيراه من لم يره قط فيقولإنى لأحبُ هذا الرجل"، فنور الطاعة يظهر على وجوه أهل الإيمان فى عرصات يوم القيامة، وقيل "هو نور الوضوء"، وقيل "هذا النور جزاء ما علا وجوه المجاهدين من غبار الحرب ونقع المعارك فى سبيل الله"، وبالجملة فكل الطاعات وكثير القربات لها أثر فى نور الإيمان الذى يظهر على وجه العبد الصالح فى الدنيا ويكون معه فى قبره يؤنس وحشة قبره وينير له ظلمة رمثه؛ ثم يقوده بعد البعث فى عرصات يوم القيامة حتى يعبر به الصراط فيوصله لمقعده فى الجنة .

وأهل الإيمان مع هذا النور يضحكون والناس يبكون، يستبشرون والناس وجلون، مطمئنون والناس خائفون ــ فأى فضل للطاعات فى هذه الدنيا الفانية، ورحم الله عاقلاً آثر دينه على دنياه، وقدَّم طاعة ربه على نفسه وهواه .

أما أهل المعاصى والمنكرات فتعلو وجوههم كدرة معاصيهم وغبرة البعد عن طريق الله، فهى وجوه سوداء بالمعاصى مظلمة بالآثام، قال الله ﷻ: **﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾**(١)، وقد صدق من قال: (لا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه) .

---

(١) سورة الزمر / من الآية ٦٠.

﴿سورة النازعات﴾

وفيها احدى عشرة مسألة :

المسألة الأولى: بم أقسم الله ﷻ فى أول السورة ؟ وعلام أقسم ؟

الجواب: بدأت هذه السورة المباركة بواو القسم، وما بعدها يكون مجروراً وهو المقسَم به، وقد أقسم الله ﷻ بخمسة صفات وأحوال لجنس واحد من خلقه ألا وهو الملائكة، قال السعدى: (هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره) [1]، وقد ابتدأ القسم بأول حال من أحوالهم، وهو:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً (١)﴾: تكاد أقوال المفسرين تجمع على أن المراد بها حال الملائكة حين تنزع أرواح الكافرين من أجسادهم، فتجذبها بعنف وقسوة حتى إذا كادت روح الكافر تخرج ردتها ملائكة الموت ثانية إلى جسده حتى تعيد نزعها مبالغة فى عذابه وإيلامه، والنزع هو إخراج الروح من الجسد ، ومنهم قولهم عن المحتضر: هو فى النزع الأخير، أما **﴿غَرقا﴾** قال البغوى: (والغرق: اسم أقيم مقام الإغراق، أي والنازعات إغراقاً، والمراد بالإغراق: المبالغة في المد) [2]، ويتفق هذا التعذيب لروح الكافر وبدنه على السواء مع قول ابن مسعود: (ينزعها ملك الموت من تحت كل شعرة، ومن الأظافير، وأصول القدمين، ويرددها في جسده بعد ما ينزعها حتى إذا كادت تخرج ردها في جسده بعد ما ينزعها، فهذا عمله بالكفار) [3] وإذا بُشِّر الكافر بعذاب الله وغضبه تفرقت نفسه فى جسده خوفاً وهلعاً فتجذبها الملائكة وتخرجها بشق الأنفس كالغريق في الماء .

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً (٢)﴾: هى عكس الأولى فهى حال الملائكة حين تنزع أرواح المؤمنين، فتسلها سلاً خفيفاً وتنزعها نزعاً رقيقاً، وأصل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٩٠٨ .
(٢) معالم التنزيل فى تفسير القرآن ٥/ ٢٠٤ .
(٣) المرجع السابق ٥/ ٢٠٤ .

(النشط) فى لغة العرب قولهم: "نشطت العقال من يد البعير" إذا حللته منه بسهولة ويسر، أما أنشط العقال أى عقده بالأنشوطة قال الفراء: (والذي سمعت من العرب أن يقولوا: أنشطت وكأنما أنشط من عقال، وربطها: نشطها، فإذا ربطت الحبل فى يد البعير فأنت ناشط، وإذا حللته فقد أنشطته) [١] وروح المؤمن إذا رأت مقعدها من الجنة تنشطت للخروج واندفعت له، فتتلقفها ملائكة الموت بيسر وسهولة .

﴿**وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً (٣)**﴾: تنوعت فيها أقوال المفسرين، فمنهم من ذهب إلى أنها خيول المجاهدين، فالعرب تطلق على الفرس السريع "سابح" وذهب البعض إلى أن المقصود بها النجوم والشمس والقمر فكلها فى الفلك سابحة، وقال عطاء: هى السفن التى تسبح فى البحار، وقد تكون كل هذه المعانى صحيحة لكن الأولى حملها على صفات الملائكة لاستكمال صورة القسم وتتمة معناه، وعلى هذا فالسبح هو السرعة ومعنى الآية أن المملائكة تنزل مسرعة من السماء لتنفيذ أمر الله ﷻ .

﴿**فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً(٤)**﴾: هى الملائكة السباقة ، لكنها تسبق أى شئ ؟

قيل: (تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام،قاله مسروق ومجاهد، وعن مجاهد أيضاً: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وقيل: تسبق بني آدم إلى العمل الصالح فتكتبه، وعن مجاهد أيضاً: الموت يسبق الإنسان، وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة) [٢].

﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً (٥)**﴾: قول الجمهور إن المراد بها الملائكة، ومعلوم أن مقادير الأمور وتدبير الأكوان بيد الله ﷻ وحده لا شريك له فى تدبير ملكه ولا منازع له فى حكمه، أما الملائكة فهى تنزل مسرعة لتنفيذ تدابير الله ﷻ فى خلقه، ونسبة التدبير إليها نسبة مجازية لا حقيقية، بل هى منفذة

---

(١) معانى القرآن ٣/ ٢٣٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٩٣ .

لتدبير الله ﷻ، (قال الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها عز وجل) [١]، ونظائر هذا فى القرآن الكريم كثيرة ، فمن ذلك قوله ﷻعن جبريل – عليه السلام –: **﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾**[٢] فنسب النزول إلى جبريل مع أنه ما نزل بالقرآن الكريم إلا بإذن الله ﷻ.

هذا هو ما أقسم الله ﷻ فما المقسَم عليه ؟

تعددت أقوال المفسرين فى المقسَم عليه فذهب البعض إلى أن المقسَم عليه هو قوله: **﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦)﴾** لكن هذه الآية رقم (٢٦) فى السورة أى جاءت متأخرة بعد ذكر المقسَم به من الملائكة وأحوالهم ولذا اعترض على ذلك بعض أهل اللغة كابن الأنبارى، إذ ليس من البلاغة أن يكون الفاصل كبيراً بين المقسَم به والمقسَم عليه، وقيل: جواب القسم **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥)﴾** لأن المعنى قد أتاك، وذهب القرطبى إلى أن جواب القسم مضمر، (كأنه قال: والنازعات وكذا وكذا لتبعثن ولتحاسبن، أُضمِر لمعرفة السامعين) [٣] .

المسألة الثانية: ما الراجفة ؟ وما الرادفة ؟ وما الفرق بينهما ؟

الجواب: الأصل فى الرجف الاضطراب، والمراد بها – والعلم عند الله – النفخة الأولى التى يموت فيها الخلق، قال الشوكانى: (وهى الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب كالرعد)[٤]، ثم تتبعها وتتلوها الرادفة وهى النفخة الثانية التى تكون عند البعث، وسميت الرادفة لأنها تردف أى تتبع النفخة الأولى، قال ابن قتيبة: (يقال ردفته وأردفته؛ إذا جئت بعده)[٥].

وعلى هذا فإن الفرق بينهما أن الراجفة هى النفخة الأولى وتكون

(١) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣١٥ .
(٢) سورة البقرة / من الآية ٩٧ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٩٤ .
(٤) فتح القدير٥/ ٣٧٤ .
(٥) غريب القرآن ١ / ٥١٢ .

للموت، والرادفة هى النفخة الثانية وتكون للبعث .

المسألة الثالثة: ما المعنى المراد من قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (١٤)﴾ ؟

الجواب: جاءت هذه الآية لتبين إنكار المشركين للبعث، وتعجبهم من الحياة بعد الموت وفناء أجسادهم فى الحافرة أى القبور المحفورة بعد أن صاروا عظاماً بالية وأشلاء ممزقة، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم الموت فماتوا ثم أحياهم الله ﷻ **﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ(١٤)﴾** أي: إذا هم على وجه الأرض أحياءً بعد أن كانوا فى بطنها أمواتاً، وهذه الأرض هى أرض المحشر، (وهي لا تعد من هذه الأرض وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة، ولم يهراق عليها دم) [(١)]، ولو أراد الله ﷻ أرضنا هذه لعبر عنها بالأرض لكنه ﷻ سماها الساهرة إشارة إلى اختلافها عن أرض الدنيا؛ فهى أرض وصفتها آيات أخرى فى الكتاب العزيز بالاستواء والامتداد، وخلوها من الجبال والمنخفضات .

المسألة الرابعة: ما الوادى الذى نادى الله ﷻ فيه موسى؟ وأين يقع؟

الجواب: نادى الله ﷻ نبيه موسى – عليه السلام – فى وادٍ وكلمه فيه، ولذا سُمى موسى بالكليم، والوادى هو المنخفض بين جبلين، وقد وصفه الله ﷻ بأنه واد مبارك مقدس أى مُطهر، ولذلك اختاره الله ﷻ مكاناً ليكلم فيه نبيه واسم هذا الوادى "طوى" فهو واد مقدس اسمه "طوى"، ويقع فى سيناء بمصر، وهو معروف عند سكانها .

المسألة الخامسة: ما معنى اسم "فرعون" ؟ وما الفرق بين "فرعون موسى" و"ملك مصر" فى قصة يوسف " ؟

الجواب: استخدم القرآن الكريم لفظ "الفرعون" فى حق من حكم مصر من أبنائها، أما حين تتعرض مصر لاحتلال خارجى ويحكمها رجل من

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣١٦ .

غير أبنائها فإن القرآن الكريم يسميه بالملك، كما هو الحال مع فرعون موسى وهو من أبناء مصر، أمامن كان يحكم مصر وقت قدوم يوسف – عليه السلام – إليها فهم الهكسوس الملوك الرعاة المحتلين، فعبر القرآن عن حاكم مصر وقتها بالملك.

وفى هذا دلالة على إعجاز القرآن التاريخى ودقته اللغوية فى استعمال الألفاظ .

ولفظ "فرعون" مأخوذ من اللغة المصرية القديمة، وهو مكون من كلمتين: " فر" وتعنى: القصر الضخم أو المبنى الفخم، و"عون" وتعنى: العظيم، ففرعون أى عظيم القصر، وتلك عادة الفراعنة فى اتخاذ القصور والتفنن فى البناء الشاهق كما يدل على ذلك آثارهم ومعابدهم التى خلفوها.

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد هوية الفرعون الذى أُرسِل له موسى، وإن كان هذا الأمر لا يشغلنا فما نزل القرآن الكريم ليكون كتاب تاريخ، ولا ساق القصة فيه لإشغال الناس بتفاصيل دقيقة، المعرفة بها لا تنفع، والجهل بها لا يضر.

بيد أن هناك ملمحاً فى قصة فرعون تحسن الإشارة إليه، وهو ما ذهب إليه بعض المؤرخين وعلماء الآثار من أن جثة فرعون المحنطة فى المتحف المصرى بالقاهرة، هى جثة فرعون موسى، وأنها محفوظة بشكل كامل، حتى أنك ترى فيها شعرها وأظفارها، وقد قرأت أن هناك عينات أُخِذت من هذه المومياء المحنطة وتم تحليلها فى معامل أجنبية لتعطى النتائج مؤشرات على وجود أملاح فى الجثة تمت مطابقتها بأملاح البحار فانطبقت على أملاح مياه البحر الأحمر ، فضلاً عن أن (اكتشاف كسور فى بعض عظامها، من غير أن يكون فيها جروح فى الجلد، مما يدل على أن الكسر فيها كان نتيجة ضغط المياه عليه عند غرق صاحب الجثمان، وقد ذكر الله ﷻ فى ذلك آية معجزة، فقال: **﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ**

لِمَن خَلفَكَ ءَايَة﴾[1]، فبعدما غرق فى البحر، وأماته الله ﷻ قذفه البحر إلى الشاطئ، فأخذه أتباعه وحنطوه، وبقى بأمر الله ﷻ إلى يومنا هذا ليكون لمن خلفه آية) [2] .

المسألة السادسة: أشارت آيات قصة موسى إلى أدب يجب أن يتحلى به الدعاة، فما هو؟

الجواب: تُعلِّمنا آيات قصة موسى التى وردت فى سورة (النازعات) أدباً رفيعاً فى بذل الدعوة وتقديم النصيحة للناس مهما كانت درجة إعراضهم وشدة عداوتهم، فإن الواجب على الداعية ألا يستعلى علي الناس ولا يأمرهم وينهاهم، بل يتبع في نصحه أسلوب الحث والحض بدلاً من الأمر المباشر، فإن النفوس قد جُبلت على حب الإحسان والبعد عن التسلط والأوامر .

ولينظر الداعية الناصح إلى أمر الله ﷻ لنبيه موسى – عليه السلام – لما أرسله إلى فرعون وأمره بأن يخاطبه باللين وأن يدعوه بالإحسان، وهو ما أوضحه قوله ﷻ: **﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (١٨) وَأَهدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخشَى(١٩)﴾**، قال صاحب الظلال: (فعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب لعله ينتهي ويتقي غضب الله وأخذه)[3]، فلم يأمره موسى بالتوحيد أمراً صريحاً، بل عرضه عليه عرضاً رقيقاً مع أنه طاغية من أظلم الطواغيت لنفسه ولشعبه.

وقد علَّق ابن القيم في كتابه (التباين في أقسام القرآن) على ما في هاتين الآيتين من لين الخطاب، أنقله بطوله لما فيه من الفائدة، قال: (ثم أمره أن يخاطبه بألين خطاب، فيقول: **﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (١٨) وَأَهدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخشَى(١٩)﴾**، ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

---

(١) سورة يونس / من الآية ٩٢ .
(٢) راجع إشراقات قرآنية، سلمان العودة، ص٩٩ بتصرف، مؤسسة الإسلام اليوم، الرياض، ط٢، ١٤٣٣هـ.
(٣) في ظلال القرآن ٧/ ٤٤٤ .

الأول: إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام، هو ألطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿**قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ**﴾[1]، ولم يقل: " كلوا ".

الثاني: قوله: ﴿**إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ**﴾، والتزكي: النماء والطهارة والبركة والزيادة، فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله: ﴿**تَزَكَّىٰ**﴾ ولم يقل: أزكيك، فأضاف التزكية إلى نفسه، وعلى هذا يخاطب الملوك.

الرابع: قوله: ﴿**وَأَهْدِيَكَ**﴾؛ أي:أكون دليلاً لك، وهادياً بن يديك، فنسب الهداية إليه، والتزكى إلى المخاطب؛ أي: أكون دليلاً لك وهادياً، فتزكى أنت، كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قوله: " أعطيتك ".

الخامس: قوله: ﴿**إِلَىٰ رَبِّكَ**﴾، فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه، وهو أن يدعوه ويوصله إلى ربه: فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنيناً، وصغيراً، وكبيراً، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام: كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك، وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك .

السادس: قوله: ﴿**فَتَخْشَىٰ**﴾؛ إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته؛ لأن من عرف الله خاف، ومن لم يعرفلم يخفه، فخشية الله مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله: ﴿**هَل لَّكَ**﴾ فائدة لطيفة، وهي أن المعنى: هل لك في ذلك حاجة أو إرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته؛ لا إلى حاجة الداعي، فكأنه يقول: الحاجة لك، وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك، والمرشد لك إلى أعظم مصالحك) [2] انتهى كلامه .

---

(١) سورة الذاريات / آية ٢٧.
(٢) التبيان فى أقسام القرآن، ص ٨٨.

المسألة السابعة: علام يعود الضمير (ها) فى قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا (٣٢)﴾ ؟

الجواب: لما تعرض المفسرون لقوله ﷻ **﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا (٣٢)﴾** أرجعوا الضمير إلى الجبال فكانت عملية الإرساء تتعلق بالجبال على أساس أن الضمير في العربية يعود على أقرب اسم إليه، وانطلاقاً من ذلك فقد فهموا من الآية الكريمة معنى تثبيت الجبال في الأرض، فالجبال هى التى أُرسيت وثُبِّتت فى الأرض حتى لا تقع ولا تسقط .

لكن المتأمل فى الضمير يجده قد ورد فى هذه الآيات أربع مرات كلها تعود على الأرض،**﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا (٣٢)﴾** فيكون المعنى هنا: وبالجبال أرساها، فالأرض قد أرسيت وثُبِّتت بالجبال، بينما المعنى الأول يتعلق بإرساء الجبال على سطح الأرض، والمعنيان صحيحان صحة كاملة حسب معطيات علوم الأرض الحديثة؛ فالجبال مثَبَّتة ومُثبِّتة، فقد ثبتها الله في الغلاف الصخري للأرض، وهي أيضاً مثبتة للأرض كى لا تميد وتضطرب، فالأرض تدور بسرعة كبيرة تتجاوز الـــ ١٦٠٠ كيلومتراً في الساعة، وعند هذه السرعة يختل توازن الأرض ولكن الجبال لها جذور تمتد لأكثر من خمسين كيلو متراً في الأرض، وهذا يعني مزيداً من التثبيت والإحكام لطبقات الأرض، لذلك فإن الله ﷻ قد أرسى هذه الجبال لنستمتع باستقرار الأرض، فقال ﷻ: **﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا (٣٢)﴾.**

وهنا لا بد أن يأتى السؤال: مَن الذي جاء بهذه الحقائق العلمية قبل أربعة عشر قرناً؟ أليس هذا دليلاً على صدق كتاب الله ﷻ ؟

المسألة الثامنة: هل نفهم من قوله ﷻ: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)﴾ أن خلق السماء سابق لخلق الأرض؟

الجواب : الحقيقة أن هذه الآية قد أحدثت إشكالية عند البعض فيما يتعلق بأسبقية خلق السموات والأرض فهناك آيات فى القرآن تبين أن

الأرض قد خُلِقت قبل السماء، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰت وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيم٢٩**﴾[١] ولكن هذه الآية تكلمت عن السماء وبنيانها ثم قال الله ﷻ: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)**﴾ فهذا مما يحدث الإشكال .

لكن الإشكال يندفع بكلام حبر الأمة ابن عباس الذى أورد الطبرى فى تفسيره، قال: (عن ابن عباس قال حيث ذكر خلق الأرض قبل السماء، ثم ذكر السماء قبل الأرض، وذلك أن الله خَلَق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك)[٢]. ومعنى ذلك أن الله خلق الأرض قبل السماء غير مدحوة ثم خلق السموات ثم بعد ذلك دحا الأرض، ومعنى دحاها أى يسر الانتفاع بها بمدها وبسطها، وإخراج الماء منها، وإنبات المرعى فيها، وإنبات النبات يحتاج لليل والنهار ولذا فإن الله خلق الأرض، ثم خلق السموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، قال ابن عباس: (ولم تكن تصلح أقوات الأرض ونباتها إلا بالليل والنهار) [٣] .

المسألة التاسعة: لم سمي يوم القيامة بالطامة ؟ وما معناها ؟

الجواب: (الطامة) فى لغة العرب هى الداهية العظيمة التى لا دافع لها، قال ابن الجوزى: (وفِي الحَدِيث مَا من طمة إِلَّا وفوقها طمة، يَعْنِي: داهية عَظِيمَة) [٤] .

وقد سُميت الساعة بالطامة إذ لا مصيبة تفزع قلوب الكفار وتذهب عقولهم مثلها، إذ تعرض عليهم أعمالهم ويوقنون بالهلاك، ويرون النار بارزة أمام أعينهم، فلا مصيبة أدهى من مصيبتهم، ولا ندم أعظم من ندمهم .

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢٩.
(٢) جامع البيان فى تأويل آى القرآن ، ٢٤ / ٢٠٨.
(٣) المرجع السابق ، ٢٤ / ٢٠٨.
(٤) غريب الحديث، ٢/ ٤٠ ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥ ه ، ١٩٨٥ م .

المسألة العاشرة: ما الدرس الذى يشير إليه قوله ﷻ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكرَٰهَا (٤٣)﴾ ؟

الجواب: هذه الآية نزلت رداً على المشركين الذين كانوا يسألون الرسول ﷺ عن موعد قيام الساعة وهو سؤال سخرية واستهزاء، واستبعاد لوقوعها. فأجابهم الله ﷻ بقوله: **﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكرَٰهَا (٤٣)﴾** أى: لست يا محمد معنياً بميعادها، ولامسئولاً عن وقتها فعلمها عند الله ﷻ، وإنما دورك إنذار الناس بها .

لطيفة يحسن الوقوف عندها :

فيما قررناه آنفاً درس لنافى الانشغال بعظائم الأمور وترك الجدال الذى لا ينفع، وطلب الأهم قبل المهم، وفيه كذلك تنبيه على المعلم والمفتى أن يصرف سؤال المستفتى الذى لا فائدة منه؛ ولا طائل من جوابه إلى جواب مسألة أخرى أهم، وهذه قاعدة قرآنية عظيمة الفائدة، حيث نجد القرآن الكريم يسوق من الفتاوى ما فيه نفع الناس وإفادتهم، ويُعرض عما لا يفيد، بل يجيب عن سؤال غير مفيد بجواب له فائدة حتى وإن لم يكن له تعلق بالسؤال المذكور، كما حوت سنة الرسول ﷺ الهدى ذاته فى أكثر من موضع، ولذا لما سئل ﷺ عن الساعة قال للسائل: " ما أعددت لها؟ "[١]ولم يجبه عن سؤاله، بل أعرض عن الجواب إلى غيره مما فيه فائدة عملية للسائل، ودفعاً له للانشغال بالاستعداد والإعداد لها بدلاً من الانشغال بتوقيت مجيئها.

المسألة الحادية عشرة :ما الدرس المستفاد من قوله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَومَ يَرَونَهَا لَمۡ يَلبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَو ضُحَىٰهَا (٤٦)﴾ ؟

الجواب: تشير الآية الكريمة إلى قِصر الدنيا وتفاهة عقل من تعلق بها، فإن المرء يولد وينشأ ويسعى فى الأرض ويفنى عمره فى أمور الدنيا

---

(١) صحيح البخارى، ٢٢٨٣/٥، ورقمه ٥٨١٩ ، باب "علامة الحب فى الله عزوجل"، وأخرجه "مسلم" في كتاب "البر والصلة والآداب" باب "المرء مع من أحب"، ٢٠٣٢/٤، ورقمه ٢٦٣٩.

وملذاتها ثم يموت، وعندئذٍ تتكشف حقيقة الدنيا ووضاعتها، وقلة أمرها وخستها، وأن الأعوام التى ظنها العبد فى الدنيا طوالاً إذا قيست بعمر المكث فى القبور والبعث والنشور والعرض والحساب فكأنها وقت العشى وهو آخر النهار، أو وقت الضحى وهو أوله .

فيا خسارة من أضاع العمر الأبدى، والزمن السرمدى فى الآخرة، بساعة لذة فى ليل الدنيا، أو معصية فى نهارها، ثم يموت فتذهب عنه لذة معاصيه، وتبقى أوزارها فى كتابه، فيندم وقت العرض ولكن لا فوت، فياليت العبد ادَّكر، وأخذ من الفانية للباقية، وصبَّر نفسه الأمارة على مشقة الطاعة وقتاً يعادل العشى أو الضحى ليربح بعدها الدوام التام فى جنات عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿سورة النبأ﴾

وفيها عشر مسائل:

المسألة الأولى: من الذين يسألون ؟ وعن أى شئ يتساءلون ؟

الجواب: ابتدأت هذه السورة الكريمة بهذا الاستفتاح التساؤلى المبدوء بصيغة الاستفهام (**عَمَّ**) وهى صيغة مكونة من كلمتين: (عن و ما)، ثم أدغمتا معاً فصارتا (عمَّ) وحذفت الألف فى (ما) لدخول حرف الجر (عن) عليها، ومعناها عن أى شئ يسألون ؟

والذين يسألون هنا هم المشركون المكذبون، والمسئول هنا هو الرسول ﷺ، وأما المسئول عنه فقد أوردته الآية الثانية **﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلعَظِيمِ (٢)﴾** والنبأ غير الخبر، فالنبأ هو الأمر العظيم والخبر المهول، وهو يوم القيامة، وقد وصفته الآية بالعظيم زيادة فى بيان أهميته وخطورته، ويكفى أن الله ﷻ سماه نبأ ووصفه بالعظيم. وكان المشركون يكثرون من سؤال الرسول ﷺ عن الساعة، وسؤالهم ليس للتعلم، أو البحث عن الحقيقة للإيمان بها، بل هو سؤال سخرية واستهزاء، وإنكار وتكذيب، ويتضح هذا فى الوعيد الأكيد والتهديد الشديد الذى جاء بعد ذلك فى قوله ﷻ: **﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾**.

المسألة الثانية: ما الدرس المستفاد من قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلنَا نَومَكُمۡ سُبَاتا (٩)﴾ ؟

الجواب: إن من شقاء الناس ابتعادهم عن المنهج القرآنى الذى جاء لإصلاح دينهم ودنياهم، ومن ذلك تلكم الإشاراة بالغة الأهمية فى قوله ﷻ: **﴿وَجَعَلنَا نَومَكُمۡ سُبَاتا (٩)﴾**، فالأصل اللغوى لكلمة السبت تعنى الراحة، قال ابن فارس: ("سبت" السين والباء والتاء أصلٌ واحد يدلُّ على راحةٍ وسكون، يقال للسَّير السهل اللّين:سَبْتٌ) [(١)]، فجعل الله ﷻ النوم بالليل سباتاً، أى انقطاعاً عن العمل وراحة للبدن بخلوده للنوم، حتى

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٩٥ ، أحمد بن فارس بن زكريا، الناشر اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣، ٢٠٠٢م.

يحصل للبدن الراحة، وللنفس الاستجمام استعداداً لبدء يوم جديد ملؤه النشاط والتفاؤل .

ولكن ... أين الناس اليوم من هذه الآية ؟ إن كثيراً من الناس قد قلب ليله نهاراً وجعل نهاره ليلاً ، فتراه يقظاً بالليل نائماً بالنهار، وهذا تغيير للفطرة السوية ورفض للنعمة الإلهية، مما ينعكس بالتوتر والإجهاد الدائم على بدن الإنسان وروحه ، وكلام الأطباء معلوم في أثر السهر، وتأكيدهم على حاجة الجسد للراحة والنوم ليلاًوأن هناك غدد فى الجسد التي لا تفرز إلا في ساعات الليل وهو أمر لابد منه للجسم وعافيته، وبالسهر تضطرب تلك الغدد بما لا يمكن تعويضها حتى بساعات النوم الطوال بالنهار ... فسبحان من أعطى كل شئ خلقه ثم هدى .

المسألة الثالثة: لم سميت الشمس بالسراج الوهاج ؟

الجواب: فى هذه التسمية سر من أسرار الإعجاز العلمى لذى لم يُكتشف إلا فى عصور متأخرة، فتسمية الشمس بالسراج هو أنسب تسمية تبين حقيقة أمرها، فالسراج الوهاج هى صفة الشمس، وقد وصفت بالسراج تشبيهاً لها بالمصباح الذى يضئ للناس فهى مصدر نورهم، ووصفت بالوهاج وهو (الحار المضطرم الاتقاد المتعالي اللهب) [(١)] دلالة على حرارتها العالية وأنها مصدر الحرارة والدفء للناس على ظهر الأرض .

المسألة الرابعة: كيف تكون جهنم مرصاداً للكافرين ؟

الجواب: المرصاد مفعال بمعنى راصد، فجهنم ترصد الكافرين؛فكل الخلق يمرون على الصراط وقد نُصب على شفير جهنم، فمن وفقه الله فى عمل الدنيا نجا، وإلا هوى من على الصراط في نار جهنم،قال الحسن وقتادة في قوله تعالى: **﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادا (٢١)﴾** (يعني أنه لا

---

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ٥ / ٤٢٤ .

يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار فإن كان معه جواز نجا وإلا احتبس)[1]

المسألة الخامسة: ما معنى أحقاباً ؟

الجواب: الأحقاب جمع حقب وهى فترة زمنية طويلة، وقيل: الحقب الواحد: ثمانون سنة، وليس المقصود تحديد فترة زمنية محددة، (قال الحسن: إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: ﴿**لَّٰبِثِينَ فِيهَا أَحقَابا (٢٣)**﴾ فوالله ما هو إلا إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر إلى الأبد، فليس للأحقاب عدة إلا الخلود) [2].

وقيل: إن هذه الآية التى ورد فيها تحديد مدة العذاب بالأحقاب منسوخة ارتفع حكمها بقوله ﷻ: ﴿**فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)**﴾ ولكن هذا القول ضعيف – والله أعلم – لأن الأحقاب فى اللغة هى المدة الطويلة من الدهر غير محدودة، وبالتالى تحمل معنى الخلود فلا داعى للقول بالنسخ فيها .

المسألة السادسة: ما الفرق بين الحميم والغساق ؟

الجواب: قال ابن عطية: (الحميم هوالحار الذائب، وأكثر استعماله في الماء السخن، والعَرَق ومنه الحمَّام) [3]، وأما الغساق فقد اختلف كلام المفسرين فى بيانه فقال بعضهم: هو ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه، يقال: غسق الجرح: إذا سال منه قيح ودم،وقال بعضهم: الحميم هو البارد شديد البرد، قال ابن كثير: (أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وأما الغساق فهو: ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم) [4]، وعلى هذا فإن عذاب أهل النار اجتماع الضدين عليهم، فالحميم حار قد انتهى إلى الغاية فى الحر، والغساق بارد قد بلغ الغاية فى البرد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٠٩ .
(٢) معالم التنزيل فى تفسير القرآن ٥ / ٢٠١ .
(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥ / ٤٢٧ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٧ / ٧٨ .

المسألة السابعة: ذكرت الآيات جملة من ثواب المتقين ... اذكرها ؟

الجواب: قال الله ﷻ: **﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً (٣٣) وَكَأْساً دِهَاقاً (٣٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً (٣٥)﴾** فهذه الآيات وعدت المتقين بالمفاز، وهو الفوز بمطلوبهم، والظفر بمرغوبهم؛ وهو الجنة وفيها من أنواع النعيم ما عددته الآيات؛ففيها الحدائقوالبساتين التى تحوى كل أنواع الثمار والفواكه، وفيها كروم الأعناب المتنوعة من كل ما تشتهيه النفوس، قال النيسابورى: (وخُصَ منها الأعناب لشأن مزيته على سائر الفواكه) [١] ،والكواعب الأتراب وهن الحور العين نساء الجنة وهن فتيات عذراوات كواعب، والكواعب مفرد كاعب وهى الفتاة البكر التى قد بلغت وبدأ ظهور ثديها أمارة على تمام البلوغ ونضرة الشباب، قال السعدى:**﴿أَتْرَابا﴾** أى اللاتي هن على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب، **﴿وَكَأْسا دِهَاقا﴾** (قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهو خمر) [٢]، والكأس هى القدح المملوء بالشراب، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان مملوءاً بالشراب، ولذا وصفها بالدهاق أى المترعة المملوءة ، وقيل: بل الدهاق هى المتتابعة أى التى تدور على القوم فلا ينقطع الشرب منها، وقيل: بل الدهاق هى الصافية،ولا يمنع أن تكون كلها من صفات كؤوس أهل الجنة فهى مملوءة بالشراب الصافى الذى يشرب منه الشارب مرة بعد مرة من غير انقطاع، وأهل الجنة فى نعيم ممدود من غير كدر ولا تنغيص، ولا يخالط آذانهم قبيح قولٍ من لغو وهو الكلام الباطل، **﴿وَلَا كِذَّابا﴾** قُرِئت بالتشديد والتخفيف، فالأصل فيمن يشرب الخمر من أهل الدنيا أن تنعقد مجالسهم

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦ / ٤٣٤ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ٢٢ .

على الباطل ويكثر فيها فحش القول والأكاذيب من أثر مخالطة الخمر لعقولهم، وتأثيرها السلبى على إدراكهم، أما خمر الآخرة فلا تغير عقول شاربيها من أهل الجنة، ولا يجرى على ألسنتهم لغو الكلام وباطله، ولا يكذب بعضهم بعضاً، بل هم فى صفاء ووئام، إخوانٌ قد طهر الله قلوبهم من الغل، وألسنتهم من الكذب ... فاللهم اجعلنا منهم .

المسألة الثامنة: ما دلالة استخدام القرآن الكريم اسم " الرحمن " فى موقف الحساب يوم القيامة ؟

الجواب: لعل القرآن الكريم استخدم اسم الرحمن دون غيره من الأسماء الحسنى فى هذا الموقف المهيب، وهو موقف الحساب، وقيام الخلائق بين يدى الله ﷻ فى خشوع وخضوع، فلا يستطيع أحد منهم أن يتكلم إلا من أذن له الرحمن بالكلام، وقد امتلأت القلوب بالخوف والوجل منه ﷻففى مثل هذا الموقف ورد اسم الرحمن لبيان شدة غضبه وعظيم انتقامه من الكافرين والمعاندين، فالرحمن إذا غضب فمن يقوم لغضبته ؟ والحليم إذا انتقم فمن يتحمل وقع انتقامه ؟

فهذا يوم الهول والفزع، والخوف والوجل، حتى أن الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين يقولون : "سلم . سلم " ولعل هذا المعنى يتضح بجلاء مع ورود اسم الرحمن فهو ﷻ قد غضب مع رحمته، ولو قال الجبار لكان الغضب منه متوقعاً .

المسألة التاسعة: كيف يتخذ العبد إلى ربه مآباً ؟

الجواب: المآب هو المرجع والمنزل والسبيل، فمن شاء أن يجعل لنفسه عند الله منزلاً، وأن يكون له فى هذا اليوم الحق سبيلاً إلى رضا الله، ومرجعاً إلى الجنة، فليؤمن به حق الإيمان وليستزد من أعمال البر والإحسان، والتقوى والإيمان، قال الطبرى: (فمن شاء من عباده اتخذ

بالتصديق بهذا اليوم الحقّ، والاستعداد له، والعمل بما فيه النجاة له من أهواله (مآبًا) ، يعني: مرجعاً) [١] .

المسألة العاشرة: لم يتمنى الكافر أن يكون تراباً يوم القيامة ؟

الجواب: للعلماء فى تفسير أمنية الكافر أن يكون تراباً يوم القيامة أقوال :

الأول: إن الكافر لما يرى العذاب، ويعاين النيران، ويوقن بالهلاك، يتمنى لو كان تراباً عدماً فى الدنيا، وأنه لم يخلق من الأصل .

الثانى: لما يرى الكافر ما يكون بين البهائم العجماوات يوم القيامة حين تُبعث فيقتص من للشاة الجلحاء من الشاة القرناء؛ ثم يُقال لها: كونى تراباً فتموت، ولا تدخل الجنة ولا النار، لأنها فى الدنيا كانت غير مُكلَّفة، وليس لها مهمة إلا خدمة الإنسان، عندئذٍ يتحسر الكافر لأنه سيدخل النار، ويتمنى ساعتها لو كان بهيمة كالبهائم التى جُعِلت تراباً حتى يصير تراباً معها،فيموت موتة أبدية – ولم يكن فى الدنيا شئ أكره عليه من الموت – لكنه يتمناه فى الآخرة حتى لا يُحاسب ويُخلَّد فى النار .

الثالث: قال بعض المفسرين إن هذه المقولة هى لإبليس؛ حيث يتحسر على رفضه أمر الله ﷻ له بالسجود لآدم، لاحتقاره أصل آدم الترابى، وافتخاره بأصله النارى، فيتمنى وقتها لو كان مخلوقاً من تراب،إذ لو كان كذلك لما وقع فى معصية الكبر، ورفض أمر الله ﷻله ، ولكن هذا القول ضعفه كثير من أهل العلم .

قلت: والحق أن عدم قصره على إبليس أولى، فهذه الآيات جاءت فى سياق عام تتحدث عن أحوال المتقين والكافرين، فحملها على العموم أولى، ولو تمنى الكافر أن يكون تراباً؛ فإبليس من باب أولى سيدخل فى هذا النطاق لأنه سيد الكافرين وقائدهم إلى النار .

---

(١) جامع البيان فى تأويل آى القرآن ٢٤ / ١٧٩ .

المصادر والمراجع

١- الإتقان فى علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة سنة ١٣٩٤ه، ١٩٧٤م .

٢- أحكام القرآن، محمد بن عبد الله بن العربى، دار الكتب العلمية، لبنان.

٣- الأدب المفرد ، محمد بن إسماعيل البخارى، دار البشائر، بيروت، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٩ه

٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادى، دار إحياء التراث العربى ، بيروت – لبنان .

٥- أسباب النزول للواحدى ، دار الباز للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٨ ه ، ١٩٦٨ م.

٦- الاستذكار، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٧- إشراقات قرآنية ، سلمان العودة ، مؤسسة الإسلام اليوم ،الرياض، الطبعة الثانية، سنة ١٤٣٣ ه

٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختارالشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة : ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ مـ .

٩- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، جابر بن موسى الجزائرى ،مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٤هـ ،٢٠٠٣م .

١٠- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى، دار الفكر، بيروت.

١١- البحر المديد، أحمد بن محمد بن عجيبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٣ه ٢٠٠٢م

١٢- بدائع الفوائد، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان .

١٣- البرهان فى علوم القرآن، محمد بن بهادر الزركشى، دار المعرفة، بيروت ، سنة ١٣٩١ ه
١٤- التبيان فى تفسير غريب القرآن ، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، دار الصحابة للتراث بطنطا ، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م .
١٥- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠ه -٢٠٠٠ م .
١٦- تفسير البيضاوى ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
١٧- تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار، د. مساعد بن سالم الطيار، دار ابن الجوزى، الطبعة الثامنة، ١٤٣٠.
١٨- تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربينى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
١٩- تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٢٠ه ، ١٩٩٩م .
٢٠- تفسير المراغى، أحمد مصطفى المراغى، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة .
٢١- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠١ م .
٢٢- تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٠ه، ٢٠٠٠م .
٢٣- جامع البيان فى تأويل آى القرآن ، محمد بن جرير الطبرى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٠ه
٢٤- الجامع الصحيح ، محمد بن إسماعيل البخارى، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٤٠٧ه ، ١٩٨٧ م .
٢٥- الجامع الصحيح سنن الترمذى، محمد بن عيسى الترمذى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

٢٦- جامع العلوم والحكم ، عبد الرحمن بن فرج بن رجب ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨ه
٢٧- الدر المنثور للسيوطى ، دار الفكر، بيروت – لبنان ، ١٩٩٣م .
٢٨- الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ، دار الوفاء ،مصر، الطبعة السابعة عشرة ، ١٤٢٦ه.
٢٩- الزاهر فى معانى كلمات الناس ، أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنبارى، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ه ، ١٩٩٢ م .
٣٠- سنن البيهقى الكبرى، أحمد بن الحسين أبوبكر البيهقى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ه ، ١٩٩٤م .
٣١- شرح العقيدة الطحاوية ،لابن أبى العز الحنفى ،المكتب الإسلامي ،بيروت ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٩١ه
٣٢- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٨ه – ١٩٧٨م .
٣٣- صحيح ابن حبان ، محمد بن حبان ، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ه
٣٤- صفوة التفاسير، محمد على الصابونى ، دار الصابونى للطباعة ، الطبعة التاسعة .
٣٥- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م
٣٦- غريب الحديث ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥ ه ، ١٩٨٥ م . ب ١٦٧ .
٣٧- غريب القرآن ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م.
٣٨- فائدة جليلة فى قواعد الأسماء الحسنى، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، الناشر غراس، الكويت، ط١، سنة ١٤٢٤ه، ٢٠٠٣م .

٣٩- الفائق فى غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشرى، دار المعرفة – لبنان، الطبعة الثانية.
٤٠- فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ، دار الفكر بيروت – لبنان ١٤٠٣ه ، ١٩٨٣م .
٤١- فى ظلال القرآن، سيد قطب، مطبعة الحلبى، القاهرة، الطبعة الثانية .
٤٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشرى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان .
٤٣- الكشف والبيان ، أحمد بن محمد الثعلبى النيسابورى ، دار الكتب العلمية – بيروت ،الطبعة الأولى ١٤٢٢ه ، ٢٠٠٢م .
٤٤- اللباب فى علوم الكتاب لأبى حفص عمر بن على بن عادل الدمشقى، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م . ب ١٤٦ .
٤٥- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت– لبنان .
٤٦- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٤ه ، ٢٠٠٤م .
٤٧- لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل، فاضل السمرائى ، دار عمار، الأردن، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٢٣ه، ٢٠٠٣م .
٤٨- مباحث فى علوم القرآن ، مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثالثة ، سنة ١٤٢١ه ،٢٠٠٠م.
٤٩- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ .
٥٠- المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية ، خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م
٥١- المحيط فى اللغة ، إسماعيل بن عباد ، عالم الكتاب، بيروت– لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ه، ١٩٩٤م.

٥٢- مختار الصحاح ، محمد بن أبى بكر الرازى ، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ ه.
٥٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، محمد بن أبى بكر ابن القيم ، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ ه ، ١٩٧٣م .
٥٤- المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٧ه ، ١٩٩٧ م .
٥٥- المصنف فى الآحاديث والآثار، أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبى شيبة ،مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ه .
٥٦- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا، الناشر اتحاد الكتاب العرب، الطبعة ١٤٢٣، ٢٠٠٢م.
٥٧- مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازى ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١ه،٢٠٠٠م .
٥٨- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، يحى بن شرف النووى ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٢ه .
٥٩- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٢م.
٦٠- النكت والعيون، علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان .

تم الكتاب بحمد الله ﷻ

تم الكلام وربنا المعبـــود * وله الثنا والعلا والجـــود**

ثم الصلاة على النبى محمد * ما ناح قمرى وأورق عود**

الفهرس